الطبعة الثانية

خطيئة السراب

رسول درويش

رواية

سرديات

الطبعة الثانية 2022

خطيئة السرداب

اسم الكتاب : خـطـيـئـة الـسـرداب

النوع : روايـة

تأليف : رسـول درويـش

تصميم الغلاف : عـزالـديـن امـحـيـنـدات

الإخراج الفني: مـكـتـب خـدمـات **"سـرديـات عـربـيـة"**

الترقيم الدولي : SBN 2-78-542-9953-978 / من دار فراديس

للطباعة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ مملكة البحرين .

طـبـعـة جـديـدة 2022 م

منطقة اللوزي ـ مدينة حمد
المحافظة الشمالية ـ مملكة البحرين

almuathen73@gmail.com
0093-39251412

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرُض صاحبه للمسألة القانونية.
أمـا حقـوق الملكيـة الفكريـة والآراء والمـادة الـواردة فى الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

خطيئة السراب

رواية

رسول درويش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أئنكم لتأتونَ الرجالَ شهوةً من دون النساءِ بل أنتم قومٌ تجهلون ﴾
صدق الله العظيم

النمل 55

الإهـداء ..

إلـى تـلـك الـمـرأة
الـتـي بـعـثـرتـنـي فـي الـحيـاة،
فـسـقـطـتُ فـي الـجـبِ ..
ولـكـن ..
آثـرتُ ألّا يـلـتـقـطـنـي بعضُ السيـارة
فـعـدتُ إلـى الـيّـم ألـمـلـمـنـي ..
أنـتِ،
أيـتـهـا الأنـثـى ..
أهـديـكِ:
كـتـابـي ... وأنـا.

رسـول درويـش

الفصل الأول

بغداد

كان لسقوط بغداد عبر التاريخ هزاتٌ زلزاليةٌ ارتدادية غيّرت معالمَها وبعثرت أوراقها، فبغداد ليست كغيرها من عواصم العالم، بغداد ليست عاصمة للعراق وحده، بل هي عاصمة رائدة لمن يضعه القدر بجوارها، فإن سمت أخذت حاشيتها لعنان السماء، وإن سقطت فما تسقط إلا تضحية لغيرها.

سقطت بغداد في العام 1258 م على يد هولاكو المغول فانتهت الدولة العباسية بعد أربعة قرون وربع من الحكم ..ليدور الزمن دورته بعد قرون عدّة و تتبعثر بغداد مرة أخرى على يد الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها في العام 2003 ولا تزال تحاول جاهدة أن تلملم أشلاءها وتخرج للحياة حاملة حرفا وغصن زيتون.

بين مشهدي السقوط، كان للعالمين العربي والإسلامي عثراتٌ برزخيةٌ أخرى، وبعد اندحار صدام حسين وتقزمه جرذاً في الجحر المشهود، ودخول الغزاة فاتحين، وتناحُرِ الأخوة الفرقاء العراقيين على الجاه والسلطة، ترحّم البعض على الطاغية صدام وبكى آخرون جبروته وطغيانه؛ ففي عصره المُرّ، كان التزاوج ممكنا تحت الأرض والعيش فوق سطحها مثمراً، حيث تُمارسُ الحريّاتُ الشخصيّةُ بعيدا عن العيون بأمان .. وكان أمانًا يغبطهم عليه إبليس نفسُه، فلم يوسوس الشيطان قط لأحد من الجنود ولا الشرطة ولا عسس الحزب لفضح باطن الأمور، فكأنه كان يحتفل فرحا ويشرب نخب ذلك كل مساء.

وكما اجتمع نهرا دجلة والفرات بصورة قدريّة في شط العرب رغم الفراسخ التي تُباعد منبعيهما، اِلتقى الشابّان كاظم وقادر دون خطط مسبقة، حيث تكفّل القدر أيضاً بربط حبلهما السريّ ليصبّ رحيقهما على تراب بغداد قبل أن يستشري منتشراً باحثاً عن مصب مشترك.

تعرقل الفتَيان ببعضهما، فتعرف كاظم إلى قادر في العام 1995 م بإحدى المدارس الثانوية ببغداد والتي تُعنى بالطلبة المتفوقين والمتميّزين، تضم هذه المدرسة بين جنباتها ثمانية عشر صفاً دراسيًّا، موزّعة بين المساحات الخضراء، تستظل إدارتها بأشجار نخيل باسقة متراصة، تتناثر تمورها السوداء على جنبات الممرات، كانت المدرسة تقبع في إحدى ضواحي بغداد قريبا من جسر الجمهورية الشهير ..

وإلى هذا النوع من المدارس، يتوافد الطلاب المتفوقون جداً من كل الفئات الاجتماعيّة بمختلف أطيافهم ويجمعهم غالباً دينٌ واحد ومذاهبُ شتَّى، يحتشد فيها نبلاء العصر من الطبقة المترفة، كأبناء مدرسيّ الجامعات خاصة ولكن ينازعهم الكادحون لقمة العلم؛ فهناك تختلف متفاوتة قدراتهم المادية بين تاجر كبير وبين إسكافيٍّ حافٍ فيما تكاد تخلو جنبات المدرسة من أبناء العسكريين والحزبيين الذين يحاول الكثير من الطلاب الابتعاد عن مخالطتهم تحاشيًا لمطباتٍ لا تُحمدُ عقباها.

كان قادر في ربيعه الخامس عشر، فتىً يختلف عن الآخرين في هدوئه وانطوائه، في نظافته وأدبه، لبق في حديثه ناعم في تعامله، لا يحب العراك ويتجنب الاحتكاك

بالآخرين ولو بمجرد الكلام، يحبّ الدراسة ويواظب عليها كالعصافير في إبكارها، كان طويل القامة ضيق الكتفين، ناعم العود، بهيّ الطلعة بعينين عسليتين وشعر بُنيّ ناعم تداعب الريح الخفيفة خصلاته كلما هبّت، تتسلل إليه صفات الأنوثة خلسة، وتبدو عليه ملامح العوز والحرمان رغم يُسر عائلته التي كان عائلها زاهداً في الدنيا مترفعا عن كمالياتها وإغراءاتها، إلا أن عزة نفس قادر تسمو به فيترفّع عن السؤال من والده ومن سواه.

وُلدت علاقة كاظم بقادر بانسيابيّة من خلال الفصل المدرسي الذي يضمّ في جنباته أربعة وثلاثين طالبا، لكل طالبَين منهم رحْلَة خاصة (طاولة ومقعد مشترك)، يتقاسمانها معا فتختلط أقلامهما قبل أفكارهما، ثم امتدت وتطورت علاقتهما إلى لقاءات دائمة في الفسحة بالساحة المدرسية، يتبادلان طعامهما وشرابهما وحتى أحاسيسهما، ثم تبعتها اللقاءات الدورية خارج أسوار المدرسة، فما كانا يفترقان في نهاية الأسبوع المدرسي حتى يلتقيا تلقائيا، ودون ترتيب مسبق في الإجازة الأسبوعية ببيت أحدهما أو على ضفة أحد الأنهر الفرعية، كان كاظم يتناسى أحد دفاتره في حقيبة قادر عنوة ليأتي باحثا عنه، ومتسائلا إن كان قد نسي أن يعيده له. حاول مرارا أن يكون صاحب السبق في زياراته المفاجئة إلا أن قادر كثيرا ما كانت له الغلبة، حتى أبدى كاظم رغبته علناً في رؤية بيت صديقه فقابل الصديق طلبه بالرفض المزيّف، وتهرّب من دعواته الملحة والمتكررة معلّلاً ذلك بأن الوقت لم يحن بعد، فكأنما لم يرغب أن

يعرف عائلته ولا نمط حياته، وبدا كمن يخفي سراً ويتجنّب افتضاح أمره.

تواعد الصديقان ذات مرة للسباحة في نهر دجلة حيث تغص شواطئه بمختلف الأعمار، ويهرب العراقيون من شمس بغداد الحارقة في الصّيف وكأنها تذكرهم بجهنّم حيث لا مفر! كان قادر لا يتقن السباحة وكأنه ليس حفيدًا للفراتين؛ فكان يُفضّل السّباحة بالقرب من صديقه الذي يضمه نجدةً كلّما طلب المساعدة، أحسّ كاظم برقة عظم قادر ونعومة جلده وتلذذ بضمّه وملاصقته كلّما دفعته شبه موجة إليه، فحرارة جسمه تسري في عروقه كلّما لامسه ومسح عليه؛ أدرك كاظم أن قادرَ يحمل نفس الرغبة المتوهجة التي عنده حتى كاد يفتح فمه لابتلاع لسانه كلما حانت الفرصة ودفعته موجة خجولة أخرى باتّجاهه. وجدا اللذة الكامنة وفرّت الغضاضة كلّما تلاصقا، كانا يجلسان بجوار بعضهما في الفصل التصاقاً وترتبط أيديهما وتقيّدهما، وشيئا فشيئا صارا يقضيان وقتا أكثر يختبئان عن العيون ويستمتعان بحبهما بل و"يمارسانه"سرّاً.

*****

مرّ ما يقرب من العام الدراسيّ على "حبّهما" ولم يتمكن كاظم من دخول بيت محبوبه ولو خلسة، انتظر دعوته طويلاً ولا أمل قريباً بدا يلوح في الأفق، أثاره مرةً أن قادر لا يعرف كيف يصلي حين يُقحم قسراً لممارسة طقوس الصلاة، كما حدث عند دخولهما مع والد كاظم لمسجد الكاظميَين في جولة دينية سياحية معتادة، فكان يقف إلى جانبهما راكعا

ساجدا كالآلة الصماء؛ سأله كاظم إن كان يصلي فصمت كالعروس حين تُطلب يدها.

أثار الغموضُ الذي يلف قادر وبيته وأهله فضولَ كاظم، فقرر في دهاء ثعلبيٍّ أن يبحث عن وسيلة تخول له دخول بيت صديقه ولو تسّلق جدرانه، وللفضول في ذاته متعة وإثارة متوهّجة فكيف إذا تزامنت هذه المتعة مع تدفق طاقة المراهقة المتهوّرة.

يقبع بيت العائلة الكبير لقادر في أحد أزقة حي الجادرية ببغداد، ذلك المنزل(بيت العائلة) الذي يلتقي فيه جميع أفراد الأسرة نهاية كل أسبوع وفي المناسبات والإجازات، تلفه مزرعة صغيرة بأسوار حديدية مترفة ومتعالية لا يسهل اختراقها ولكن يمكن اختلاس النظر من خلالها، وتُظله سدرتان عملاقتان ونخلة راكعة باتجاه القبلة، جدران غرف المنزل مرتفعة نسبيا بينما جدار الفناء (الحوش) الداخليّ منخفض، يمكنك معاينة جوف المنزل وأحشائه بالوقوف على أي تلّة أو مرتفع خارجيّ، والبناء ذاته ليس بالجديد ولكنه يدفن أسرارا ويكتم أخبارا بين متاريسه المستحدثة.

راقب كاظم المنزل بعين بعثيّةٍ استطلاعية مراراً لعله يجد وسيلة لاقتحامه، وفي كل مرة كان يطرق الباب متسائلا عن قادر كان يُطلب منه التريّث بعيدا حتى يخرج الفتى فيشدّه من يديه ليسحبه بعيداً.

في التاسع عشر من يوليو العام 1996، وخلال محاولاته الدءوبة لكشف الغموض وفك الطلاسم، وقعت عينا كاظم على ما أدهشه ولكنه دحر فضوله الذي تحول مع الزمن إلى

وقاحة استاء منها هو شخصيّاً، فنفسُك التي بين جنبيك كالحصان يصعب كبح جماحها كلّما أرخيت لها الحبال.

في صبيحة ذلك اليوم، خرج قادر مع أبيه وأخوته يرتدون الخرقَ البيضاء على رؤوسهم وأجسادهم والابتسامة تعلو محياهم وترسمها مشرقة انعكاساً للرضى النفسي. مرّوا أمامه وكأنّهم أشباح بيض يمس نفسك الإمعانُ في أطيافهم ويأسرك خشوعهم وتسبيحهم الذي لا ينفك تردده شفاههم، تساءل إن كان هؤلاء في طريقهم إلى الحج بمكة المكرمة ولكنه ليس موسم الحج وبغداد ليست طريقا للحجاج.

راقبهم كاظم عن كثب مقتفيا غبار أقدامهم دون أن يثير انتباههم حتى سمعَ همهمة تسبيحهم، و شعر ازدياد خشوعهم كلما تقدموا، استمر لحاقه بهم كالأفعى فيما يمرون بين الأزقة مثل إبرة خياطة بتعوجها وانسيابيتها الحادة، وصلوا إلى إحدى المزارع الفاقعة ألوان زهورها والعالية أسوارها، وعبروا مدخلها الأخضر فبانت غرفة كبيرة مبنية من الرخام الأبيض والحجارة البارزة بهندسة تظهر إتقان مصممها وبراعة بنـّائيها، يعلو الغرفة صليبٌ خشبيٌ كبيرٍ مغطىً بقماش أبيض تتلاعب به الريح مبرزةً ساقه حيناً ومُخفية كتفيه تارة أخرى، وقف الفتى خارج المزرعة بعيدا عن الأعين فيما تتوافد أفواج أخرى على المبنى زرافاتٍ زرافاتٍ بطمأنينة تجعل الطيور تقف على الأغصان وتحط على الرؤوس دون خشية من مكروه يمسها.

زلزله ذلك المشهد السينمائي المثير الذي يبعثر خط سير الدماء ويربكها في شراييننها، فعاد مساء إلى البيت مسرعا و

قلبه يزداد خفقانا حتى استلقى على ظهره صامتا مذهولاً في وسط المنزل بالقرب من إناء ماء دجلة وسلة التّمر المحلّى، كان يمثّل على أمّه تناول العشاء مبكّرًا وهي تعرف أنّ القلق يأكله ويطرد الطّعام بعيداً عن فمه، وتطول عمليّة المضغ لديه، وتعهّد أن يستيقظ باكرًا ويذهب ليستكشف ما يدور من أسرارٍ في مزرعة الجادريّة.

*****

في الصباح الباكر ومع الأمل الذي تبعثه طيور بغداد عنادا لأهلها لتذكّرهم بمتعة الحياة لا أتراحها، ذهب كاظم مهرولاً دون أن يخبر أحدا عن وجهته وكله طمعٌ في ألا يفوته أيُ مشهد مسرحي قد لا يراه بقية حياته، ما إن حطت قدماه قرب المكان حتى رآهم يخرجون في زيهم الأبيض الملائكيّ في طابور تتشابك فيه الأيدي متحابّة وتعلو فيه همهمات التسبيح الذي لا يُفهم منه شيء رغم إمعانه في استراق السّمع، أزف الوقت، حتى تيقّن أنه لم يكن بلغة الضاد.

تبعهم كالنّمل في هدوئه ودقّته حين يقتفي خُطى سابقيهِ، وقفوا أمام أحد الأنهر الفرعية الجارية لدجلة وعلى ضفتيه سعف النّخيل، وفي صمت رهيب وخشوع مهيب تقدم أحدهم وكان يبدو عليه أنّه أكبرهم سنا وأجلّهم مكانة مقتحما النهر برجله اليمنى ليضرب المياه الراكدة ثلاثا بعصاً لم يحملها قبله غير موسى عليه السلام.

ارتمست الجموع البيضاء على إثره في المياه الجارية بلهفة شديدة وكأنها تسبح فيه للمرة الأولى، واغتسل فيه كل واحد منهم ثلاث مرات تخللها ما يشبه الأدعية المأثورة،

مكثوا في المياه طويلا، ثم توجهوا إلى الشاطئ الأيمن بأهازيج وتواشيح مؤثرة والسعادة تغمر وجوههم وتناولوا وجبة (مقدسة) دسمة أُعدّت سلفا على ضفاف النّهر، واستمرت طقوسهم التي كان يبدو أنّها دينية، حتى أفل قرص الشمس وتوشحت السماء باللون الأحمر.

اختلطت عليه الأفكار وتناوبَت، ورجلاه تعيدانه متثاقلتين نحو بيتهم، كأن ما رآه أضغاث أحلام، ضرب رأسه بقبضة يده اليمنى ليتأكد أنّه لم يكن نائما، فما انفكّ المشهد المهيب ماثلا أمام عينيه بل تمادى جاثماً على فؤاده.

في مساء اليوم التالي، طرقَ المكان نفسه مصطحبا شقيقه الأكبر يوسف من أجل إيقاظه إن كان نائما أو شرح ما يمكن شرحه ، فهو كثير الاطلاع والمعرفة ومدرسته الحياة بحلوها ومرّها، تسمّرا بعيداً، يرصدانهم وطقوسَهم دون أن ترصدهما عيونهم. وبسرعة العارف المتيقن قال يوسف:

- أظنّهم من الصابئة المندائيّين، فطقوسهم الدينية خليط من الطقوس الإسلامية والمسيحية.

- وهل هم مسلمون؟ أهم شيعة أم سنّة؟

- لا، ليسوا مسلمين ولكنهم يعبدون اللّه تعالى كما أعرف.

- وفيمَ يتشابهون معنا؟

- يؤمنون بأنّ آدم هو أبو البشر وأن يحيى بن زكريّا نبيّ من أنبياء اللّه.

- وفيمَ يتشابهون مع المسيحيّين؟

- ربّما في الصليب الذي يغطونه برداء أبيض.

فأردف مهمهما لنفسه متسائلاً:

- آه، ألهذا لم أدخل بيت قادر؟!
- ربما يا كاظم، إياك أن تطلق حكما متسرعا،هيّا فلنعد.
- اِنتظر، كيف تكون صلاتهم؟
- لا أعرف يقيناً.
- مممممم.
- هيا .

*****

قرّر كاظم أن ينتظر زيارة قادر فهي لن تطول وإن اليسر يأتي مع العسر، تسامر مع السماء: "الحبّ في اللّه ينسيك الدنيا، وحبّ الدنيا يرديك صريعاً ويعيدك للتراب، فأين يقف حبّي لك يا قادر؟"

بعد أسبوع من لقائهما الأخير، عاد قادر إلى قدره فرحا طامعا في قبلة حارّة كانت بادية على شفتيه، فالشّفتان تتهيـآن بارتخاءٍ مثير وتُلقيان رحيقهما متى رغبتا ثم تهدآن إذا عاد خفقان القلب لطبيعته في كيمياء جنسيّة مستترة.

لم تبدُ على كاظم تلك الرغبة المتوقعة ولا اشتياق الأحبة، فسأله قادر مترددا:

- كاظم، ما بك يا رجل؟
- أين كنت طوال هذه المدّة؟
- في البيت، مع العائلة، عملٌ لا ينتهي.
- عملٌ في البيت أو في النهر؟

زاد ارتباكه، وتجلّت حَيرته وعبثت يداه بذقنه وخديه كمن يرتجي خادم الفانوس السحري:

- من أخبرك؟

- كنت أنتظر أن تخبرني من تلقاء نفسك، ألا أستحقّ أن أعرفك؟
- بلى.
- ولماذا لم تخبرني؟
- خشيت أن تبتعد، وأنا أراك حباً و روحاً.
- للحبيب حقوق، ومنها معرفة حبيبه كما هو بلا رتوش.

تلّه بغتةً من يديه وضمّه بحرارةٍ لم يعهدها منه مسبقا، وراح يشمّه كمن يعاين فاكهة طازجة تتغلغل رائحتها إلى الرأس قبل الأنف، استلقى على ظهره تمهيداً لتداخل الأجساد ولقاء الأرواح، فنار العاشق لا يطفئها إلا تدفّق المياه السّاخنة، والوصال يخمد نار العاشقين، وهو البرزخ بين رغبة النّفس الجامحة وبين الفكرة الرّاجحة.

بعد عراك الفراش، عراك اللّاغالب واللّامغلوب، ودموعه وهدوء الأنفس، طلب مجدّداً أن يزوره في منزلهم وأن يعرف كيف يعيش حبيبه، فدعاه للحضور غداة نهاية الأسبوع بعد أن يمهّد للأمر مع والديه ويفتح الباب لمعارفَ حديثة.

*****

فتح كاظم الباب بطرقتيْن خفيفتيْن فوجد نفسه داخل الفناء (الحوش) المغطاة أرضيته بالبلاط الرخامي الأبيض متوسطاً الغرف الثلاث المتقابلة في آخر المنزل بينما يجثم المطبخُ مزهواً ببابه الخشبي العتيق على اليمين والحمام ببركته الزاهية محاطاً بأشجار الياسمين الصغيرة في أقصى اليسار، سمعَ صوت أم قادر مرحبة كمن تعرف الزائر وتترقبه دون أن تراه:

- أهلا بك بنيّ، أنت كاظم صديق قادر..؟
- نعم يا خالة.
- تفضل، قادر بانتظارك في تلك الدار التي على يمينك.
ما لبثت عيناه أن ارتفعتا حتى التقتا بعيني قادر وقبل أن تنقله رجلاه خطوة واحدة، جاءه صوته وهو يكاد يرفع الباب المعتق ليفتحه:
- كاظم، تفضل هنا، الوالد يريدٍ رؤيتك أيضا.
- السلام عليكم .. أقصد مرحباً.
تلعثم وهو يلقي التحيّة، فلا يعرف إن كانت تحيتهم سلاما.
- وعليكم السلام، أهلا بك بنيّ، تفضّل، كيف حالك؟
- بخير.
- كيف عائلتكم الكريمة يا بنيّ؟
- جميعهم بخير .. الحمد لـ ....
تلاشى الصوت قبل أن يذكر لفظ الجلالة.
- وما أخبار المدرسة والدّراسة؟
- بخير يا عمّ.
- أريد منكما التفوّق، النّجاح بلا تفوق كالماء الذي يزيد الظمأ.
- دعواتك يا عمّ.
- والشّهادة بلا علمٍ إناء أجوف.
- أكيد.
- كما تدركان، المعرفة قوّة وهي سبيلكما للنّجاح في الحياة.
- نتمنى أن نكون عند حسن الظنّ.
ـ سأترككما، فالحياء سيقطع جزءاً من كاظم.
- لا، يا عمّ، يشرّفني بقاؤك ولقاؤك الذي طالما انتظرته.

- أشكرك بنيّ.
- أيمكنني أن أطرح بعض الأسئلة؟ إن أحببت.. إذا أمكن؟
بنصف ابتسامة حذرة:
- تفضل ولكن بعد أن تتناول طعامنا.

انتظر كاظم المائدة لعلها تساقط عليه معرفة لا طعاما، بدت الحيرة تغلب عليه وتداعب عينيه يمنة ويسرة، أصبحت يداه لا تعرفان الاستقرار ولا السّكون، عبثاً يحاول الهدوء ولكن دون جدوى ... تناول من المائدة موزة واحدة ثم تحدث بصوت خاشع:
- سمعت عن ديانتكم القليل، هل لك أن تخبرني عنها يا عمّ؟
- ماذا تريد أن تعرف؟
- إنّكم غير مسلمين ولكن أخلاقكم غاية في السموّ، يحسدكم عليها الجميع.
وبنظرة شاردة:
- يسعدني بنيّ، ماذا تريد أن تعرف؟ (واعتدل في جلسته ينظر إلى الأعلى)
- كل ما يمكن أن تقوله.
- كلّ شيء ؟؟؟...صعب.
- إذن ما يحلو لك يا عمّ.
- خيراً، اسمع بنيّ، نحن نُسمَّى بالصّابئة المندائيين، نتحدث اللغة الآرامية، وهي لغة سريانيّة قديمة جدا ظهرت قبل ولادة المسيح عيسى عليه السلام، نعتبر آدم عليه السلام هو نبيّنا الحقّ وأن ديننا سبق الأديان كلها وأن نبيّ الله يحيى بن زكريّا عليه السّلام أُرسل لقومنا في أرض فلسطين، نتعبّد

بكتابنا المقدّس "كنزا ربّا" (الكنز ربّه) وهو مصحف آدم عليه السّلام، وأما سِفر "دراشة إديهيا" ففيه تعاليم نبيّنا العظيم يحيى بن زكريّا، لنا نفس القيم الإنسانيّة التي تزخر بها مختلف الأديان السماويّة منها والأرضيّة، من تحريم للزّنا والكذب والخداع والنّفاق والخيانة وغيرها..

- حدّثني عن كتابكم المقدّس "كنزا ربّا" يا عمّ.

- هو كتابنا المقدّس، ويحتوي على عدة فصول تبحث في وصف الخالق ووصايا عامّة، وعن التّعميد وخلق الأكوان والإنسان وهبوط النّفس وعروجها ثانية إلى الخالق ومحاورات فلسفيّة حول الموت والحياة والإنسان، كما يتناول عرش ملك النور العظيم، خالق جميع الظّواهر .

- وماذا كنتم تفعلون في النّهر؟

- إنّه التّعميد.

- التّعميد؟

- نعم، التّعميد هو الغسل في المياه الجارية ويحدث في مناسبات عدّة منها أيّام عيد الخليقة (البنجة) وهي الأيّام الخمسة المقدسة التي تتوافق مع أعياد الرّبيع، ومنها تعميد الولادة والزّواج، والارتماس في الماء الجاري ويكون ثلاثا لتطهير الجسد والرّوح والعقل.

- إيه.

- المزيد؟

- يمكن.. ربّما ولكن لا أعرف الآن.

- أهناك ما تودّ أن تعرفه؟

- لا، شكرًا يا عمّ، أتسمح لي أن أخرج مع قادر؟

بكتابنا المقدّس "كنزا ربّا" (الكنز ربّه) وهو مصحف آدم عليه السّلام، وأما سِفر "دراشة إديهيا" ففيه تعاليم نبيّنا العظيم يحيى بن زكريّا، لنا نفس القيم الإنسانيّة التي تزخر بها مختلف الأديان السماويّة منها والأرضيّة، من تحريم للزّنا والكذب والخداع والنّفاق والخيانة وغيرها..

- حدّثني عن كتابكم المقدّس "كنزا ربّا" يا عمّ.

- هو كتابنا المقدّس، ويحتوي على عدة فصول تبحث في وصف الخالق ووصايا عامّة، وعن التّعميد وخلق الأكوان والإنسان وهبوط النّفس وعروجها ثانية إلى الخالق ومحاورات فلسفيّة حول الموت والحياة والإنسان، كما يتناول عرش ملك النور العظيم، خالق جميع الظّواهر .

- وماذا كنتم تفعلون في النّهر؟

- إنّه التّعميد.

- التّعميد؟

- نعم، التّعميد هو الغسل في المياه الجارية ويحدث في مناسبات عدّة منها أيّام عيد الخليقة (البنجة) وهي الأيّام الخمسة المقدسة التي تتوافق مع أعياد الرّبيع، ومنها تعميد الولادة والزّواج، والارتماس في الماء الجاري ويكون ثلاثا لتطهير الجسد والرّوح والعقل.

- إيه.

- المزيد؟

- يمكن.. ربّما ولكن لا أعرف الآن.

- أهناك ما تودّ أن تعرفه؟

- لا، شكرًا يا عمّ، أتسمح لي أن أخرج مع قادر؟

- بالطّبع، رافقتكما السّلامة.

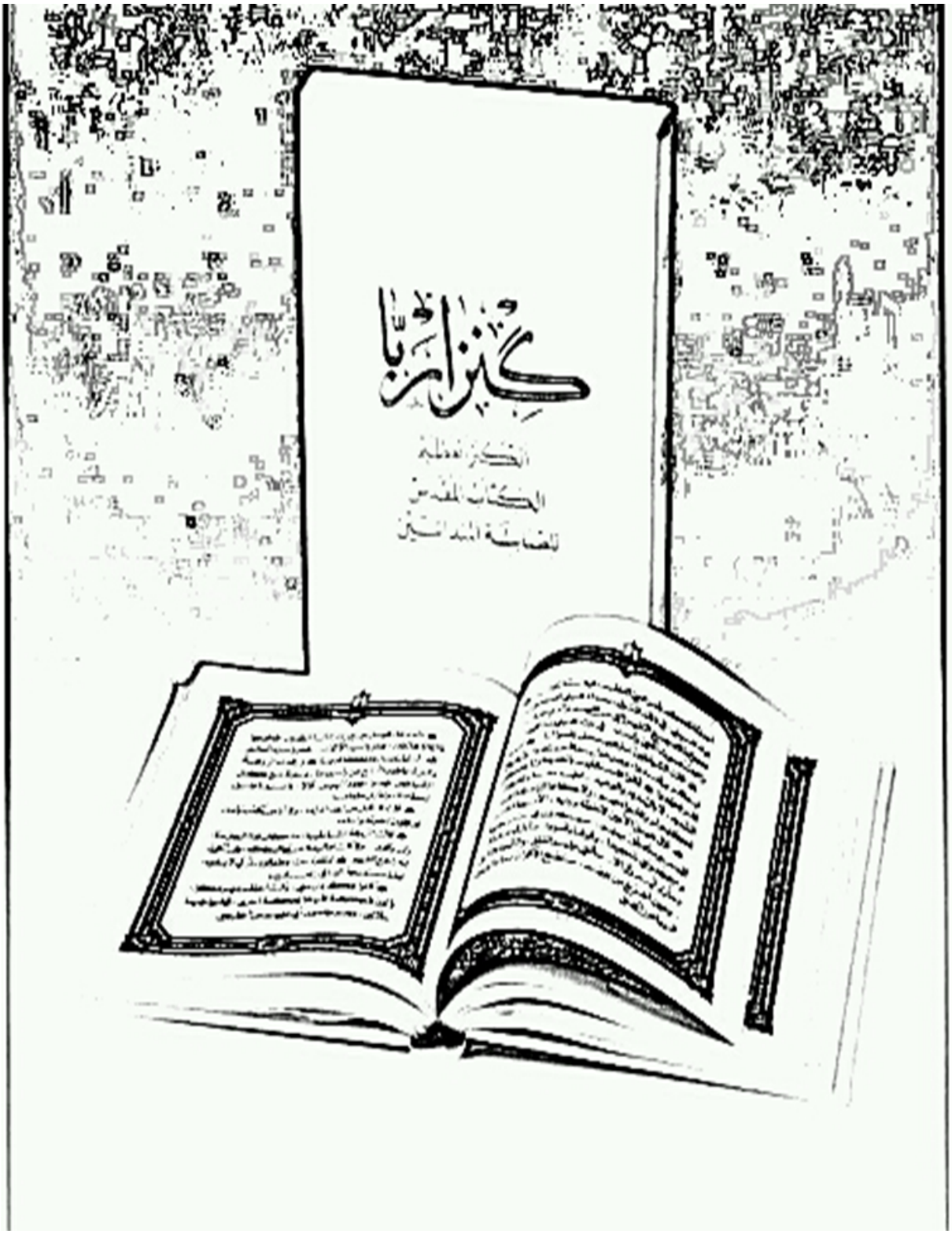

كتاب كنزا ربا المقدس لدى الصابئة المندائيين

أعطى اللّقاء القصير بوالد قادر غطاءً شرعيّا للقاءاتهما الحميميّة، فزاد التصاقهما وحبّهما لبعضهما، وكانت غرفتاهما وكرين يحطّان فيهما بالتناوب، فتارة في الجادريّة وأخرى في الكاظميّة، وكلّما أوصدا الباب من الداخل توهّم أهلهما أنّ المذاكرة تجري على قدم وساق وأنّهما أحيانا يرفضان من يقاطعهما فيستعصمان في وكرهما اعتكافاً، وينبّهان على ألاّ يُطرق الباب حتى ينتهيا من المهمّة غير المستحيلة.

أحبَّ قادر في صديقه الرّغبة لإشباعه والاستمتاع في الممارسة، صار مثمّناً لذلك التفاني حتى بدأت الخبرة تلتهم حيّزا مهماً في الممارسة، فلم يكن الوازع الدينيّ حاضرا بل تنحّى مجبرا حيث تمحو الرّغبة كلّ القيم وتقتل الضّمير، إنّ الاسترسال في الخطيئة يمسح من القلب انزعاجه ويواري عنه طيف الضمير .

استمرّت وتيرة حياتهما تأخذ نسقا روتينيًّا بل تصاعديّاً حتّى بدأت ملامح التغيير المفزعة تطرأ على قادر تدريجيًّا، أصبح مع الوقت أكثر ميلا لارتداء الملابس الضيّقة الحريريّة التي تبرز تموّجات جسده، وأطال شعره وأسدله وبدأت المساحيق التجميليّة تلون بشرته وترسم له نهجا جديدا خاصة عندما يبديان نفسيهما للعيون في الحدائق العامة والأسواق، صار مولعا أكثر بعطور النّساء ويتمايل كسعف النّخيل مع ريح البارح إن جاءته من الخلف، صارت كلمات الرّجال الغزليّة تطربه وتشجيه ويطلب المزيد بنصف ابتسامة تتقنها المتمرّسات ويزيّنها بخجل الرّاغبات، وأصبح الصبية

والرّجال يطلبون ودّه ومعرفته حتّى تقدم ذات مرّة أحدهم ويُدعى باسل "بترقيمه" خلف نافورة منتزه الزوراء متمنّياً أن تطرب أذناه بسماع صوته في أقرب فرصة وذلك بعدما رأى خضوع قادر بالقول حيث تتمكن الكلمة من مراوغة معناها.

*****

انحدرت نحو القاع نتائج الامتحانات الثانوية قبل النهائية في المدرسة، فالحبُ تلاعبَ بالقلب فقلّبه وغلبه ثم سلب العقل أهمّ خصاله، فزاد اللّوم والوعيد مراراً من والده مهدداً بالضرب والحبس إن لم تتغيّر درجاته وتتّجه به نحو المأمول، وما زاد من سخط والده وحنقه هو تلبّسه الحالة الأنثويّة التي أصبح عليها وعدم الالتزام بالصلاة والطّقوس الدينيّة الأخرى.

ومع انتهاء السّنة الدراسيّة للثانوية العامة الثّقيلة والامتحانات النهائية، وقع المحذور بربط قادر على جذع النخلة المعقوفة التي تتوسط فناء منزلهم مثلما تربط الماعز، وضربه بالسياط كما تضرب الفرس الحرون لعلّه يعود إلى رشده وسيرته الأولى، فسالت الدماء من فيه وسط عويل أمّه وتعاطف أخوته.

انقطعت فجأةً أخبار قادر واتصالاته لما يربو على الأسبوع بعدما بعثرته الدّنيا، وقبل أن يجده كاظم مكسورا شبه متسكّع على الرّصيف المحاذي لباب منزلهم، جرّته غريزته الفطريّة جرّاً إلى حيث قدره، استشعر فيه الأماني لاحتوائه له مجدّدا وتضميد جراح نفسه قبل بدنه، وثارت بداخله الغيرة والميل لامتلاك الآخر في نوعٍ من الحبّ المنبوذ، استأذن كاظم والده بلين ولطف ليمكثَ معهم قادر بعض الليالي

ريثما تُحل معضلته أو يجد مخرجا مرضياً. أصبح للحوار معه حرارة ونكهةٌ لاسعة وازدادت حدّته المزاجيّة، فكان سريع الانفعال بطيئا ومتردّدا في اتّخاذ القرارات ولكنّه يرفض بإصرار العودة إلى منزلهم في الجادريّة ولا يقوى على تمثيلٍ ممارسة الطّقوس الدينيّة مرّة أخرى وطالبه صديقه متودّداً بأن يكون واقعيًّا قبل أن يطلب قطف المستحيل.

استمرّ الجدال العقيم بينه وبين قادر ساعاتٍ طوال يبحثان فيه عن حل وفرج لمرضه المستفحل، فهو لا يرى نفسه إلا في دفء منزلهم بين أحضان أمه وعطف إخوته، و في الوقت نفسه لا يقوى على مقاومة ومجابهة الرّغبة الجنسيّة التي تدحره وتأسر لبّه هائمة به في السماوات العلى، ولا يطيق من جانب آخر أن يلبس ثوب التديّن ولو تظاهراً.

وكَحلٍّ توافقيّ يرضي الأطراف جميعاً ويجبر خواطرهم، اتّفقا أن يُمثّل رجلا كلما دخل منزلهم ويدّخر أنوثته بمجرّد أن يغلق الباب خلفه، وأن يحاكي الصّلاة وغيرها أمام والديه، ثم يلهو بطقوسه الجنسيّة خارج أسوار المنزل، من لباس وغنج وسرير، وهو ما كان في اليوم التّالي حيث وعد والديه مندحرا بأن يبذل قصارى جهده إرضاءً لهما ولربّه فيما بدأ الفتى في ممارسة حبٍّ لا يُعبَّر عنه بالكلمات.

*****

كان للّقاء البِكر بباسل وقعٌ كبير ومفترق طرقٍ في حياة قادر غيّر من معالم ارتباط كاظم به ورسم له درباً جديدا في حياته.

كان باسل شابا عشرينيا مفتول العضلات أسمر اللون ذا شعر مجعّد حالك السواد، تنبعث رائحة الدخان من فمه كالتنور، إلتقياه لأول مرة متعارفاً في موقف سيارات حديقة الزّوراء، ورفض باسل بحزم منذ البداية أن يركب كاظم سيّارته المرسيدس السوداء معلّلا أن لديه أسرارا يريد أن يبوح بها لقادر فقط؛ فهمّ به اقتناصا واختفت سيارته سريعا كلمح البصر وكأنّما وجدَ كنزا رغبه لذاته وأراد أن يخفيه عن أعين البشر كلّهم خوفاً من الحسد،كان حقاً جبانا حين صار انتقائيًّ ا في شجاعته.

الإنسان يقطف سعادته حينما يحدد هدفه ويعرف جيدا ما يريد، لم يكن كاظم فطناً لما وراء الأفق ولما يخفيه مستقبله الملبّد بالغيوم، وعندما جاءه قادر ظُهرًا بعد يومين سعيدا ليطمئنه على وضعه الجديد، كان البرود تجاهه بيّنا وضوح الشّمس، صافحه بعد تردّد وباعده بسبّابته المرتجفة حين حاول معانقته:

- ما بك كاظم؟ كيف أخبارك؟

- بخير.

حاول محاصرة عينيه والغوص في أعماقهما لكنه تحاشى التحديق في مقلتيه خوفاً من الامتصاص والافتضاح:

- كيف كان باسل معك؟ طيب؟ هل اعتنى بك؟

- لطيف للغاية، لكنّه عمليٌّ جدًّ ا، لا يحب أن يضيع وقته.

صمت كاظم لبرهة وذهب بنظره بعيداً يتجوّل في السّماء وشمسها التي بدأت تتهاوى باتّجاههما:

- كيف؟

أغمض عينيه مرةً أخرى ليدخل في ظلمة أخرى توازي غموض الأحداث المتسارعة:
- دخلنا سرداب "النّونو" وهو سردابٌ فيه الكثير من خفافيش اللّيل ممّن يطلق عليهم بالشّاذين أو المثليين جنسيّا ولم أعرف أصل التّسمية، أليس الشاذّ هو من ينحرف عن الطبيعة وينجذب لغير جنسه البشريّ؟ أما المثليّ فهو من يميل إلى المتشابه معه، وليس في ذلك ضرر..لا أعرف حقاً..
أثار التساؤل كاظم فتوقّف برهة مع نفسه ولسان حاله يستفسر عن ماهيّة وطبيعة علاقتهما معاً وأردف:
- وماذا يحدث هناك؟
- في المساء يتحول السرداب كما يوصف هناك إلى نادٍ باريسيّ يقصده كبار رجال الأعمال والسّاسة والعسكريّين وحتى الحزبيّين.
- وماذا بعد؟
وضع شفته السّفلى بين إبهامه وسبّابته، يضغط عليها برفق في محاولة لإبطاء لسانه من النطق لعلّه يتريّث، تذكّر مجدّداً ما كان أشبه بأضغاث أحلام؛ تذكّر كيف يتراقص الرّجال و"البنات"، ثم يحدث التزّاوج الاختياريّ بعد التراضي على "السّعر والحيثيّات"، ويتحوّل الجسد إلى سلعة في مزادٍ شبه علني، تمر به العيون شاخصةً والأيدي فاحصةً، وخلال ذلك يحسّ الإنسان بالعجز ولا يشعر بالذّنب، فإمّا أن يأخذ الرّجل فتاته إلى أحد السّراديب الجانبيّة أو يخرجها من السّرداب بتمويه حذر... ثم قال:

- ينتقي الزّبائن ما يشتهون من النّساء والغلمان.
- وهل اختارك أحدهم زوجة له؟
- لا أعرف؟
- قادر، هل تزوجّك أحدهم؟
- نعم، رجل متزوّج، في الخمسين من عمره.
- في الخمسين؟!

جلس الاثنان على كرسيّ إسمنتيّ وُضع بدقّة على قارعة الطّريق بين أغصان شجرة خضراء خصبة كأنّها تداريه عن فضول البشر..

- نعم، تيقّنتُ أنّ الجنس يأخذ بعقل الرّجل كلّما تقدّم به العمر؟
- حقًّا؟
- نعم، ويصبح الجنس عنده ـ كما يقولون ـ متعة وإمتاعا لا واجباً وضرورة.
- وهل حصلت على مبتغاك منه؟
- نعم، ما أحصل عليه من والدي في عام كامل اقتنيته في ليلة واحدة.
- وهل أشبعك؟

بابتسامة عبّاد الشمس الصفراء:

- لا يهمّ.
- كيف؟
- ذلك العسكريّ الخمسينيّ أدخلني عالمه الأسود يا كاظم، جلس محدّقا بي منذ أن اطمأنّ لمغيب قرص الشّمس

وحلول الظّلام، كأنّه الخفّاش لا يتنفّس إلاّ ظلاماً.
- وماذا؟
- --------

استعصم قادر عن سرد بقية المشاهد استنكاراً من إلحاح صديقه فلم يخبره أن ذلك الكهل كان ضابطا بعثياً في الجيش العراقي إبان حرب الثماني سنوات التي دارت بين العراق وإيران، حرب الأخوة الأعداء، بقي في الخطوط الأماميّة أو ما تعرف بالجبهة، لفتراتٍ طويلةٍ جداً، اعتاد النّوم فيها بإحدى مقلتيه ولم تطرَب أذناه إلا بدويّ القنابل.

صمت الاثنان دون أن ينبسا ببنت شفة حتى تهاوت إحداها على لسان قادر:
- ذلك شأن الجنود.
- الجنود؟
- الغريب المألوف إنه متزوج وله ثمانية أولاد، بل هو جدٌّ يا كاظم.
- مممممم ، أكاد لا أصدّق.
- بل صدّق يا فتى، لم يأخذني إلى خارج سردابٍ "النونو"، بل له غرفة خاصة به هناك، كأنما اتّخذها منزلا ووكراً.
- ألا يزال يحمل قيمة كبيرة؟ أله حضور طاغ في مجتمعه؟
- الإنسان يا كاظم كالرّقم صفر، يفقد قيمته عندما يصبح وحيداً.
- هكذا إذن، وماذا بعد؟
- لا شيء يا عزيزي، تخيّل أنت بقية الحكاية.

أدرك كاظم أنّ عليه التريث والانتظار حتى يفضي له قادر بما لديه طواعية فهو ليس في عجلة من أمره إلا أنّ قادر استرسل بتعقّب الأحداث سرّاً في حديث لا يصغي له غيره:
"نعم، شربت معه كأسًا بعد أن أمر النّادل بدعوتي إلى طاولته المستديرة، ثم سحبني خلفه من يدي الّتي غاصت في أعماق كفّه، وسحب "كرشه" المنبسط على جانبيه، قبل أن يجعلني أسيرُ أمامه على السُـلّم الأرضيّ و سبّابته ترسم خيوطا حريريّة متعرّجة من رأسي إلى انحناءة تلّتي."
أخذ كاظم ببعض أوراقٍ الشجر المتساقطة يمزقها إرباً إربًا وصديقه يهمس له مجدّداً:
- توهمت خائفا أنه سيلتهمني بمجرد أن يُغلَق البابُ خلفنا، لكنّه جلس صامتا على أريكته يدخّن "سيغارا كوبيا"، وما إن التهم صدرَه دخانُه حتى أعاد استنشاق الدخانَ المختنق في سماء الغرفة الضيقة.
- ألم تكن حشيشة؟
- ربّما..
جال بخاطره ذلك الطيف الموحش مرةً أخرى، فبعدما استلقى الرجلُ على الأريكة في فزعٍ مخيف، أخذ ينظر إلى نقطة محددة في سقف الغرفة دون أن يغلق عينيه فيما كان زفيره كزئير أسدالتهم فريسته للتـوّ وجلس يرثيها بانكسار، تخشى الاقترابَ منه وتتعاطف مع جبروته الكامن داخله، أخذ يعصر رأسه بكلتـا يديه تارة ثم يحاول أن يثقب الجدار بقبضتيه تارة أخرى، كأنه في حرب صامتة ناجعة.

أراد كاظم أن يتساءل مرةً أخرى لكنّه ألقى بظهره إلى الخلف ببطء شديد كإشارة استعداد للاستماع، فكان له ما أراد وواصل قادر سرد حكاياته ومغامراته:

- ضغط على الزرِّ منادياً النادل، الذي جاءه كلمح البصر بمائدةٍ كبيرةٍ كأنما أُعدّت مسبقاً بطلبٍ سابق ومحدّد.

- مائدة؟

- نعم، شدّتني أنواع الطّعام التي حملَتْها.

تساءل كاظم ضاحكا ومستهجناً:

- هل تشبه المائدة التي نزلت من السماء على قوم موسى؟

- ربّما، احتوت على أنواعٍ كثيرةٍ، لحم أحمر، أرز، فاكهة، خضار...

- وما الغريب في ذلك؟

- سلوكه حين تناول وجبته، أخذ يستشعر الأكل كله بحواسه الخمس خاصة الفاكهة والخضار، ولم يلتهم غير اللّحم الذي كان شبه نيئ، كان يقضمه ويبلعه دون مضغ كافٍ وكأنه يحمل جوفين في آنٍ واحد، وعندما انتهى من الاجترار أعاد مصّ العظام فما تركها إلا صلدةً نظيفةً.

- حيّرتني.

- لم يشرب الماء أبداً ليُسهل الهضم إنما رطّب لسانه بشفتيه وسال لعابه الأحمر من الجانب الأيمن لفمه، ثم ترنّح برأسه على أحد ذراعيه.

- وهل اقتربت منه؟

- أبدا، غاب عن الوعي دون إغماءة لدقائق معدودة وبدأ زئيره يتصاعد،ثم أفاق متثاقلاً على قهقهة أزاحت الستار عن

أسنانه المصفرة العتيقة فبانت على إثرها لأول مرة حبيبات صفراء مخضرّة مدببة، دعاني إليه بسبابته اليمنى المكتنزة، وأخرج تائهاً مابين فخذيه، حتى انتشرت رائحة العفن وتفاعلت مع رائحة الحشيش، وبالرغم من كل ذلك بدأت مهنةَ التدخين مكرها وصامتا.

- هل .....؟

- .....

توقف قادر عن الاسترسال العفوي في السرد وترك مجالا واسعاً لخيال كاظم يدور معه وينتقي منه ما يشاء فالنّهاية الحتميّة واحدة، غاب الاثنان في الحدث نفسه واختلفت القراءات، أحدهما بخياله الواسع والآخر بإعادة الصياغة وفي كل مرة نعيد بناءها يختلف المتن مجدّداً رغما عن أنفنا و إذعانًا لنقصنا.

تحدّث قادر مع ذاته في نوع من التوكيد:

"نعم، رفعته بنهايتي سبابتي وإبهامي متفحصاً، حتى وقعت راحة يده على قمة رأسي، تمنعتُ أن أفعل ذلك ولو مقابل كنوز قارون، وسألت أحد الأصدقاء لاحقاً عن ذلك الضابط الذي أفرج عني، فقال إنه مصاب بمرض يدعى "البارانويا"، وهو مرض نفسيّ مزمن، تنتاب المريض به أوهامٌ تلاحقه وتؤرّقه، ويسقط تلك الأوهام والأفكار على غيره لأنه يرى نفسه ضحيّة الآخر قبل أن يتحوّل إلى حالة من الفرح والانشراح تقذفه إلى فضاء الحريّة.

نعم، ولكن تغيّر المرض عند صاحبنا إلى مرض عضويّ، تحوّلَ إلى ضمور عضوه الذكريّ عند الجماع الطبيعيّ، حتى

صار "النّونو" متنفّسه الأخير حيث لا واجب أسريّ عليه أن يؤدّيه، لديه من الأبناء أربعة عشر، ثمانية أولاد وستّ بنات، ضربٌ من الإسراف حتّى في الإنجاب؟ لعلّه تفاخر بين النّاس!"

نطق قادر فجأة وكأنّه في ذات الحديث مع صديقه:

- إن كثرة الإنجاب تعكس رغبتنا الجامحة في الحديث بعد الموت.

- ماذا؟

- كاظم، قال أحد روّاد "النّونو" يصف الحاضرين: إنّ العربيّ يعيش دائما أسيراً، فإن لم يتناغم مع موجة النّظام الحاكم وسطوته فإنه سيقضي خلف قضبانه، والأمَرُّ من ذلك، أن السّلطة الجنسيّة تبقيه حبيسا لها وإن فكّ بقية القيود متغلبّاً عليها ورماها غضباً في قاع المحيط.

- ألا يستطيع العربيّ أن يمارس الجنس باستمتاع مع زوجته المزعومة شرعيّة؟

- لا أعرف ولكنّي أتوقع أن العربيّ يريد المرأة نصفها نانسي عجرم والنّصف الآخر نسخة من أمّه، فإن عجزت المرأة عن لعب الدّورين فإنّها تخفق في النجاح.

- وكيف يرى العربيُّ المرأة عموماً؟

- لاحظتُ هناك أن الرّجل الشرقيّ وخاصة العربيّ يحترم العاهرة أكثر من زوجته، فإن "تعهّرت" زوجته أمامه أصابه مرض الشكّ، وإن احتشمت صدّ عنها.

- وهل مازال صاحبنا هذا في جحر النونو؟

- لن تصدق أبدا.

- ما الأمر؟
- لقد توفي ذلك الرجل بعد يومين من لقائنا.
- ماذا؟
- كما سمعت.
- كيف حدث ذلك؟
- أنت لا شكّ تعرف ما قالوا، إنه يموت سريعا من يؤثر الانغلاق على الذّات، فالموت قرار تتخذه ذاتنا فتستجيب له أجسادنا.
- أرعبتني تجاربك المتنوعة حتى أصبح لسانك مختلفاً، وما هي خططك؟
- سأعيش وأعمل هناك، حيث المال والطمأنينة والحريّة، برغم النّكد حيث لا أمشي ورأسي كله للخلف فأسقط هاويا فيما أخشى الوقوع فيه. وداعاً الآن.
- هل لي بطلب؟
- ها ها..أتريد أن تعمل معنا؟
- لا لا، بل أريد أن أطمئن عليك.
- تطمئن عليّ!!
- نعم.
- سأزورك قريبا، يوماً ما، وداعا.
- مع السّلامة.

استشعر كاظم حينها أنه لا يتقن فن وضع الذّبابة في اللّبن، لذلك اختفى قادر بعد هذا اللّقاء لمدة طويلة جدًّ ا وما كانت أخباره تصله إلا عن طريق معارفه الّذين رفضوا نقل أخبار العراق إلى داخل السّراديب حتّى يطمئن روّادها ويركّزوا

على عملهم وقُوتهم بينما تفننوا باحترافيّة الرّواة في نقل ما يدور في تلك الأوكار إلى الفضاء الخارجيّ، إلى عالم النّور، ولم يُرَ قادر مرة أخرى إلا بعد الاجتياح الأميركيّ للعراق ربيع عام 2003.

*****

تعرف قادر، خلال تلك الحقبة الورديّة إلى حمادة في سرداب النّونو وأصبح ملازما له كالظلّ، وجد فيه ذاته وضالته بعدما بعثره الدّهر، فالعشرون عاما كانت قد تجمّلت في سرقة براءة طفولة حمادة وكأنما وُلد للتوّ بالأمس فقط، بل ربّما وُلد كبيرا وهاهو يعود إلى الصّغر، ينحدر من عائلة بغداديّة كبيرة، لها صيتها في أغلب المدن الكبيرة، طفت على محياه آثار الرفاهيّة المفقودة، طُرد من البيت الكبير كالقطّة المريضة المُعدية وقـُذف به للشّارع عقابا له على "تحوّله الجنسيّ"، ترى في رزانته شموخا وجاذبيّة للرّجال، وتشتهيه سريراً في غنجه ودلاله، وحين يعتلي المنصة راقصا تهتزّ وتصفّق له الأيدي تباعا، فيُطرب الحضورَ ويسكرهم، يستهويه الرّقص على موسيقى أمّ كلثوم الهادئة، ويجيد بمهنيّة كبيرة التناغم مع إيقاعها، فيطارد سلّمها برجفة وسطه وهزِ نتوء نهديه المنبسطين فيما يهتز مقياس ريختر الشبقيّ لدى الحاضرين.

يفضل حمادة الزّي الخليجيّ، فعباءة الكتف السوداء الضيّقة والمطرّزة تبرزه كأميرة أرستقراطيّة، كحوريّة ملساء، واكتناز ردفيه وتكورهما يزيد أنوثته وحوَر عينيه يضاعف وقع جاذبيّته، وتنحدر خصلات شعره إلى ما قبل تلّتيه، ولذلك كلّه تلاحقه كلّ العيون وتزداد أسهمه في "بورصة الأسرّة".

أغرت قادرَ تلك الحالة الاستثنائيّة لحمادة ورأى فيه نموذجا للنّجاح يُحتذى به، ولما تحدث معه وجده إنسانا كبيرا بقلب كسير يحبّ الخير للجميع وبتواضع مثير فيه إيثار الخاشعين، ولذلك طلب منه أن يصطحبه إلى منزله بالقرب من التقاء نهري دجلة وديالى في الزعفرانيّة بالأطراف المترامية لبغداد الجنوبيّة، وهي من المناطق القليلة حدّ النُّدرة التي يتعايش فيها السنّة والشيعة والمسيحيّون والأكراد دون حوادث وعراك طائفي يُذكر كباقي مناطق بغداد. منطقة تشتهر بزينة بساتينها الخضراء التي أثّرت في قلوب قاطنيها وصبغت قلوبهم بالتّسامح والحبّ، ويوجد في شمالها معسكر الرشيد العملاق الشّهير والمهيب الذي ضمّ بين جنباته كل أطياف معارضي الرّأي ليمثّل نقطة سوداء تلوث سماحة هذه الواحة الجميلة، وفي منطقة الزعفرانيّة القديمة خلف ضاحية السّوق الشعبيّ الكثيف الحركة يقبع منزل عائلة حمادة القديم، الذي هجرته العائلة إلى إحدى المناطق المدنيّة الحديثة بينما اتّخذه حمادة منزلاً خاصّاً.

في ذلك المنزل المتهالك المبنيّ من الحجارة والطين توجد ثلاث غرف متراصة وحمام داخليّ يحجبه بابٌ من القماش ولا توجد به أنابيب للمياه إنّما يتوسّطه برميل معدني كبير مملوء بالماء، أمّا الغرفة الرئيسيّة لحمادة ففيها سرير خشبيّ بأعمدة إسمنتيّة وتتدلّى ملابسه وعباءتاه من على مسامير مثبتة فوق الجدار المقابل للنافذة القديمة التي لا تسمح للشّمس بدخول الغرفة، أمّا الغرفة الثانية فقد اتّخذها حمادة مطبخاً تنتشر بين جوانبه الأواني القليلة

السوداء والغرفة الثالثة أصبحت مخزنا يعلوه الغبار. كان قادر يرى أنّهم الأفقر بين العراقيين ولكن حمادة ومنزله كسر تلك الفكرة وجعله يشعر به ويؤاخيه.

وفي موازاة ذلك الهيجان العاطفي وتضارب الأفكار، تحول قادر مع الوقت إلى أنثى يصعب أن تتعرف على جنسه ما لم يُعِنْكَ أحد أو أن يفضحه سريرُه، وزاد طرق بابه، وكثر الإقبالُ عليه والتودد لمجالسته، كلٌ يحاول الظفر بقلبه متجمّلاً بالهدايا المختلفة، عينيّة أو ماديّة، حتى بانت مظاهر المال والجاه عليه، ودخل عالم البذخ من أوسع أبوابه، فاقتنى من أزياء الموضة أحدثها وأثمنها، من عطور وملابس واكسيسوارات، واشترى سيارة خاصة تسهّل تنقّلاته وتزيد دخله، وتتابعت زياراته البنكيّة باطّراد، وخلال تلك الحقبة الزمنيّة انقطعت علاقته بعائلته، فلا هاجس ولا ذاكرة، وغلبت تلك الحال المخمليّة عليه حتى وقعت الواقعة.

*****

انهارت بغداد وسقطت في براثن القوّات الأميركيّة في التّاسع من أبريل عام 2003 فانحسر جزراً نشاط قادر وحمادة ورفاقهم، وضاقت دائرة حركتهم بما رحبت، وخسروا أرصدتهم البنكيّة على غير المتوقّع بعدما تم القصف العمد للبنك المركزيّ ونهب وسلب كل البنوك الوطنيّة والخارجيّة (الأوفشور) من مستندات وأصول وذهب وعملات؛ عاد العراقيّون مالياً كما ولدتهم أمّهاتهم إلا من كانت له أموالٌ مُدّخرة في الخارج أو قُبرت عمداً تحت الأرض، ولم تستطع السراديب تأمين عملهم أو احتوائهم لأنها تمنت - هي نفسها-

أن تجد من يحميها، فكان القصف الجويّ والعشوائيّ يخيّم على شارعي الجمهورية والرّشيد باعتبارهما من الشرايين الرئيسية بل عصب الحياة في العاصمة بغداد، وتضررت الأوكار عن بكرة أبيها لتنطلق الطيور مجهدة وباحثة عن وسائل أخرى لجمع قوتها ورزقها وعن غصن آمن تحط عليه وعن صخرة صلبة تقف عليها.

انحسر عملُ اللّاعبين المؤثّرين في السراديب وغردت صقورها خارجا تبحث عن حمائم جديدة وأوكار مختلفة، فالقنّاصة والآلة العسكريّة لا تفرّق بين أنواع الطّيور بل تصطادها غنيمة وأحيانا كثيرةً زهوًا .

تغيرت معالمُ بغداد بعد الدّمار واندثرت آثارها، فقد كانت عاصمة أوتوقراطيّة تؤمن وتنفذّ رؤى وتطلعات الرّئيس وتتزيّن بـ "ألبوم" صوره بل وتُبلور اهتماماته الشخصيّة لواقع شعبيٍّ، وتحولت أيديولوجيّته إلى أصل من أصول الدين عند العامّةً ولو تظاهُراً، ولكن دوام الحال من المحال، فاتّخذ الشعب - على النّقيض - شكل التجمّعات المبنيّة على أسس طائفيّة وعشائريّة عن طريق خرق وحرق القانون، وتعسكرت الطّوائف متخندقة في أحيائها، وتحوّلت بغداد بعد ذلك إلى دويلات وإمارات عديدة كلٌّ منها يحاول رسم حدوده بمختلف أنواع الأسلحة سواء الدينيّة أو الطائفيّة أو العسكريّة بغية حبّ البقاء واغتناماً للفرصة التاريخيّة الّتي قد ترفع طائفة إلى عنانِ السّماء وتلقي بأخرى في غياهب النّسيان وربّما تدفنها وأداً في مدافن القمامة.

لاشكّ أنّه كلّما ضعفت الدّولة كلّما قويت شوكة الجماعات وزادت قسوتها على أفرادها وعلى الجماعات المناهضة لها توقا للانتشار، واستعملت كل جماعة مخزون ذاكرتها الدينيّ والسياسيّ والثقافيّ وغيره لكي تنمّي قيم الارتباط بها بل وتنشر حالة الذعر والخوف من الآخر، وكأنه تعزيزٌ لهويّتها، ومن ثمّ تُحوّل قيمها وعاداتها وحتى تاريخها لأمور مقدسة ينبغي التّسليم بها من قِبل الجماعة ذاتها؛ وهو ما عزّز وجود الجماعات المختلفة وألقى بظلاله منطقيّا عليها ومنها، في موازاة تلك الجماعات المختلفة لم تختلف جماعة السراديب عنها، فزاد ارتباط أعضائها ببعض، وتدفّق الحبّ والأخوّة والتّضحية بينهم، حتى أصبح الشّذوذ مقدّسا لديهم وصاروا يؤدّون الجنس بتفانٍ شديد يشبه العبادة، وواجب الدّفاع عنه مقدّس حفاظا على الجماعة والنّوع من الاندثار.

*****

وفي المنطقة الخضراء، وفي الوقت الذي كان فيه الأميركيون يصطادون عصافير الرّافدين بإتقان، كان أغلب جنودهم - أنفسهم - هدفا لقادر ورفاقه لإقحامهم في شباكهم، فبعد استيطانهم بغداد كان اصطيادهم سهلا، فما إن يتعرف الجنديّ بخصيتيه على أحدهم إلاّ ويسأل إن كان بالإمكان دعوة الزّملاء مساءً في إحدى الثّكنات العسكريّة، وهو ما كان يوفّر المال والأمن، ويخلق نوعا من البهجة في نفوسهم عسى أن يصبغوا حياتهم الجديدة بالطّابع الغربيّ الذي يعينهم على مواجهة الشّعور بالغربة والخوف.

أصبح لقادر وحمادة ورفاقهما ما يعرف "بالغرين كارد" وهو ما يخوّل لهم دخول المنطقة الخضراء بانسيابيّة سمَكيّة حيث التّرفيه عن الجنود مطلب ثقافيّ وحضاريّ من أجل مواصلة العمل عند الشعب الأميركيّ والغربيّ.

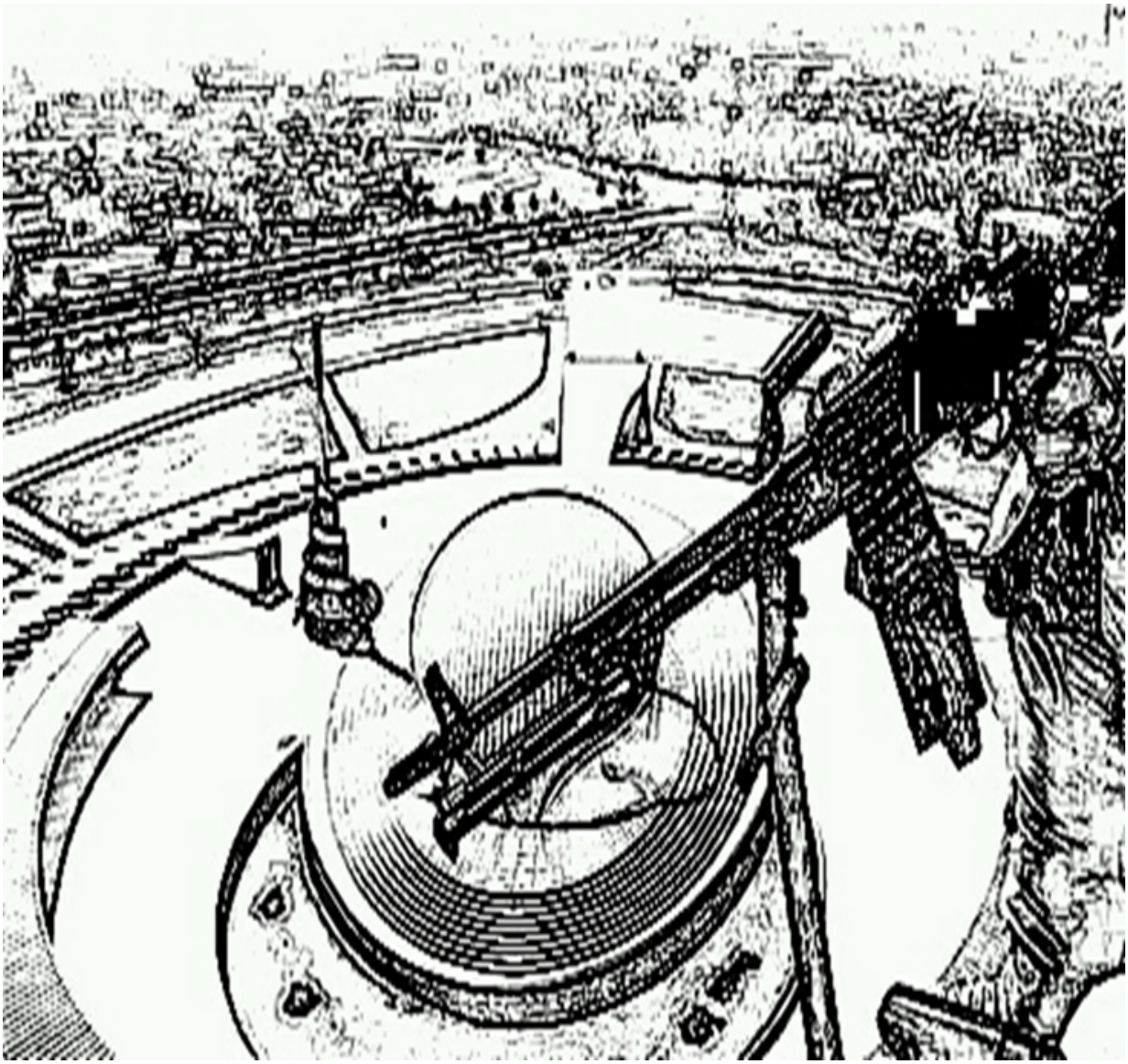

المنطقة الخضراء في وسط العاصمة العراقية بغداد

تعرف قادر ـ الذي غيّر اسمه إلى سارة لدواع أمنية وعملية ـ إلى بيل غاراي، 27 عاما، جندي أول أميركي من ولاية نيويورك، يعمل ضمن فريق الإمدادات اللوجستيّة ومهمّته تأمين وصول الغذاء والدّواء لقوات التّحالف في بغداد، وقد قدم للعراق منذ ما يقرب من الستّة شهور، قضى الجزء الأول منها منهمكا في عمله قبل أن يخالط العراقيّين ويتعرّف على عقولهم وثقافاتهم، كان يقرؤهم بتمعّن، وسرعان ما ظهر التأثير عليه من خلال الجانب العقائديّ، فالإناء الفارغ يصبح ملؤه سهلا بأي سائل كان، فقد أُعجبَ بقيم ومثل لم يألفها قط ومنها النّخوة والإيثار في المجموعة الواحدة وحب الانتماء إلى الجماعة وتغليبه على حساب المصلحة الفرديّة.

أقحم غاراي أنفه في كل شاردة وواردة، وغرس سهامه في كل ما هو جديد برّاق متحيّنا الفرصة للتعرف على الدين الإسلامي، أصولاً، فروعاً، مذاهبَ، قيماً ... من خلال إطّلاعه المستمرّ وفضول المعرفة الدّائم لديه وسؤال أقرانه بالإضافة إلى إصغائه بدقة لخطب المساجد مترجمة على يد الأميركان العرب أو المترجمين الأجانب.

توقف الجنديّ الأميركيّ عند فرض "الجهاد" ومقاومة المحتل الذي ينادي به البعض في بغداد لدواعٍ كانت غالبا دِعائيّة أو انتخابيّة، كما أثاره مبدأ الزّواج الإسلاميّ وإمكانيّة تعدّد الزوجات وسهولة الطّلاق و إباحته مقارنة مع الديّانات الأخرى.

التقى غاراي بقادر في نادي "ركن البنفسج" الرّاقي الذي لا يُسمح بدخوله إلاّ بعد تطبيقات وإجراءات أمنية مشددة

ومرورا تحت جهاز الأشعة السّينيّة في تذكير بالمرور عبر المرافئ الدّوليّة، ولا يُسمح للعامّة باقتحامه ولو بموطئ قدم لأنه باهظ التكاليف وحفاظا على "البرستيج". وعلى أنغام موسيقى الرّاي الصّاخبة تسلّل قادر بغنج صوب غاراي ليمسه سهواً بمؤخّرته الأسفنجيّة قبل أن ينسحب بعيدا إلى حافة "الستيج" المقابلة، حرّض قادر غاراي بمشيته الفاتنة تلك فأسره وشلّ كيانه ودقّ مسمارا في قلبه الضعيف، اندفع بعدها غاراي مهرولا دون مقاومة تجاه المحتل الجديد، وما لبث قادر أن تدلّل عليه بفن التمنّع وهو ما زاد من لهفة وشغف غاراي الذي حاول التهام فريسته التي اشترطت سعراً مبالغا فيه قوبل بموافقة سريعة دفعت قادر للتّمايل على الصدر الأميركيّ شبه العاري عازفا موسيقاه الماجنة ومثيراً لبركان أحمر من الدّم الحارّ.

بعد السّهرة الماجنة الصّاخبة، تحدّث غاراي كالطّاووس عن دوره في الجيش ويوميّاته قبل أن يسترسل بهوس السّكارى متذكّراً عائلته وأصدقاءه في نيويورك، فيما كان قادر وحمادة يضمّانه ويشمّانه في الزّاوية البعيدة المظلمة للنّادي، يصغيان له بل ويستدرجانه:

- بغداد أصبحت ولاية أميركية لتعلّم الصيد والتدريب العسكريّ.

- ومن اصطدت منّا؟

- اصطدنا نفطكم وحضارتكم وأضفنا فصلا آخر في تاريخ العراق.

- العراق يا بطل كالنّخل، يبقى شامخا و إن تساقط ثمره.

- ها؟
- وهل تتوقّع خروج جيشكم منها يوما ما؟
- نعم سنخرج من ترابها ونقتات سنينا طوالا من ثمرها، نودّعكم بأجسادنا ونعمّر بينكم بأرواحنا.
- ربّما؟
- بالطّبع، عندما تزرع بذرة فإنّك لا تجني منها شيئا، ومتى كبرت تقتات منها ثمرا و ظلاًّ .. سنخرج ولكن ستشبعنا سنينا، ونحيا بها طويلا.
- لا نفهم ما ترمي إليه.
- لا يهمّ يا قطّتي، هيا لنذهب للمنطقة الخضراء ونحولّها حمراء.
- من تريد منّا؟
- أحببتكما معا، وأريدكما معا، أليس التعدّد متاحا هنا؟
- التعدّد؟
- ألا يحلّ لي النكاح مثنىً وثلاثَ... ورباع؟
- مممممم، صحيح، كم أجرنا؟
- أجر أم مهر؟
- لا يهمّ.
- مائتا دولار، والمهر ألف!!

فهتف الإثنان سويا:

- أنا قبلت.

دلف الثلاثة يستند أحدهم على الآخر في حوالي الساعة الثالثة صباحا وحُشروا سريعاً في مدرّعة صغيرة تحمل مبتهجة العلم الأميركيّ، تسير ضمن مجموعة عربات سوداء

مصفّحة يخشى المارّةُ الاقتراب منها فيما الشرطة العراقيّة الراجلة تهيئ الطّريق بل تعبّده حتّى كادت أن تنثره وردا.

وبعد مرور عشرين دقيقة دخلت القافلة المنطقة الخضراء وأمسى القصر الجمهوريّ للرّئيس العراقيّ السّابق صدّام حسين بتماثيله المنهارة على يسارها وأمامها يقع المقرّ الرئيسي لقوّات التّحالف وبعض السّفارات العالميّة المتناثرة بإتقان دبلوماسيّ.

دخل غاراي ورفيقتاه إلى الثّكنة العسكرية بعد تفتيش دقيق استهوى رجال الأمن، فعبثت بوازع جنسي لا أمني أيديهم بتضاريس قادر وحمادة اللّذين قابلاه بابتسامة ماكرة ثم دلفوا باتّجاه استراحة الجنود الأماميّة على بعد أربعين مترا رغبةً في إطفاء ما بقي من أحاسيس عقليّة بقنينة فودكا روسيّة عتيقة تفتح على محتسيها عالما من سراب.

*****

بعد ليلة شيطانية تزيّنت وتجمّلت بكلّ تدرّجات اللّون الأحمر المستفزة، تنحّى فيها إبليس مبتسما وترك ريحه تسيّر الدفّة، ساوره الرّضى لمجهود لم يكن مرهقاً ولنتيجة مثاليّة يتمنّاها كلّ لحظة على أمل أن يعاود عمله ظهراً، وحين أيقظ صيفُ بغدادَ غاراي، وقادته عادته خلال إجازاته الأسبوعية لتناول (فطور الغداء)، انطلق لمخاطبة أحد أصدقائه القدامى الذين شاركوه الخدمة العسكرية في العراق. كانا يتحدثّان بصورة شبه يوميّة عن طريق "الماسنجر"، ففرضت متعة البارحة نفسها على عقل غاراي وانشرح لسانه بذكر بطولاته،وكيف أنه روّض قطّتين بغداديّتين في قفصه

المخمليّ، أشبعهما فتشبّع بهما، تذوقاه فبلعهما، وقال:
- أسعدت صباحا يا روبرت، كيف أنت؟ كيف برادلي؟
- بخير، ما أخباركم؟ وكيف "النّجوم"؟
- تمنّيتك معي البارحة.
- ما الخطب؟
- تأكدت أنّي لازلت فحلاً.. هههه
- لا أشكّ في فحولتك أبدا، صديقة أميركيّة جديدة أم أغراك التّحالف؟
- بل غلامان، فتاتان، ملاكان.. قل ما تشاء عنهما.. ربما مُجمّع أنوثة متكامل.
- عراقيّتان؟
- نعم.
- بكر أم ثيّب أم ماذا؟
نظر غاراي من خلال الزجاج بعيدا للنخيل الباسقة وكأنما اتّخذت الفتاتان هيئة جديدة أثّرت فيه وزاد تحديقه بها، طافت بخياله تلك الشّفاه وذلك القوام المدهش قبل أن يعيده منبّه الماسنجر.. فقال:
- شابّان في هيئة فتاتين ناضجتين.
- ووو..
سكت للحظات حيث الصّمتُ يكون واجباً يستحيل معه قضاؤه، حكّ فروة شعره بأظافره ثمّ استرسل مجدّدا:
- أريد أن أتّخذ إحداهما خليلة دائمة.
- دائمة؟
- نعم، لم أجد متعة كتلك التي أطعمتني إيّاها.

- تزوجها إذن، وبعقد دائم على الطريقة الإسلاميّة، حتى تَحِّل لك ويُبارَك لك فيها.
- وهل يُحلِّ الإسلام هذا النّوع من الزّيجات؟
- لا يهمّ، المهمّ أن تعترف به قوانيننا الجديدة.
- وماذا تقترح؟
- إليغري.

وضع بين يديه اسم الضابط الشهير جون إليغري من الفرقة الخامسة مشاة، فهو يعرف الكثير عن الأديان وخاصة عن الإسلام، يمكنه أن يزوّجهما بعقد إسلاميّ حيث تذكر من خلاله الصّيغة الشّرعية للزّواج ويمكنه بعدها أن يكتب عقدا موثّقا وأن يوفّر له الجيش غرفة زواجٍ خاصّة في إحدى الضّواحي الآمنة شرط أن يبرز ذلك العقدُ الرّسميّ.

إثر نقاشٍ متأنٍ واستدراك للعواقب أبدى غاراي دهشته:

- يا لك من مفكّر إسلاميّ كبير!!
- ألا تريد أن تتزوّجهما معا؟
- هل يمكن ذلك؟
- يمكنك شرعاً (حسب الدّين الإسلاميّ) ولكن لا يمكن لك ذلك حسب القانون الأميركيّ.
- إذن، يمكنني أن أتزوج ولدا بصيغة إسلاميّة حسب القانون الأميركي، ولكن نفس القانون لا يبيح لي التعدّد الذي يتيحه الإسلام!!
- صحيح.
- بمكيالين؟
- إنّه قانون وضعيّ.

- أليس ذلك قانوناً جديداً؟ أهو أمركة الإسلام؟
- لا تدقّق كثيراً بل عش لحظتك وتمتّع بدنياك وطوّع القوانين باتّجاهك، كل القوانين الوضعيّة إنّما هي لإسعاد البشر، وما وُضعت القوانين إلا لتُخترق.
- معك كلّ الحقّ، وهل يمكننا الإنجاب أيضاً؟
- أحيانا يمكن للمرأة أن تحمل من كلمات رجل، لا عليك، أشكّ أنّك تستطيع.
- آه، ألا تريد أن تتعرّف على إحداهنّ؟
- لا بأس، ما اسمها؟
- اسمها الحقيقيّ حمادة وربما تغيّره.
- هل يمكنني أن أحدثّها عبر (الماسينجر) في المرّة القادمة؟
- بالطّبع، سأوفر لها اللّازم.

ثم تحدّثا "بالشيفرة" عن الأمور العسكريّة لعلّ أمرهما لا يُفتضح ولعل الزّواج المزعوم يوفّر غطاء تمويهياً للحقيقة الغائبة في ذلك الوقت.

- وماذا عن "النّجوم"؟
- نجوم سماء بغداد؟
- نعم.
- تلك التي ستدرّ علينا ذهباً.
- نعم.
- أرسلت لك نجمتين جميلتين من «أبو غريب"
- أريد نجوم النّهار بحيث لا يراها أحد غيرنا.
- هناك ثمانية من المارينز اغتصبوا الثّلاثاء الماضي فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما ثم أطلقوا الرصاص عليها.

- من أيّ المحافظات.
- إنّها بغدادية.
- أين تمت العملية برمّتها؟
- بعد قتل عائلتها، تم اغتصابها في سجن أبو غريب.
- جميل جداً، هل كان بعض الضباط معهم؟
- نعم.
- ابعث لي التّفاصيل مصوّرة عبر الإيميل.
- عن أيّ موقع؟
- موقع قتل العائلة، وموقع الاغتصاب.
- عُلم.
- وأخبرني بتفاصيل زواجك سريعا.
- ألا تريد أن تزورنا؟ أن تبارك زواجنا؟
- العمل من أجل المستقبل يجبرني على البقاء بعيداً.
- إلى لقاء قريب.
- وداعا.[1]

تم بدقة احترافيّة تزوير بطاقة هويّة جديدة لقادر تحت مسمَّى سارة وسُمِّي حمادة بأميرة، وذلك بطلب عسكري مباشر من قيادة الجيش الأميركيّ في بغداد للجهة المخوّلة بإصدار الهويّات، تمّ ذلك خلال أسبوع واحد فقط، ثم عُقد القِران على عجل في حفل صاخب تصحّرت فيه الأخلاق

[1]- عرفت تلك الأحداث بتفاصيلها في عام 2010 عبر موقع ويكيليس الالكتروني.

وانحسرت فيه القيم، وحضره بعض المسؤولين ولفيف مختلط من جنود التحالف وغالبيتهم من المثليين البريطانيّين الّذين كانوا يناضلون علنا وبفخر من أجل أن يحصلوا على حقوقهم الشرعيّة في المساواة إذا تزوّجوا من بعضهم البعض سواء على الطريقة الكتابيّة المسيحيّة، أو الإسلاميّة أو حتّى اليهوديّة، شرط أن يحصلوا على حقوقهم المدنية حينما يتعلّق الأمر بالزّواج، كبيت إسكاني أو إرثٍ حالما يصبح أحد الزّوجين "أرملا".

تولى الملا عمر ذو الأصول العربيّة البدويّة والمستشرق الشّيخ وليام أخذَ موافقة الزّوجين وتوثيق عقد النكاح بعد الحصول على الوكالة الشرعيّة، وبترديد ببغائيّ للصّيغة الصّحيحة، تمّت على إثرها مباركة العروسين وأطلقت الأعيرة النارية ابتهاجاً، ثم تلتها الألعاب الناريّة في مهرجان تسلية وفرح وُزِعت فيه جميع أنواع الحلويّات والكحوليّات الفاخرة، وتلذّذ الحضور من كل صنف قضمة ومن كل شرابٍ رشفة وكأنما أرواحهم فراشات تعكس صورهم حيث تحطّ على كلّ الورود في أيّ وقت دونما رادعٍ أو ضابطٍ.

*****

وخلال الاحتفال الصّاخب، نجح صحافيّون استقصائيّون يعملون لصالح محطّة " بي بي سي" البريطانية الشهيرة في إجراء حديث صحفيّ علنيّ مطوّل مع جنديّتين بريطانيّتين مثليّتين اعتنقتا الدّين الإسلاميّ خلال شهر رمضان الأخير وأحيتا طقوسه هروباً وتفادياً من الوقوع في (الزّلل والحرام) عبرَ البحث عن الزواج على الطريقة الإسلاميّة الحديثة! و تمّ

البحث تقصيّاً عن المأذون الشرعيّ - الذي يجلس هناك - ليبارك النّكاح لأنّه على دراية كافية بتعاليم الأديان السّماوية، في ظاهر الأحكام وباطنها، في المتشابه والمختلف!! وقد اتّفقتا على أن ترتدي إحداهما فستانا أبيض والأخرى ورديًّا في يوم الزّفاف، وتمّ الاتّفاق طواعيّةً على مهر رمزيّ بستّة جنيهات إسترلينيّة.[2]

وأكدت إحداهما أن النّقابات الخاصّة بمثليّي الجنس يجري دمجها في المجتمع البريطاني والأميركي بشكل أوسع وأن الحكومتين تبديان مساندتهما باستضافة احتفالات الشراكة المدنيّة.

وخلال الحوار الصحفيّ مع اليعربيّ الملا عمر وزميله المستعرب الكنديّ الشّيخ وليام الذي يتحدث اللّغة العربيّة المعاقة، تطرّق أحد الصحفيين مسترسلا لمسألة تعدّد الزّوجات في الإسلام وسأله:

- هل تعتبر تعدّد الزوجات أمرًا حضاريّاً يحترم خصوصيّة المرأة؟

- بالطّبع.

- لماذا؟

- لأنّه يُبنى على أساس العدل بين الزّوجات، حيث قال تعالى في سورة النّساء:﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النّساء مثنىً وثلاث ورُباع فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة ﴾.

---

[2]- بيد أن الـ"بي بي سي" شددت لاحقاً على أن الديانة الإسلامية ترفض بشدة المثلية الجنسية، وقالت إن حقيقة إتمام هذا النكاح بين فتاتين مثليتين تعتبر مسألة مسيئة للغاية بالنسبة إلى غالبية المسلمين.. جريدة إيلاف الإلكترونية:23 فبراير 2011 .

- ومتى يلجأ الرجل للزواج المتكرر؟
- من الجانب الشرعيّ يجوز له وقتما شاء.
- ومن النّاحية الإنسانيّة والاجتماعيّة؟
- كما أعرف من واقع مدرسة الحياة، إن أنجع طريقة للتخلص من امرأةٍ ما هو تعويضها بامرأة أخرى، هناك لحظة حاسمة لا يدركها غير الزوج في اتّخاذ قرارٍ جريء يغيّر مجرى حياته.
- مثلاً؟
- هناك بعض النساء تتبع أسلوب (تمنعي عنه تغلِي) ثم تعتاد ذلك في حياتها حتى تفقد زوجها، أو يسرقها العمل والهوايات عن هدفها الأسمى كونها زوجة تحسن التبعُّل.
- ولكنّ الرّجل هنا لا يريد الطّلاق بل يريد تعدّد الزّوجات.
- نعم، لا أعرف أبدًا غير الرّسول (ص) تزّوج أكثر من امرأة دون أن يكون الدّافع الجنسيّ هو المبرّر في زيجاته، فهو تزوّج لأهداف سياسيّة واجتماعيّة شرعها الله تعالى له استثناءً، وقد تكون أهدافها غيبيّة ولكنّها كانت تصبّ في مجرى نشر الدّين الإسلاميّ عندما كان رضيعاً في المهد.
- ومتى يُدفع الرّجل للبحث عن بديل؟
وهنا تدخّل الشّيخ وليام:
- القضيّة كلّها وإن تفلسفنا بها ودغدغنا مشاعرها تتبلور أساساً في المرأة، وفي إشباع الرجل جنسيّاً وعاطفيّاً، فإن أصبحت المرأة زاهدةً في عواطفها وخانتها قدرتها في أن تملأ هذا الجانب، فإنه كالطّير يغرّد خارج السّرب، وكالفتى الذي يُحرم من الأكل، فإما أن يموت جوعا أو يعمل أو حتى يسرق، وهنا تبدأ عواملكثيرة تتحكم في الرّجل بحسب ثقافته الدينيّة

والاجتماعيّة؛ فإمّا أن يزني أو أن يتزّوج بأخرى .. فالإسلام أضاف فضيلةً للطّبيعة البشريّة بتعدّد الزواج.
- و لماذا لم ينصف الإسلام المرأة فأباح لها تعدّد الأزواج كما تنادي بعض النساء اليائسات؟
- ذلك منظور ضيّق جدّاً.
- لماذا؟
- أولاً، تفاديا لاختلاط الأنساب وتداخل النُّطف، ونعود كما كانت بعض أنواع الزّيجات في الجاهليّة حيث يدخل على المرأة عشرة رجال فإن حملت فلها أن تختار من العشرة من تحب أن يكون أبا لوليدها.
- وهل هناك مبررات أخرى إضافة إلى ذلك؟
- بالنّظر إلى طبيعة البشر، فإنّ الرّجل من النّاحية العلميّة أسهل في الإثارة الجنسيّة، وتكون فاعليّته مستمرّة وممتدّة بينما تكون منقطعة عند المرأة بسبب عادتها الشهريّة وعاطفتها التي تتحوّل ميزاناً، ترغب الجنس فيه متى تكاثر الهرمون الرومانسيّ، وكذلك بسبب الزيّادة الطبيعية في عدد النّساء مقارنة بالرّجال.
- وهل حُدِّد الزّواج بأربع نساء فقط؟
بإيماءة من الشيخ وليام للملا عمر، أردف الأخير مجدّداً:
- هناك آراء مختلفة، فهناك مَن يرى أنّه يحرُم أن يزيد العدد عن أربع نساء في ذمّة الرّجل في الوقت نفسه، وهناك من يرى جواز أن يزيد العدد إن ارتبط بالإماء وملك اليمين وغيرها. أمّا الآراء الناشزة فترى أنه يجوز الزّواج بأكثر من أربع نساء في الوقت ذاته.

- ألا ينافي ذلك الآية التي ذكرتَها للتوّ؟
- يرى بعض المفسّرين أنّه يوجد في اللّغة العربيّة ألفاظ مثل مثنى وثلاث ورباع ولكن لم يكن هناك خماس وسداس، ولذلك يرون أن تعدد الزواج مطلق في ذاته أي أنّه غير مقيّد بأي عدد.
- ألا يجوز الزّواج بالغلمان؟ ألا توجد آية تبيح ذلك؟

تنفّس أغلب الحضور الصّعداء وحطّ على رؤوسهم الطّير واشرأبّت الأعناق نحو الشّيخ وليام وساد ترقّب صامت بينهم، اعتدل الشّيخ على إثره في جلسته وشرح ما يُقصد في قوله تعالى:﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنّهم لؤلؤ مكنون﴾ حيث يقصد بالغلمان هنا الخدم ناصعيّ البياض والطّهارة وليس كما يتوهّم العامّة أو أولئك الذين يقرؤون نصف الحقيقة وتخونهم الحكمة في فهم النّصف الآخر.

فقد قال الله تعالى :﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ ، وقال (ص) ((الحكمة ضالّة المؤمن)).

واستفسر أحد الحاضرين مندفعاً:

- وهل لكلمة غلمان معانٍ مختلفة؟
- كما لفظ الخمر، الخمر الدنيويّ يسكر ويفقد الإنسان عقله وإنسانيّته ولكن خمر الجنّة ليس كذلك كما يرى المفسّرون.
- ولكن كيف تراه أنت؟
- الخمر عندي هو الخمر، والغلمان هم الغلمان.
- وهل في التاريخ الإسلامي ما يؤكد نظريتّك؟

- بالعودة إلى العصر العباسيّ، نرى انتشار الزواج بالغلمان حتّى عن طريق الخلفاء أنفسهم ومنهم هارون الرّشيد وابنه الأمين الذي اتّخذ أكثر من غلام خليلا،لقد انتشرت ظاهرة الغلمان كثيرا حتّى أصبحت ظاهرة فاشية ومستشرية بشكل مقلق، فجاهر بها الشّعراء كبشّار بن برد وأبي نوّاس، ووصل لكثير من العلماء والقضاة كالكسائيّ ويحي بن أكثم، وحينها قال أحد الشّعراء:

متى تصلح الدّنيا ويصلح أهلها إذا كان قاضي المسلمين يلوط

والأدهى أن الجاريات تشبّهن بالغلمان فوصفت الجميلات منهن بالغلاميّات لتميّزهن و لفرط جمالهن.

انفضّ الحوار ولم تنفضَّ الحكاية بعد وكأنها أبديّة بنهاية مفتوحة، ليس للعقل البشري القدرة على ربط رحمها للتوقف عن الإنجاب؛ بل هي خصبة ولّادة في كل مكان وزمان وكأنّ الجدال فيها يعيدك لأول السُلم كلّما تسلقت لآخره.

*****

أنشأ روبرت حسابا إلكترونيّا خاصاً لحمادة يفتح له نافذة على الجنّة المزعومة، على الفردوس الأميركيّ، حيث يتوهم النّاس نعيما مفقودا لا يوجد إلا على التّراب الذي وطأته قدما الرحّالة الايطاليّ الشّهير أميركو فسبوتشي العام 1505 ميلاديّة فمنحه اسمه، وقاده جورج واشنطن للانفصال عن التّاج البريطانيّ العام 1776 ميلادية وخُلّد اسمه عاصمة للولايات المتحدة، ومنذ ذلك التّاريخ وهي تقود العالم وفق مصالحها بقطبيّة ثنائيّة أو أحاديّة أو حتّى ثلاثيّة.

بدأ مسلسل الحوار (chat) المتكرر بين روبرت وحمادة بشكل شبه دوريّ، عادة ما يكون بعد غداء يوم السّبت، تمكّنا خلال الحوار الأول من تبادل الصّور كعرفٍ الكترونيّ بعد تقديم نفسيهما بصورة عادة ما تبرز الوجه الحسن إما عن قصد أو عن غير قصد، فحين نتحدّث عن أنفسنا لا نذكر إلا محاسننا لنجذب الآخرين ونثيرهم ونختلق الفضيلة، بينما نترك للآخر حرية اكتشاف الوجه المظلم لشخصيّاتنا لعلّه لا يرى أيّ رذيلة، فإما أن ينبهر بها وإما أن يفزعه هول الحقيقة، في تقليد نفاقيّ عالميّ.

وفي أحد الحوارات، تحدّث حمادة بحذر شديدٍ محيطاً نفسه بشيء من الغموض المثير للرّجال ومنتظراً اكتشاف الزّبون الجديدٍ وما يرمي إليه، في الوقت الذي حاول فيه روبرت جاهداً اقتحام عالم حمادة وتحليل عناصره بل وفكّ طلاسمه، وضمّه إلى مقتنياته وكماليّاته، وبلغة تشبه الإنجليزيّة دار الحديث التّالي:

- حمادة، من أيّ مناطق العراق أنت؟

- العاصمة بغداد.

- كم عمرك؟

- ثلاث سنين.

- ثلاثاً؟

- لا أريد الحديث عن العشرين عاما التي سبقت، لأني لم أعشها.

- هل تسكن مع والديك؟

- لا.

- هل لك أخوة؟
- نعم.
- هل أكملت دراستك؟
- أنهيت الثانويّة بتفوق.
- لماذا لم تكمل دراستك الجامعيّة؟
- لا حاجة لي بشهادة لا تطعم خبزاً في بلد شرّد علماؤه مع سبق الإصرار والترصّد إلى العالم ... أهو تحقيق؟
- لا أقصد، ولكنك لا تتحدّث، لا تسأل.
- أسأل عن ماذا؟
- أيّ شيء.
- تحدّث أنت بما تريد، إنّي أسمعك.
- هل يمكنك استخدام (الكام) خلال حديثنا؟
- لا مانع.

أثار حمادة بأسلوبه الأنثوي المغلق روبرت، وهو نمط لم يعهده أبداً، النساء في الغرب يكنّ في المتناول، إما قبول سريع لعلاقة مزعومة وإما رفض بارد مباشر يقطع خيوط الفخ قبل نصبها، وكلما تمادى حمادة في تمنّعه زاد روبرت في إصراره وظهر حبّ التملّك لديه حتى أخبره تدريجيّاً بإعجابه من خلال ما يملك من جمال شرقيّ لم ير له مثيلاً، وما هي إلاّ أيّام قلائل حتّى أعلن روبرت حبّه المطلق ورغبته في الزّواج بحمادة بأيّ طريقة وبأيّ ثمن كان؛ وقررا على إثره تبادل رسائل (الأوفلاين) والإيميلات والتي جاء في إحداها:

حبيبتي أميرة،

أُسعدتِ مساءً يا عزيزتي، لعّلك لن تصدقي كلماتي حين أقول أنّي متيّمٌ بك، عندما حدّثني غاراي عنكِ لم أكن أتخيّل أبدا أنّي سأهيم بك سريعاً حيث أنّي لا أعتقد بالحبّ عن طريق الانترنت، فلطالما أسميته بالحبّ الوهميّ، حبٌّ لم تفرزه العواطف إنّما هو حبّ المغامرة.
حبيبتي، لكلماتك سحر كبير سافر معها طيفك عالياً في السماء وما هبط إلا في مطار قلبي الذي استقبله بكل الحفاوة والسعادة، ولوجهك المشرق وقع خاص اقتحم كياني وهزّني.
كلماتك عكست عقلك الكبير ورجاحته، وجمالك الأخّاذ لا يتوانى عن سرقة القلوب، فكيف إذا كان ذلك القلب هو فؤادي الضّعيف؟ فؤادي الذي احتضنك قبل أن ألقاك حيث جمعنا عالم الروح.
حياتي، سأبذل قصارى جهدي في أن أزور العراق للقائك وإن لم أستطع فلابد أن تطأ قدماك نيو يورك، سنجتمع قريبا ونصرع كلّ الظّروف والعوائق، فقدرنا واحد ومستقبلنا مرتبط بروحينا.
لا يهمّني أن تكوني قادرة على الإنجاب، فالأطفال ليسوا كلّ السّعادة، إنّي أراك زوجة، حبيبة، ابنة وصديقة.
أنتظر ردّك بلهفة واشتياق
إلى لقاء قريب
روبرت

اعترف روبرت لصديقه غاراي بحبّه الجديد ورغبته الجامحة في العودة إلى العراق، فقُوبل بترحاب شديد لم يعكّر صفوه إلاّ الإجراءات الرّسميّة الواجب إتّباعها لزيارة العراق باعتبارها منطقة حرب خطرة.

وتكفّل مانينغ[3] عن طريق علاقاته الدبلوماسيّة بحلّ كلّ العقبات الرّسميّة التي واجهت روبرت أثناء عزمه دخول العراق متمنياً أن يجد وسيلة إضافيّة تدرّ عليه الكثير من الأسرار العسكريّة الّتي يعمل جاهداً على جمعها بكل الطّرق ومن أيّ جهة كانت لأهدافٍ تجاريّة واجتماعيّة حدّدها مسبقاً.

*****

بعد أكثر من ثلاثة أشهر من ترف الكلمات والحوار مع حمادة تمكّن روبرت من اختراق الحواجز الأمنيّة وتحديد موعد للعودة مرّة أخرى إلى العراق، وما كان يدور في خلده إلاّ القبض بجسده على حمادة شرط أن يفي بكل التزاماته تجاه مانينغ، وقد اختلف حدّ التّضادّ مع صديقه غاراي الذي كان يرى بعدم جديّة (حبّ الانترنت) المُتوهّم، فهو حبّ يصعب التّحقّق منه، حبّ غابت عنه معانٍ طالما أبرزته بصورة فطريّة، حبّ غابت عنه لغة العيون التي تعشق بصمت ودموع، وغاب عنه خفقان القلب وحرقة الصّدر، كما أن الغَيرة هي صفة ملازمة للعشّاق، فهل يمكن للإنسان أن يعشق مخلصاً بقلبه دون أن ترى عيناه محبوبته؟ وهل يمكن

---

[3]- بيد أن الـ"بي بي سي" شددت لاحقاً على أن الديانة الإسلامية ترفض بشدة المثلية الجنسية، وقالت إن حقيقة إتمام هذا النكاح بين فتاتين مثليتين تعتبر مسألة مسيئة للغاية بالنسبة إلى غالبية المسلمين.. جريدة إيلاف الإلكترونية:23 فبراير 2011 .

أن يتلاشى حبّ العين والانطباع الأوليّ فاتحاً الباب على مصراعيه لحب لم تألفه البشريّة قطّ ؟ لحبّ لا يكترث بالمكان!

ولدواعٍ أمنيّة معقّدة، انقطع روبرت عن سيل المحادثات الالكترونيّة مع حمادة ثلاثة أيّام إلا سويعات قبل أن تطأ رجلاه تراب العراق عبر مطار بغداد الدوليّ في السّاعة التّاسعة مساء، الاثنين الأوّل من شهر إبريل، ثم نُقل مباشرة بواسطة قوّات أمن المطار العسكريّ إلى قسم المخابرات السريّة (CIA) خارج المطار للتّحقيق في أهداف الزيّارة المعلنة وغير المعلنة فيما كانت إجابات روبرت تصبّ نحو هدف واحد ومحدّد: أميرتي و معشوقتي حمادة.

اتّصل غاراي على عجلٍ بقادر يدعوه لاصطحاب حمادة ودخول المنطقة الخضراء خلال ساعة واحدةٍ دون أن يوضّح أسباب الزّيارة ممّا أثار غَيرة قادر و استياءه، لكنّهما دخلا (الكانتين) بعد ساعة ونصف من المكالمة، كان قادر مرتديا قميصا أسود يعكس كلّ إضاءة ساقطة عليه بينما ارتدى حمادة عباءته السوداء المطرّزة بإتقان وهي تفتح من الأمام لتبرز فستاناً أحمر شفافا يفضح أكثر ممّا يستر، كان الوافد الجديد يجلس على الجانب الأيمن من البوّابة الرئيسيّة بجوار صديقه غاراي الذي وقف مرحّبا بحبيبته وصديقته بقبلة على شفتي قادر وعلى الخد الأيمن لحمادة.

جلس الأربعة على الطاولة المربّعة دون أن يميز حمادة الضيف الجديد الّذي ظلّ صامتاً يقرأ الخارج والدّاخل، تتلاطم الأفكار بالمشاعر في رأسه وقلبه وكأنّما الحبّ قد تلاشى بعد النّظرة الثّانية. تدخّل غاراي ليكسر حاجز الصّمت معرّفاً

روبرت بحمادة وقادر الذي فتح فاه صامتا ومقارنا بين رجل (الكام) وبين الرجل الذي يجلس أمامه:
- روبرت، أقدم لك أميرة، محبوبتك الّتي .....
مدّ يمينه:
- مرحبا، سررت بلقائك.
- وهذه قطّتي وحبيبتي، سارة.
- أهلا بكما.
- للتوّ جاءتا من قلب بغداد، الأمن مستتب، فلا يُخشى عليهما.
- أتمنى لكما السّعادة والأمن دائماً.

أشار غاراي لقادر بأن يتبعه لخارج (الكانتين) فاتحا المجال للحبيبين أن يتحدّثا معاً ويختبرا المشاعر المتضاربة عبر انكسار نظرات العيون وحديث الشفاه، واقتران نبض القلبين.... إلا أن شيئاً من ذلك لم يكن حاضراً وكأنّما تكفّلت شمس بغداد بتبخيره سريعاً.

حاول روبرت أن يمدّ جسراً آخر أَلِفَه أثناء مغامراته العاطفيّة التي لم يدم أجلُ أطولها وأشقاها عن الأشهر القليلة، لمس يد حمادة الباردتين ونظر في شفتيه الحمراوين وعينيه اللّتين لم تتحدّثا بعد وآثرتا الصّمت الاختياريّ، وهو ما دفعه للّحاق بغاراي والهروب من اللّحظة الحرجة في محاولة لقتل ذلك السّكون.

قرّر روبرت أن يُنجز عمله المناط به من قِبل مانينغ والبحث عن أكبر قدر من الوثائق الرّسمية وغير الرّسمية تاركا مهمة تصنيفها للغير ومستمتعاً بالسّهر في ملاهي بغداد اللّيليّة وخاصّة ركن البنفسج الشّهير، اصطحب معه حمادة

في اللّيلة الأولى إلا أنه لم يجد غضاضة في تعويضه بالأميركيّة الحسناء (ماري جو) الّتي تعمل مراقبة للسّجون العسكريّة .. مَهمّة ومتعة حتى موعد الرّحيل خلال أسبوعين فقط.

*****

مع استلام القوّات العراقيّة لبعض من مسؤوليّاتها والتزاماتها الأمنيّة في بغداد، تصادمت فيما بينها وتحاربت الميليشيّات المسلّحة إلاّ أنّ هدف محاربة المثليّين جمعهم، كان هدفا مشتركا بينهم وكأنّ المثليّين إرهابٌ عالميّ! كان قادر يتغنّى بحقبة دكتاتوريّة صدّام حسين ويفضّله على خطر العنف والدّمار والأمن المفقود الّذي يواجه العراق، فقد طالت أعمال القتل المئات من المثليّين في بغداد وحدها دون أن تتطرّق وسائل الإعلام الرئيسيّة لوضعهم المأساوي. ويتذكّر قادر بدموع حارة كالجمر أن قوّات الأمن اكتشفت أمر حمادة، فاقتفوا آثاره وتعقّبوا خطواته، من المنطقة الخضراء إلى النّونو وركن البنفسج، ومن الزّعفرانيّة إلى المناطق الزراعيّة الممتدّة، تعقبّوه حتّى أحسّ بالخطى تطارده بعد ظهر يوم خميس شديد الحرارة وهو في شارع الجمهوريّة، انعطف سريعا بعد حديقة بغداد منزويا خلف جذع نخلة تدرّ رطبا أحمر، فمرّ من أمامه مخبران تنفسّ بعد مرورهما الصّعداء، أخذا ينظران يمنة ويسرةً ثم تحدّثا بعصبيّة بدت على أيديهما، وأخذا يشيران باتّجاه آخرِ الشّارع وحمادة يعيد صدره إلى الوراء واضعا عليه يديه، متمنيّا ألّا يسمع المخبران نبض قلبه وكاد حينها أن يغلق عينيه لعلّه لا يراهما فلا يريانه، إلاّ أنّ يدا تسلّلت فجأة إلى شعر رأسه من الخلف تريد جزّه، فصرخ

حمادة بألم الثكالى قبل أن يتكالبا عليه وتنهشه الأيدي وتركله الأرجل من كلّ حدب وصوب.

أخذاه إلى أحد المنازل القريبة التي كانت تستخدم كمراكز مدنيّة للشّرطة، سألاه باحتقار مبالغ فيه عن رفاقه فلم يخبرهما إلاّ بعد أن غزا اللون الأحمر وجنتيه وتقاطرت الدماء من فكه السّفليّ، فأخبرهما عن تجمّع البعض في بيت باسل، ذلك العبد الذي تخلّى عنه فجأة.

بعد انقضاء المحاكمة الصوريّة، وضعا الصّمغ قسراً في فتحته الشّرجيّة وأمراه بقسوة بابتلاع أدوية مسبّبة للإسهال، وطمأناه بالإفراج عنه إن بلّغ عن بقيّة زملائه فتمّ لهما ما أراداه، و بُعيْد يومين قاما بتقطيعه كالشّاة و رميا بجثّته في القمامة حيث تمّ ذبحه وبتر ما تبقى لديه ممّا يسمى بالعضو التّناسليّ.

وبعد سنين عجاف، لازال قادر يتحدّث باعتزاز عن حقبة صدّام، فإن كان صدّام إبليسا دمّر العراق كلّه، إلاّ أنّ تجارة الجنس تحت الأرض حينها ازدهرت في عهده، فكيف لا يستحقّ إبليس الرّحمة والفاتحة؟!

*****

وخلال شهر من تلك الواقعة الدمويّة الأليمة، تمكّن قادر من فتح حساب حمادة الإلكترونيّ بحدسٍ فطريّ وضع من خلاله رقم هاتفه كرقم سريّ، فوقعت عيناه على رسالة روبرت في البريد الوارد، قرأ كل كلمة فيها مرتين أو ثلاثاً وكأنّه يذاكر لامتحان مُرتقب:

العزيزة جداً أميرة،

ربّما خانتني المشاعر تجاهك فوجدتّني عاجزا عن إظهارها، وربّما كان أملُك أكبر في أن تجمعنا الأقدار فيُظلّنا سقف واحد، إلّا أنّ في القلب حيرة لم تدفعني في طريقك، كنت أحسّ بك بين جوانحي برغم مساحة الدنيا الّتي تباعد جسدينا، وعندما قتلنا المسافة وأصبحنا جسداً واحداً لم تحط روحك بين ضلوعي، فكأنّما الرّوح والجسد وجود وعدم لا يجتمعان أبداً.
جميلتي، لم أكن يوماً خائنا في مشاعري قبل لقائنا إلاّ أنّها تخلّت عنّي وربما خذلتني حين احتجت إليها، أدركت خلالها استحالة أن نكمل الطّريق سويّاً وعرفت أنّه يصعب على القلب أن يعشق قبل العين أحيانا.
أتمنّى لك كلّ التّوفيق مع رجلٍ يقدّر الجمال ولا يعبأ بالماضي بل يرى المستقبل مشرقاً.
عزيزتي، للعراق وجود دائم في وجداني تجسّد دائما في طيفك الّذي لا يفارقني، فكوني له فيضاً وإن بصم الزمن على محياكِ وسرقه نضارته.

إلى لقاء ربما لن يأتي أبدا
روبرت

*****

أصبحت عاصمة الرّشيد مدينة الرّعب والخوف متّشحة بصمت القبور، واختار أغلب أهلها ـ وهم ما يُعرفون بالفئة الصّامتة ـ البيات شتاءً وصيفاً في بيوتهم، مفضّلين ترقّب من يقتحم منازلهم بدل الخروج إلى الشّارع ومواجهة نقاط التّفتيش والقنّاصة الّذين يرصدون كلّ حركة ولا ترصدهم العيون، كانوا يكتفون بغمزةٍ من عزرائيل لتحقيق كلّ مآربه، ولم يجد إبليس مرّة أخرى ضيراً من اعتلاء أحد المباني الشّاهقة ليكون شاهداً على فصول من المسرحيّة الإنسانيّة الّتي لم يكن مُخرجاً لها.

كان للخروج من الحيّ والمنطقة عند الضّرورة مخاطرة كبيرة، فإن أخطأك القنّاصة فإنّ المفخّخات كفيلة بسفك دمك دونما كلل ولا ملل، وكان من حقّ الحرس أن يقتحموا كلّ أمورك الشخصيّة، فلهم الحقّ في معرفة ما تحمل معك وما تشرب وما تسمع وحتّى من تحبّ وتكره!

تجَحفل المسلّحون خلف المتاريس في كلّ منطقة، وكاد يدّعي كلّ واحد منهم الإلوهيّة، يتخيّل أنّه الصّواب المطلق وغيره نقيضٌ مظلمٌ، أنا الحقّ وغيري الباطل، افتقد الكثيرون القدرة على التّعايش السلميّ والتكامل، أصبحوا ينادون ملء أفواههم بكراهيّة الديمقراطيّة والتعدّديّة ولكنّهم لم يمارسوها فعلاً، أصبحت الحريّة شعارا يقبل التّطبيق في الفكر فقط. وكلما ضاقت بغداد بأهلها كلّما آثر أهلها الهجرة بعيدا عن ترابها لعلّها تُنبت ربيعا يسع الجميع، فما لا نخاف خسارته لا يستحقّ أن نحياه.

انقطعت أخبار قادر في تزامن مخيف مع اغتيال حمادة وبعض رفاقه في مرحلة غلبت عليها مرارة الاستبداد الداخلي والشّعور بالغبن حين لا يُرى في الأفق غير ظلام حالك.

كان كاظم حينها على يقين من أنّ الميليشيّات المسلّحة تطارد المثليّين ومن لهم علاقة وطيدة بهم في عمل أُخرويّ يدعو له زعماء الموت ويجزمون أنّه السّبيل الأقوى والأنجع للفوز برضا اللّه وطرق باب الجنّة وسلامة الوصول لحور العين.

غادر كاظم منزلهم يترقّب الأجل المحتوم الّذي تمنّاه أن يكون مخروما كما يؤكّد المفسّرون، تمنّاه أن يكون بعيداً عن أعين هذه القوّات المتسابقة على الظّفر بالدّماء؛ فكّر في تحليل لا منطقيّ متسرّعٍ بألّا يُشعر أهله ولا يُخبرهم برحيله لعلّ من يأتي باحثاً عنه لا يقتفي أثره ولو تحت وطأة التعذيب، لعلّه يعود حتّى بغير خُفّي حنين، وبأن ينقطع السّبيل إليه حتى تهدأ الأحداث المتسارعة والمتضاربة.

وخلال الأسبوع الأوّل أصاب الهلعُ أهلَه واستعدّوا تحت وابل الدّموع وسهام الأحزان لتقبّل خبر مقتله، ففي هذه الحقبة المرعبة أصبح العراقيّ يعيش بالصّدفة بينما يموت كلّ البشر فجأة.

قرّر قادر التنقّل بين الشوارع والأزقّة وقرّر ألاّ تحمله رجلاه إلى منطقة أخرى إلّا بعد دويّ انفجار قريب، لكنّ الحاجة للمال أجبرته على محاولة الوصول إلى أخيه يوسف ولو عن طريق وسيط.

في المقابل، كان يوسف يدرك ما يدور في خلد كاظم وأصبح يبحث عنه ولكن دون جدوى؛ دفعه الخوف والقلق إلى

الاستعانة بأحد أصدقائه من مرتادي المقاهي ولكنّه لم يكن يعرف بالطامّة الكبرى؛ بأنّ ذلك الصّديق أصبح مخبراً سريّاً لإحدى الميليشيّات الطّائفيّة يتحيّن الفرص للفوز بالمال الدنيويّ وبِحُور الآخرة!

أعطى يوسف مبلغاً من المال لصديقه واتفقا على التّناوب في إحدى أشهَر مقاهي الكاظميّة في منطقة الدّروازة، أحدهما ينتظر نهاراً والآخر مساءً لعلّ الفرج قريب والفريسة آتية لا ريب فيها، ولا بدّ لكاظم من العودة مجدّداً فالطّير حتماً يعود إلى عشّه مهما بعدت به الشقّة أو ضاق به الأمل.

عاد كاظم فعلاً إلى "الدروازة" ولكن في هيئة جديدة تخفيه، لبِسَ "الدّشداشة" السّوداء والغترة البصريّة، أطلق العنان للحيته وارتدى نظارةً سوداء فغابت ملامحه واندثرت، جلس على جادّة المقهى الأوّل لمراقبة المارّة، الدّاخل والخارج ... أطال المكوث والسّكون حتّى تعرقلت عيناه بشقيقه يوسف جالساً إلى ذلك الصديق، اختار كاظم التريّث والمراقبة في بلد أصبح المواطن فيه يشكّ في الحجر الأصمّ ويتخيّل أنّ للجدار آذاناً تعمل ليل نهار، غادر يوسف إلا أن كاظم راقب المكان وقد أصاب في حدسه، داخَلَه الشكّ في جليس أخيه فانزوى بعيدًا لعلّه يعرف ما تُخفي الصّدور.

تعقّب أخاه يتحيّن الفرصة الأنسب ليحادثه دون أن يثير انتباه العابرين والمتسوّقين، أصبح يسير خلفه بمقدار متر أو يزيد حتّى تحدّث بصوت أقرب إلى الهمس:

-لا تنظر خلفك يا يوسف.

ارتاب الرّجل خيفة فظنّ أنّ هناك من يطارده وربّما يغتاله في السّاعة..

- أنا أخوك كاظم، أنتظرك في آخر الممرّ الثّاني على يمينك.

واصل الاثنان المسير ولازال ظنّ السّوء يداخل يوسف، أومأ برأسه فاتسعت مقلتاه دهشةً ولكنّه استرق النّظر إلى عيني أخيه فعرفه حقّاً.

وقف الاثنان متقابلين بظهريهما كلٌّ يسمع الآخر، فتحدّث كاظم:

- أخي، أنا بخير لا تقلق عليَّ أبداً، أريد الاطمئنان على والدي.

- أعرف أنّك على قيد الحياة ولكنّهم قد يسرقون حياتك في أيّ لحظة، والداك يفتقدانك فعلاً.

- سأزوركم مساء الغد، لا تخبر أحداً أبداً، وبعده سأتوجّه إلى البصرة، سأغادر العراق من هناك، برّاً أو بحراً.

- إلى أين الرّحيل؟

- سأخبركم بقراري غداً، كن بخير، إلى لقاء.

- مع السّلامة.

ابتعد كاظم سريعا كالسّراب وظلت عينا يوسف عالقتين به، ذرف دموعاً وكتم آهاته حتّى اختفى طيف أخيه، عاد إلى صديقه "السريّ" مباشرةً في المقهى يخبره بانتهاء المهمّة:

- لقد عثر عليَّ كاظم.

- ماذا؟

- نعم، سيزورنا مساء الغد ثم سيرحل إلى البصرة جنوباً قبل مغادرة العراق، انتهت المهمّة، الدنانير حلالك.

ابتسم الصّديق من كل قلبه وأخذ بمكر يعدّ العدّة في الحال فيما راح يوسف مسرعاً في اتّجاه بيتهم يزفّ البشرى الأليمة

وينعى أجل أخيه على غير هدى.

*****

اتّخذ خمسة من الجناح العسكري للميليشيّات مواقعهم في الشّارع المحاذي لمنزل كاظم من بعد صلاة العشاءين، جلس ثلاثة في سيارتهم يستمعون القرآن لعل اللّه يتقبّل قربانهم، واتّخذ الآخران مواقع المراقبة عند مدخل الشّارع الضيّق المليء بالنّفايات والحجارة المتناثرة.

انتظر الرّجال فريستهم طويلاً ولكن بلا طائل، بعد منتصف اللّيل، ساد الظّلام والرّعب المنطقة وخلت الأزقّة كلّها من الجِنّة والإنس، كادت دقّات القلوب غير المنتظمة أن تُسمَع من شدّة السّكون حتّى أوشك الفجر على البزوغ. لم يشأ الرّجال أن يُغادروا المكان بلا فريسة تحقّق لهم ذاتهم؛ زرعوا متفجرات بدائيّة الصّنع على مدخل المنزل لتصطاد كاظم وقتما يشاء: " اليوم أجله فلابدّ أن نُسهّل خطاه إلى جهنّم وبئس المصير"..

غادر الأبطال المنطقة قبل أذان الفجر وتوجّهوا إلى أحد المساجد القريبة في الشّارع الموازي، بعد دقائق معدودة ومع آذان الفجر، سمُع انفجارٌ مدوٍّ اشتعلت السماء على إثره لهباً ودخاناً ودكّت الأرض دكاً، باركوا لبعضهم البعض نجاح العمليّة وللقصاص من أعداءِ الدّينِ لعلّ اللّه يبارك لهم في مالهم و ذريّاتهم ويرزقهم رزقاً حسناً.

سُمعت صفارات الإنذار والإسعاف والشرطة تبكي مسرعة على اللّبن المسكوب ولتسجّل حضورها في تكرار سينمائيّ لحضور "البوليس" في المشهد الأخير في الأفلام الهنديّة.

في صبيحة اليوم الرّابع من عمليّة الاغتيال، توجّه يوسف إلى المقهى ذاته لعلّ اللّه يزيل كربه ويُفرّج همّه، اتّخذ من نفس المقعد جلسة له وطاف به فكره بعيدًا، وهو يحاول إعادة صياغة الواقع في محاولة يائسة للتّغيير، جاءه صديقه وقد أخفى ابتسامة النّصر، تقدّم وقد لبس ثوب الحداد والعزاء:

- أحسن اللّه عزاءكم.

- رحم اللّه والديك.

- لم استطع الحضور بسبب ارتباطي بالعمل اللّيلي خلال الأيّام الماضية.

- جزاك اللّه خيراً

- إلى رحمة اللّه يا كاظم، لعلّ اللّه اختار عمره كفّارة له ولنا.

- كاظم لم يعد إلى البيت، ومن قُتل هو الوالدُ عند توجّهه إلى المسجد لأداء الصّلاة.

قرّر كاظم الذي أخطأه القدر بمساعدة معارفه الهجرة بعيدا،إلى تراب لم تطأه رجلاه من قبل، وإلى عالم لم يقو خياله على تصوّره، قرّر الاختباء خلف المجهول وفضّله على ضباب العراق القادم. اختار أقصى التّراب الآسيويّ وربّما أقصى الأرض مستقبلاً وموطناً ولسان حاله يقول: يحاكم الإنسان في بلاد العرب على أفكاره باعتبارها جريمة بينما يتغاضى اللّه سبحانه وتعالى عنها ولا نُعاقب إلا على أفعالنا.

الفصل الثاني

بانكوك

شُيّد السّوق العائم فوق مياه نهر دامنون سادواك العام 1866 ميلادية في العاصمة التايلندية بانكوك ليكوّن أرضاً متمايلة تُسهِّل عمليّة التنقّل بين الأطراف المترامية للمدينة، وفيها تمدّ القواربُ النهريّة الصغيرة مجاديفها متشابكة متحابّة، استقلّت بريسانا وصديقتها كونغ خلال حركتهما المعتادة قارباً متجوّلاً يبيع الموز الصغير من حيّ بانغلامبوه في طريقهما إلى منطقة سوكومفيت (العربيّة).

خلال مرورهما المتكرّر، لا تفتأ أعيُنهما تحصدُ كلّ تلك الحركة الكونيّة الدؤوبة في هذه البقعة من العالم، فشارع الكوسان الذي يدلع لسانه متموّجا باتّجاه طوليّ نحو الشّمال يحمل كسفح جبل عملاق بشراً من كلّ بقاع الدّنيا يربطهم ميثاق عهدٍ على لقاءٍ متجدّد لا ينقطع فوق هذه الأرض وكأنّها قِبلة للعالمين، يتناوبون بجهدٍ لا ينضب ليلا ونهارا على المحلاّت التجاريّة الكبيرة والصّغيرة، يمرّون بالمعابد ودور العبادة، يتفحّصون كلّ زاوية وممرّ، يقفون عند كلّ مدخل، يختبرون الطّرقات والأزقّة، يكتشفون ثقافاتٍ سحيقةً وديانات بقيت متوازيةً مع الأديان السّماوية صامدةً في وجه التغيّير ومصرّةً على التآلف.

كان عبور النّهر (المستنقع) بحدّ ذاته يحمل لهما نوعاً من الهذيان والإمتاع المسكِر، متعة صامتة تخترقها سهامٌ من الغزل بكلّ أطيافه، غزلٌ يعكس تلك الحضارات الإنسانيّة

بلغاتها المتنوّعة، فهناك غزلٌ صامت تنطقه دهشة الوجوه ووجومها عبر بروز تقاسيمها وانحناءاتها، وآخرُ يقذف مفرداتِ عبير نديّ، فالمرأة تأسرها الكلمات ولو بعد حين، وهناك غزلٌ لا يفتأ يزني بكلماته، وأمّا أقلها وقعاً فهو أشدّها بذاءةً لأنّه لا يحمل تحت عباءته جديداً، ينطقها كلُ مستجِد ووضيع.

اعتادت بريسانا وكونغ سماعَ كلّ تلك الكلمات وأصبحتا تسترقان السّمع بحثاً عن حداثةٍ تميّز صاحبها عن اكتشافٍ واختراعٍ يطردُ الرّتابة المملّة لعلّه يكونُ أمراً يكشف سرًّا في تلك الأنفس المرهفة.

كما اعتادت سؤالَ مرافقتها وصديقتها كونغ عن النّعوتِ التي التقطتها أذناها لعلّها تجد ما سقط سهواً لتبعثرها على صفحات مفرداتها فربّما تجدُ نفسها مرّةً أخرى في كيانٍ آخر يبعث الحياة بين جوانحها، فبدأت كونغ كآلةٍ صمّاء تردّد جُملاً متوقّعةً:

- بريسانا ذات الوجهٍ القمريّ، والعينين العسليّتين، البشرة البيضاء النّاعمة الّتي تكاد تبقي أثرا لمن يلامسها، والطّولِ الفارع ... القائمة لا تنتهي يا عزيزتي.

- وماذا عن الإثارة يا كونغ؟ ألا جديد؟

- شاهدت فصلاً مسرحيّا أنت بطلته دون أن تطأ قدماك منصّته.

- لم أُمثّل أبدا يا كونغ.

استدارت تشير بيدها نحو الضفّة الأخرى..

- ألم تلاحظي ذلك الرّجل الأبيض، هناك؟ أظنّه أوروبيا.

- ما به؟

- كان يتفحّص صديقته بيده وعيناه باتّجاهك، مسح على ساقيها وكأنه يريد أن يزيل كل زائدة وترهّل، يريد ساقيها كساقيك، وتمنّى شعرها كذيل الفرس الأصيل متدلّيا من خلف الرأس، مختالاً على خصر نحيف يلاطف مداعباً أردافا متطابقة ومتمايلة بزهو طاووس في مشيته.
- حقاً ؟
- تمنّى متوهّما روحها أن تحلّ في صورتك فيولد له كمالٌ لا سراب.
- أنت تبالغين..أغلب الرّجال لا يعجبهم الجمال الكامل .. يفضّلون الخلل والنّقص في المرأة.
- تحدثّت عيناه تائهتين حين صمت لسانه، الكلمات الصّامتة هي الأكثر صدقاً، أظنّه يعتبر نوعا من الزنى أن تلامس جسدا بيديك وروحك تلامس جسدا آخر .. نوع آخر من الغزل لم تعهديه يا عزيزتي.
اعتادت بريسانا بعض كلمات الحبّ والغزل فلم تعد تطربها عند سماعها... "بهمس الرّمشين أطلب من مريديّ أن يصفوني، أن يتغنّوا بي، أرغب في عبارات تلتقطها أذناي أينما وطأت قدماي، أصبحت عيون النّساء بغيرتها تصطادني مدقّقة قبل عيون الرّجال الطامعة، ويزداد همسهن كلما حملتني الريح باتجاههنّ، ما مررت بضوضاء إلا خفتت وتلاشت قبل أن تتسارع مجدّدا، فكأنّ للجَمال هيبة وخشوعا، ووقعا في الحضور تُجلّه الألسن بخرسها، يتودّد الرّجال إليَّ للظّفر بابتسامة، وينحني متفاخرا من يفوز بنظرة عابرة، متمنّيا أن يحظى بشيء من المودّة".
تساءلت كونغ بشيء من الهذيان عمّا تطمع إليه بريسانا حقّا:

" الأمومة يا عزيزتي، فقد انطوت 25 صفحة من كتاب عمري، أريد زوجا وإن كان صنماً، احتفالا في أحد الفنادق الفاخرة، مدعوّين و ليلة عمر تحلم بها كلّ فتاة منذ أن تداعب في طفولتها دمية ذكراً، حيث تتخيّل تلك الدمية أميراً سيطلب يدها، ألم تلاحظي كيف تداعب الطّفلة كلّ دمية كجزء منها، ويمزّقها الطّفل بغيرةٍ فطريّة؟!"

وضعت كونغ ظفر سبّابة يدها اليمنى بين نابيها: "وهل الأمومة هي كلّ شيء؟ هل هي عماد الأنوثة؟"

بنفَسٍ عميق وتنهيدة طويلة وكمن يتحدّث بضجر أزليّ:

"سحرتُ عيون الرّجال والنّساء، ولم أسحر عينيّ، طرقت قلوبهم ولم يقترّبوا من قلبي واكتفوا بجسد دمية، اشتهتني خصاهمو صدّتني أحلامهم.

-وماذا يريد الرّجل من المرأة الجميلة؟

أجابت بسرعة من توقّع السّؤال وحدّد الإجابة مسبقا:

"خربشة على إحدى صفحاتها، ثم يحاول غلقها بسرعة الصّوت."

-ولماذا لا يضع ريشته بين أوراقك ويغلق عليها دفترك؟

" الرّجل سائح بين أجساد النّساء، وعندما يكتشف بمهارة ماجلان جسد امرأة ما فإنه يتجول في أوديته، وإن عثر على آثار أقدام سبقته فإنه يسارع لخلع نعليه وركوب بساط الريح".

هزّت كونغ رأسها يمينا وشمالا.. وعضّت شفتها السّفلى..

-ألم يعبر بك رجل أعمى؟

بابتسامة صفراء ودموع حبيسة.. بدأ صوت بريسانا ينخفض تدريجيّا ويتهاوى..

"بلى، ولكنّه اكتشف بأنامله أنّني أحمل برعم ريشة كما يحمل هو ريشة بالغة"!!
تساءلت كونغ بشيء من الغضب...
-ألا تكتمل المتعة لديه حينذاك؟
بدأت دموع بريسانا تتقاطر وتُغِير على بياض عينها لتحوله أحمر في تحدٍّ صريح منها لمساحيق التجميل ..
"بلى، يلهو ويمرح، ولكنّه يصبو لحضن كحضن أمه، فإن اختلفت تراكيبه تغيرت موازينه، الرجل يا عزيزتي طفل بالغ، يخربش أينما حلّ ولكنّه يحن دوما لصدر كصدر أمّه، فالأمّ ملاك طاهر متوهَّم، فإن كنّ ملائكة طاهرات جميعهن، فهل توقفت أقدم مهنة في التاريخ إبّان عصرهنّ؟!"
صمتتْ كونغ لثوانٍ معدودة.. تحاول استدراج صديقتها..
-وهل وجدتِ الرّعشة الجنسيّة الّتي تبحث عنها النّساء؟
-نعم، أحياناً.
-حقاً ؟ كيف؟
تكلّمت بريسانا بخبرة التّجريب ومعرفة المُطّلع والدّارس:
" كما أنّ لكلّ امرأةٍ نقطةُ إثارة في جدار رحمها تصلها أيدي المتمرّسين وتُدعى بـ "جي سبوت" وتوجد فوق البظرين من الدّاخل، فإن للرّجل ذات النّقطة وتوجد بين الخصيتين وفتحة الشّرج من الدّاخل أيضا، فهي فانوس سحريّ نصل إلى ذروة الإثارة الجنسيّة عند احتكاكه وملاطفته".
تساءلت وهي تطلب المزيد من التّوضيح..
-بريسانا، عمّا تتحدّثين؟ ..
"خُلِقت ووُضعت هذه الحبّة السّوداء بعناية ربّانية فائقة في الجنسين بانتظار مكتشف متمرّس، وهو تأكيد على أنّهما

يصلان إلى تلك الهلوسة اللّذيذة، تلك الهلوسة التي تكون الكلمات معها صادقة لأنّها تكسر الحدود والقيود بين الأحبّة."
وضعت رأسها بين يديها.. وماذا بعد؟
"آهٍ يا عزيزتي، منذ نعومة أظافري، ومذ كنت في الثّالثة من عمري، تؤكّد أمّي (الطّاهرة) أنّي كنت عازفة عن الدّمى والألعاب الذكوريّة، لا يشدّني غير العبث واللّهو مع البنات، أحبّ لباسهن وشَعرهنّ وهيئتهنّ، إنّني أنثى بدون ريشة، نوع لجنس تحدّده مشاعرنا لا هورموناتنا ولا بطاقاتنا الشخصيّة."
وبأسلوب ثعلبيّ ماكر فيه شيء من الاستدراج المقصود:
-وكيف تقبل والداك صيرورتك هذه؟
أجابت بريسانا تحت تخدير ذكرى الألم:
"لم تنزعج أمي مطلقا، فهي رأتني أنثى مذ كنت أعضّ حلمتيها، وأداعب بأصابعي شفتيها، لم أختلف عن شقيقتي الكبرى في شيء سوى في الريشة الملعونة المزروعة قسرا بين فخذيّ، فلم يكن ما يعكّر صفوها وما يفزع منامها، فأنت أنت بروحك لا بجسدك، سواء احتويت بويضة أم حيمناً، نختلف ونتميّز ونحن في الرّحم والمهد، الأمّ تدرك وليدها منذ يومه الأوّل، فإمّا أن تتحوّل لوكالة أنباء إن كان بوليدها ما يسرّ فتخبر العالم كلّه ليشاركها فرحتها أو تبلع الغصّة لوحدها إن كان خُلق مع وليدها ما يكدّرها، وأمّي عرفت أنّني ..أنثى.. منذ تلك السّاعة".
-وماذا عن والدك؟
"لم يحرّك ساكنا يذكر، فهو رآني بنتا طاهرة عذراء كما كانت أمّه الّتي يفترض أنّه لم يدنّسها غير أبيه، ولم يكن الأمر غريبا أو معيبا في بانكوك، لكيان مزيج يُدعى "اللّيدي بوي" حضور

وفخر أكثر من البنات هنا كما تعرفين، ويكفي أن ابنَيْ عمّي يتنافسان بشراسة ليصبحا من أجمل "المتحوّلين"، العادات والتقاليد قفص يضعه المجتمع ليحمي ذاته خوفا من الغرباء، وهي رباط غريزيّ نضعه على معصمنا، فالإنسان يعشق أن يظلّ منقادا، مغمض العينين ليتخلص من عقدة الذّنب، ويسلم أمره إلى مجهول وغيب لا يُسأل عنه ولا يعنيه أمره، فإن وقع في فخٍّ دنيويّ ردّه إلى القدر الذي لا مفرّ منه، لينام قرير عين".

تأكدّت كونغ من إذعان صديقتها وأنّها تريد البوح لتتخلّص من عبء يجثم على نفسها..

-وكيف مارست الجنس أول مرّة؟

أغمضت عينيها، وبابتسامة تشبه غموض ابتسامة الموناليزا، يختلط فيها الحزن بالفرح..

"كان ذلك عندما كنت في السابعة من عمري، لم أمارس الجنس بل هو من داهمني واقتحمني، عدت من المدرسة مبكّرا على غير العادة بسبب احتفال أقيم للمتفوّقين هناك، لم يكن أحد في شقّتنا البائسة والكائنة في الطابق الثّاني من عمارة بتسعة طوابق، انتظرت كالمتسوّلات على عتبة البيت عودة أمّي، وحين رآني جاك، ابن الجيران، بعد مراقبة وتلصّص مقصود، عرض عليّ الانتظار داخل شقّتهم المقابلة، قدّم لي بعض الحلويّات إغراءً لطفولتي، ثم جرّني إلى داخل غرفته الضيّقة، طلب مني زجراً خلع القميص أولا متعلّلا بحرارة الجوّ، ثمّ ... لم أكن أدرك ماذا يريد حتّى دفعني بقوة محاذرة بجانب السّرير، بدأت الصّراخ طالبة النّجدة إلاّ انه كمّم فمي بيده اليسرى واستخدم الأخرى لاغتصابي، (غرز) لم يدم

أكثر من دقيقة إلا أنني أستذكره دائما كأنّما حدث للتوّ، فيلم سينمائيّ يتكرّر تلقائيّا بفكري كلّما أغمضت عينيَّ".
-أكانت مرّة واحدة؟
"لا، كرّرها ثلاثا أو أربعا، كل مرّة بأسلوب مختلف، فكأنّما يخترع شيئا في كلّ تجربة، ويستمتع بآلامي".
-أتراه الآن ...؟
تشابكت أصابع يديها ووضعتهما خلف رأسها كوسادة ذاتيّة..
"نعم، هو الآن في الخامسة والثّلاثين، متزّوج وله ولدان، ولكن يخفق قلبي اضطراباً كلّما رأيته، يغتصبني كلّما نظر إليّ بعينيه، أصبحت أسيرة بدون سجّان وهو أقوى أنواع الحبس".

*****

التحقت بريسانا بجامعة "سيلبا كورن" العريقة ببانكوك لدراسة السّياحة وهو مجال استهواها منذ الصّغر ورسّخته كثرة السيّاح الّذين يقصدون تايلاند من شتّى أصقاع العالم، بلد يُعدّ القطاع السّياحيّ فيه عصباً للحياة، فالعالم يحجّ سائحا هنا، وعابدا في بقاع أخرى، الاعتدال المناخيّ والطّبيعة الخلاّبة ساعدا على جذب السيّاح، وهو مجال يوفّر الكثير من الوظائف ويؤمّن مستقبل العديد من الأسر، وينتشل الكثير منهم من مستنقع الفقر، ألا يكفي أنّ الدّخل السنويّ من القطاع السياحيّ بلغ العشرين مليار يورو في مطلع الألفية الثالثة؟!
في الجامعة لا يأبه أحد بجنسك ولا دينك ولا نسبك، أنت ذاتك فقط، الدّراسة ترسم لك العتبة الأولى لتسلّق جبل الحياة، فإمّا أن تولد بملعقة من ذهب تؤمّن طعامك، وإمّا أن

تحارب النّمل في طعامها لتنتزعه منها وتسرق عمرها، العيش في بانكوك يمسّ إنسانيّتك، يلوّنك بدخّانه وقذارته، يسلب الطّبيعة البكر منك ويهبك عالما بكلّ ألوان بقاع الدّنيا، يبعدك عن الفضيلة، وتتأثّر بألوان الطّيف إن بقيت معها، فإن لملمت نفسك وطفت خاطفا فإنّك تبقى أبيض طاهرا، تأخذ من كلّ لون فضيلة وتسمو للكمال وإلّا ستستوطنك الرّذيلة قسراً.

الدّراسة الجامعيّة تتطلّب المال الّذي يصبح به الإنسان ذا قيمة وهو ما كان والدها يوفّره لهم قبل رحيله المفاجئ، والأب كنز لا تُدرك قيمته إلا بعد فقده، والرّسوم الدراسيّة في هذه الجامعة مرتفعة جدًّ ا.

أصبحت ضرورة الحصول على المال ملحّة ودفع الرّسوم الثّقيلة وتوفير الملابس والغذاء عبئا بل أوزاراً على كاهل أمّها فكيف وقد أصبحت هي نفسها بحاجة لمن يسندها ويعينها؟

إنّ الرسوم الجامعيّة مكلفة جدًّ ا في بلد يبلغ عدد سكّانه السّبعين مليون نسمة، بلد يكافح جاهداً مع مجموعة بلدان النّمور الآسيويّة للّحاق بالدّول الصناعيّة الكبرى، تصل الرّسوم الدراسيّة للحصول على شهادة البكالوريوس في إدارة الأعمال والتّسويق بجامعة "سيلبا كورن " ما يقارب المائة ألف "باهت" أي ألفين وتسع مائة دولار أميركيّ وهو مبلغ كبير جدًّ ا هنا، ومثله للحصول على شهادة الماجستير وهو هدف بريسانا القادم.[4]

---

[4]- كانت تلك هي الرسوم الجامعية لعام 2010.

" لجأتُ إلى العمل مضطرّة في المعارض التي تُعنى بـ "الليدي بوي" والوقوف في فاترينات مخصّصة لعرض الأجساد وجذب السيّاح".... جملة تكرّرها دائما مع نفسها ومع معارفها " عرضٌ يجعل منك جسداً خوارًا، ومن يستطيع جذب السيّاح لالتقاط صور أكثر يكون دخله أكبر وحظوظه أكثر".

كانت الفتيات و"اللّيدي بوي" يتسابقن في إظهار مفاتنهّن ورسم ابتسامة لكلّ عين وكأنّها صُمغت على وجوههن، يتمايلن كستارة يتلاعب بها النسيم وتموّجها القيثارة، أصبحن أكثر أنوثة من النّساء أنفسهن حتّى يرغب الرّجال "الزبائن" في إحداهنّ، ومن تلتقطها الصنّارة، يكون الخير - كلّ الخير- يلفّها من دبرها لمستقبل كلّما أطلتَ الوقوف فيه، كلّما طمرك بطينه وقذارته، ولذلك أصبح العزف على وتر الحبّ مؤثّراً حيث المرأة أكبر قراصنة الحبّ.

*****

وقفت بريسانا على جانب أحد الجسور القريبة من مجمع "بلاتينيوم" التجاري في منطقة سوكومفيت، تتأمّل الحركة التي لا تملّ ولا تهدأ أبدا، المشاة في حركة أسرع من السيارات، والدخان ينبعث من عوادمها ويتزاوج بدخان المطاعم المتنقّلة (العربات) لتنبعث رائحة مخدِّرة تشلّ العقل .. وقفت الحسناء تتأمّل كلّ هذا: "مرّ عامان خلتهما دهرا، لم أجدْني خلالهما ولا بعدهما، لم تفلح وظيفتي المؤقّتة في نجاحي".

ضغطت رأسها بيديها تعصره مستنكرة ما يمرّ بها من سحاب أسود.. "وفّرتُ مالا وسُلبَ معه وقتي وعقلي، لم

أستطع المذاكرة ولم أقو على التذكّر والمطالعة فلم أكمل دراستي ولكنّي سأنهيها يوماً ما، وجدتُ الوسيلة وفقدت الهدف".

تذكّرتْ إحدى محاضرات مقرّرات التّاريخ تسترجع ما قاله المحاضر الدّكتور تيم: "الغاية تبرّر الوسيلة .. إحدى أشهر مقولات مكيافيللي في كتابه الأمير".

" فهنيئا لمكيافيلّلي بانتصاره، الغاية عندي برّرت الوسيلة، ولكنّ الوسيلة خانت الغاية فتبعثرت حياتي على أعتابها وتشابكت فصولها".

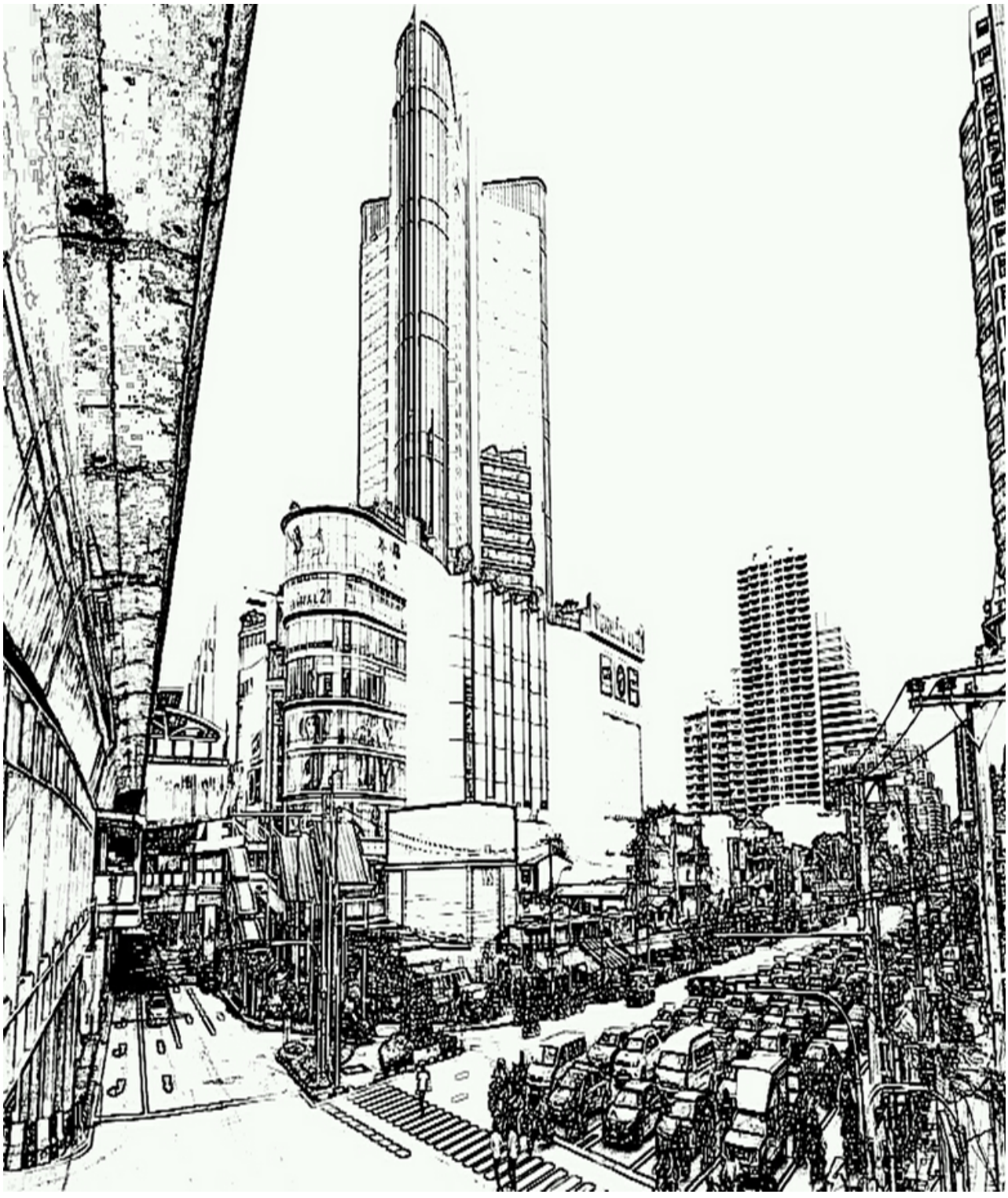

منطقة سوكومفيت في قلب العاصمة التايلاندية بانكوك

حاولت بريسانا البحث مجدّدا عن ذاتها وكنهها، وأرادت أن توقف الحصان الجامح داخلها، حاولت العودة إلى الدين، فالبشر عادة يستهويهم الدّين ويطربهم بعد الانغماس في الرّذيلة، الدّين يمثّل الغيب الّذي نلقي بأخطائنا عليه، فضاء لن يمتلئ ولن يتأفّف، يستوعبنا بارتياحٍ وتقبّلٍ متوهّم، قادَتها قدماها إلى معبد بوذا، ذلك الرّجل الّذي اختلف عن الأنبياء والرّسل جميعا، فكلّهم دعوا لعبادة ربٍّ واحد أو عبادة إله خاص بهم، بينما لم يدعو بوذا لعبادة أيّ إله، بل دعا لإتباع مبادئه وقيمه المتمثّلة في التغلّب على الشّهوات كالجنس وإلى نكران الذّات وتقديم الصّالحات، تحوّل بوذا بعد مماته من إنسان إلى إله، وانتشرت مبادئه ودينه انطلاقا من الشّجرة المقدّسة في النّيبال، تلك الشّجرة التي تفكَّر تحتها وحرّر ذاته من قيوده الدّنيا بدناءتها تحت مظلّة مبادئ إنسانيّة راقية وشاملة، لينتشر دينه بعد ذلك في مناطق شاسعة في الهند والصّين وتايلاند وغيرها، وأصبح يوم الخامس عشر من يوليو من كلّ عام بداية للسّنة المقدّسة، يعتكف خلالها الرّهبان في المعابد بعيدا عن ملذّات الدّنيا وزخارفها في محاولة مستميتة لتكسير جوانح النّفس الشّيطانيّة، ولا يخرجون منه إلاّ بعد الغروب لمدّة ثلاثة شهور، كان بوذا نبراسا يُتطلّع إليه لعلّه يُخلّص البشريّة من سجن النّفس ويحرّرها من زيغ القلب إذا تقلّب، وطيش النّفس إذا فسدت.

أبهرها خشوعُ الرّهبانِ في معابد بوذا بزيّهم البرتقاليّ وبرؤوسِهم الصّلعاء، بصمتهم الطّويل وتفكّرهم الدّائم، في نكرانهم لذواتهم وتغلبهم على شهواتهم، في انصرافهم عن

الدّنيا وملذّاتها، يستيقظون فجرا حاملين أوعيتهم سائرين حفاة كسلسلة ذهبيّة بحثا عن ضالّة جائعة، وعن بطن يئن ألماً، ابتسامةٌ تعلو محيّاهم تعكس قرّة عينٍ و رضا نفس.

توقّعتِ الخلاص وتمنّته بجوارهم، لتكسرَ الحديد الذي يلفّ نفسها وقلبها، فاستمرّ تناوبها على المعبد المقدّس بالقرب من الحيّ في ضاحية لوكسونغ بانغي، وقَدَّمَت القرابين والمنح لعلّها تشفع لها، وتعطّرت بالماء المبارك ليمنحها القوّة والإيمان، وعرضت على الرّهبان العمل معهم، متوسّلة راجية، حتّى صدُمت بردٍّ جاء أصفر باهتا، فلم يعرها أحدٌ نظرة عين، وكأنّها لا تنتمي إلى ذلك المكان، وكأنّها دون إنسان، هيكل بلا روح، جسد بلا هيئة.

تحدّث إليها مرّةً أحدُهم خلسة وبعيدا عن العيون:

-أنتَ في المكان الخطأ.

جاء ردّها مستنكرا: "ألستُ بشرا؟ ألا أنتمي لبوذا المقدّس؟ أليس إلها لكلّ العالمين؟"

تحدّثَ جازما، كمن يعلم ما بداخل القلب ويترقّب سماع إجابة بديهيّة:

-جزء من داخلك ينتمي لبوذا وبقاياك تحاربه وتعادي قيمه.

-كيف؟

-المقدّس بوذا يدعو إلى التغلب على الشّهوات، شهوات البطن والفرج والقلب وأنتَ كما ... ترى. كلّك يتغنّى بشهوة الجنس، تفوح رائحة الجنس منك، الجنسُ والشّهوةُ اتّخذا منك صورة إنسان، فأنت بشرٌ في هيئتك، شيطانٌ جنسيّ في حقيقتك.

تسبّبت تلك الكلمات غير المتوقّعة في حرقة متوهّجة في صدر بريسانا، ونطقت بغصّة كمن يريد الدّفاع عن موقفه، والإنسان يرفض بطبعه الخنوع والاستسلام وغالبا ما يدافع عن ذاته وإن كان مخطئا:

" الإنسان بقيمه ومبادئه، بعقله وروحه، لا بجسده وجنسه".

-نعم ولكنّك لستَ إنسانا!!

"لستُ إنساناً؟" ... مستنكرةً كمن صُبّ عليها ماءٌ مثلّج.

-خُلقنا ذكراً وأُنثى، فما أنتَ؟

-أنا كما تراني...أنا.

-هل أنت رجلٌ أو امرأة؟

-أظنّني امرأة.

-تظنّين، هل تستطيع الإنجاب؟

أشاحت بوجهها جانباً، وغالبتها قطرات دموعٍ حارّة....

تحدّثت إلى نفسها هروباً من الفضاء باتّجاه قاع الذّات:

"وهل لي أن أصرع ذاتي؟ الإله بوذا لا يكترث بجنس".

البشر بأعمالهم، والمعابد والدّيانات كلّها لا تشترط جنسك لقبول أعمالك، البشريّة لها دين واحد تتشابه فيه السّلوكيّات جميعا، السّرقة والخيانة محرّمة في كلّ الدّيانات، الصّدق والأمانة من الفضائل في كلّ دين، الدّيانات واحدة في قيمها وسلوكيّاتها ..ولكنّ العقائد والأصول تختلف ثم تنبثق عنها فروع تعطي كلّ دين نكهة مختلفة..."

ربت الكاهن على كتفها محاولا إيقاظها من سباتها وغفلتها:

" نعم، أنتَ متحوّل جنسيًّا، عُد إلى طبيعتك ، كما تعود الأمطار إلى البحار وتعود الكائنات الحيّة إلى التّراب وكن رجلاً، بلا إضافاتٍ ولا تموّجات".

ألقت بريسانا بنظرة على هيئته فاقتحمت كيانه ثم جال بها فكرها في فضاء أوسع لتعود تلامس فكرة الدّين مجدّدا.

" الدّينُ هو معرفة وطاعة الربّ حسب الطّريقة التي وضعها، وبالدّين يكون الإنسان مدينا لربّه فيتّبع شريعته عاملاً ومقيّداً بالمحمود ومبتعدا عن المذموم، سيقبلني بوذا في دينه عندما أُقدّم المنح والهدايا قربانا له...ولكن كيف لهذا الكاهن أن يرفض دخولي في عالمه ورحمته؟ هل يريد أن يكون راهبا مسيحيًّا آخر يهب الصكّ الإلهيّ لمن يقدّم القربان للكنيسة كما في العصور الوسطى؟"

دحرتها برغم ذلك سهامُ كلمات الرّاهب لأنّها أوجدت صدىً وجرحا في قلبها ورنينا في أذنها، وتكسّرت دموعها على وجنتيها، فرحلت منها إليها، وهربت خائفة إلى فضاء واسع ليس له قرار.

إنّها كلّما ذاكرت نفسها وجدتها أنثى بريشة صغيرة تخدشها، لا تنتمي أبدا لما يُسمّى بعالم الرّجال، ليس لديها قاسم مشترك معهم، لا تشبههم في شيء..

" إنّني أنثى بفطرتي، ولا أستطيع التشبّه بالرّجال، ولم أعرف لماذا لم يغوني إبليسُ ولم يعدني رجلاً، فهل يبحث عنٍ رحمة أخرى من خلالي؟! أيودّ أن يُوقف عمله ويعود ملاكاً فقط في محطّتي؟ هزّني الوصف المُشين الّذي ذكره ذلك الرّاهب الأصلع، مشبّهاً إيّايَ بالشّيطان وما أدراك ما الشّيطان".

قِيل في الدّيانات السّماويّة أنّ إبليس كان ملكا فعصى ربّه، وكان في الجنّة فأبلس منها أي طُرد منها عقاباً له، كان مفرداً فأصبح عددا هائلا ربّما استنسخ أو توالد، وذُكر أنه

يتخذ هيئة إنسان وحيوان وحتّى جماد ليُضلّ العباد، لا يتّخذ إلا شكل من هو قابل أن يلبس ثوب الرّذيلة، وقيل أيضاً أنّ إبليس هو الشّيطان بعينه، له هيئة من النّار التي تباهى بها يوماً على أبي البشر آدم المخلوق من تراب، وذُكر تكرارا أنّه يستقر هانئا بين جنبي الإنسان فيحثّه على المعصية ويحبّبها له ويقف حاجزا حديديًّا صلبا أمام كلّ طاعة وعمل خير.

إبليس هذا كائن غريبٌ حقّاً، له صورة واحدة وصُور شتّى، له جسمٌ محدّد ولكن لا يلتزم بالحدود ويتخطّاها، يُمسي في خارج المادّة حراً ويُصبح داخلها سجيناً، يجمع النّقائض فيه فلا يعرف كنهه، مبهم حدّ الحيرة فيوصف وبوصفه يزداد غموضاً، ارتكب خطيئة كبرى فعُفي عنه ليرتكب أخطاءَ أكبر وأكثر، بمساعدته يحمل الإنسان أوزاراً ويكدّسها ليوم الحساب، فيصبح الإنسان جانيا ومجنيّاً عليه، ثم يوضع الجاني والضحيّة في قفص واحدٍ للاتّهام، إن كان يوما ما تلاعب بآدم(ع) وهو أبو البشر كلّهم وهو نبيّ اللّه، ألا يمكنه أن يتلاعب بنا راقصا ضاحكا أيضا؟

عندما يُلدغ عقل الإنسان فإنّنا نقول إنّ به مسّا شيطانيّا، ونحاول علاجه بنزع ذلك الشّيطان من خلال فزّاعة الدّين، فيُضرب جسدُ المصاب ويكوى ووو..لعلّ إبليس يستجيب فيخرج منه ويجد له موطنا آخر، جسدا ثانيا يرتديه قميصا.

ردّدت بريسانا في تكرار يشبه التّسبيح:

" كم تمنيت أن أحظى برؤية إبليس هذا لأعرف إن كان يقف بجانب هذا الكاهن ويشاطره رأيه أم أنّه بجانبي لأنّني أؤدي رسالته الخالدة!".

كاهنٌ في أحد المعابد البوذية في العاصمة بانكوك

*****

غادرت بريسانا المعبد المقدّس مطرودة مُقسمة ألاّ تدمع عيناها مرّة أخرى وأن تتلألأ برّاقة في هكذا دنيا دنيئةٍ ووضيعة تحمل قيما عنصريّة، فأخذتها ظلمة المستقبل نحو أقرانها حيث يدرك الإنسان قيمته بين نظرائه.

أدركتْ بعد انقشاع الغبرة وهيبة المعبد عنها، أنّها قادرة على أن تُسخّرَ دنياها بيديها، وتصنع طريقها بالعزيمة والإصرار، أليس صدقُ الهمّة يبعد الغمّة؟

عادت إلى الفاترينات ومعارض الأجساد سعيا للمال عسى أن تكون قويّة وتحقّق ما عجز الدّين عن تحقيقه وجلس معاقا يستجديه، تحدّت نفسها في تسابقٍ مع أموال المعبد ورهبانه، فلمن تكون الغلبة؟ ومن سيكون عيشه أسعد وأرغد؟

استهوتها العروض الأسبوعيّة فحوّلتها إلى يوميّة، بخست ثمن بيع جسدها فرفعت الأسعار متعلّلة بالأزمة الماليّة التي تجتاح العالم وغلاء المعيشة، وكانت المفارقة مفزعة، فكلّما رفعت السّعر ورفضت الزّبائن متمنّعة كلّما جنت مالا أكثر وزاد الحصاد بجهد أقلّ، فنّ التمنع يثير الرّاغب، والترفّع يوقع اللّاعب، بلا شباك ولا طُعم.

للرّجل شهوة حيوانيّة جنسيّة غريبة تمسح من ذاكرته صفة الإنسانيّة، يعود بها حيوانا بهيميّا، إن نسي غريزته تلك مسحته من عالمها وتناسته، وإن حاول إشباعها أدخلته في دوّامتها.

تؤكّد بريسانا مرارا على زميلاتها: " لنا...بذكائنا وخبرتنا، أن نعرف متى نُشعل شرارة شهوة الرّجل، متى نُرخي له المصيدة ومتى نشدّها..ذلك ذكاء فطريّ"، أكّدت تكرارا على فنّ الكذب

في الحبّ وأن الحبّ ذاته كذب أبيض، حتّى جاءها تساؤلٌ من إحدى زميلاتها:
- إذا كان الرّجل والمرأة يحملان نفس الشّهوة الجنسيّة، وقيل أن شهوة المرأة أقوى وأشدّ، فلماذا لم نسمع قطّ عن رجال امتهنوا الدّعارة وتصبح النساءُ هنّ من يدفعن الأموال من أجل الحصولِ على الجنس؟
أخذت بريسانا تنظر إلى صديقتها في محاولة لامتصاص معنى السّؤال وقد رُسمت الدّهشة على وجهها.
" الرّجل أسرع للاستثارة الجنسيّة ولذلك فهو دائم البحث والتقصّي عن المرأة، أمّا المرأة فتبحث عن الحبّ أولا، فإن وجدته يكون للجنس حينها مذاق أشبه بالعسل على جسد حبيبها، كلما لعقته جانبا، ساح من جانب آخر، فتجري خلفه بلهفة شديدة."
-ولماذا تكتفي المرأة برجل واحد ولا يكتفي هو بنساء الدّنيا؟
وضعت يدها اليمنى تحت ثديها الأيسر وعضّت شفتها السّفلى كمن يلتهم (حلاوةً) وقالت بابتسامة خجلى: " الرّجل يفكّر بخصيتيه... و هو يمتلك عينين، إحداهما ضعيفة يرى بها حبيبته أو زوجته وأخرى حادّة كالصّقر يرى بها غيرها، ولذلك فإنّه يكثر من كلمة (أحبّك) بلا طائل ولا معنى، أمّا المرأة فتحبّ بقلبها، ولا تنطق الحبّ إلا إذا أحبّت فعلا... الحبّ إيمان المرأة".
استلقت على كرسيّها وقالت بعد تنهيدة ونفس عميق: "للرّجل إشباع واحد يتحقّق بالقذف مع أيّ امرأة ولكنّه يهيم بالتعدّد، وللمرأة إشباع مختلف، يبدأ بالعاطفة، ثم القذف في مراحل مختلفة، بالبظر والمهبل ... ولكنّها تبحث عن رجل

واحد فقط يوفّر لها ذلك الإشباع".

في شهور معدودات، سرقت بريسانا زبائنها برضاهم فكدّست كنوز قارون تكديساً، أرخت الحبال لنفسها تصطاد من يضيف إلى حسابها صفرا آخرا، فكونّت ما تطمح إليه، إلاّ أنّ للمال لذّة غير اللذّات الأخرى، فكلّما تضاعفت الأموال كلّما عزّت على الإنسان قيمتها وكبرت لديه، وكلّما وضعتْ رقما ابتغتِ الوصول إليه، كلّما ضاعفته رغبةً في المزيد.

أصبحت حبيسة المال والجنس، فهل طرحت معبد بوذا أرضا أم هزمها شرّ هزيمة؟ ...."لبوذا أتباع دائمون في الهند والصّين والنّيبال وكوريا وغيرها، ولي أتباع من خلفي، يروننني من مؤخّرتي ويدبرون لواجهتي، أتباعٌ من كلّ بقاع الدّنيا".

اختلفت أوطانهم ولغاتهم، دياناتهم وثقافاتهم ولكنْ جمعتهم الشّهوة الحيوانيّة الجامحة، تزوّجها شاب أستراليّ وعقد عليها آخر لبنانيّ ولاطفها ثريٌّ تايلندي حتّى طالت القائمة وتشعّبت ....

*****

في أحد شوارع القرية الصّينيّة (China town) في العاصمة التايلنديّة القديمة، يقبع شارع "ياورات" العتيق، وفيه توجد مناطق مزدحمة تغرق في ظلام دامس كلّما جنّ اللّيل، وعلى النّقيض، تتفرّع منه شوارع زاهية مخصّصة للمشي (walking street) تدب فيها الحياة ليلاً وتنزوي حياءً في غير ذلك، اعتادت بريسانا وصديقتها كونغ المرور هناك تلبية لنزعة التسوّق الفطريّة حيث تخفض الأسعار جناحها مقارنة بمنطقة سوكومفيت السياحيّة والتجاريّة، وحيث

تطرب روحهما كلّما غلا مؤشر الإعجاب، فالمرأة الجميلة يخدشها عدم وجود المعجبين.

في إحدى ليالي منتصف الأسبوع، كانت ضمن مجموعة من الأصدقاء غلب عليها طابع الجنس الثّالث، وبنقيض آلة القدر التي تخفيها، خطف قلبها شابٌّ لبنانيّ كان في زيارة عمل معتادة للعاصمة بانكوك، فهو يشتري بضاعته بالجملة من مصانع العاصمة وخاصة من القرية الصينيّة ويبيعها في بلاده في تجارة لن تبور حيث يمتلك خمسة محلاّت تجاريّة في بيروت.

شاب بوسامة ربّانيّة، ترتسم الابتسامة على محياه بصورة موناليزيّة، هادئ الطّباع والملامح، كان يؤثر الصّمت ويكثر من الهيبة، يحبّذ الاستسلام للموسيقى الهادئة، تطربه وتراقصه، وحين أوقع بصره عليها قرب مدخل أحد النوادي اللّيليّة لم يخاطبها مباشرة بل سار في ظلها في مطاردة استكشافيّة تظهر أسلوبا آخر لفنّ احتواء المرأة قبل الغدر بها والتهامها، تبعها إلى الدّاخل وعيناه تستدرجانها بمكر خالٍ من خبث الثّعالب.

انتصب واقفاً رابطاً كفّيه خلف ظهره، طلب شراباً أجبره عليه المكان، ثم بعث النّادل في مهمّة حمام زاجل لعلّ بريسانا تقبل دعوته، أثارها خجله المتكلّف وحمرة وجنتيه الطبيعيّة فقبلت دعوته بسعادة كبيرة إلاّ أنّه أخذها سريعا إلى نادٍ آخر هربا من حصار المكان، كانت فرِحة مع رجل مختلف، "ليس للخجل مكان هنا، فأيّ كوكب قذف به في شباكنا؟"

بعد غرق الهلال في ظلمة اللّيل وعتمته، غادرا متكاتفين مرقص "تيجنو ترانس"، وكانت خيبة أملها في مفارقة لم

تألفها، حيث لم يقبض على يدها كما في عرف عملائها، إنه فعلٌ يتباهى به الرجال بُعيد كلّ عملية صيد ناجحة، ولكن .. تسارعت خطاه أمامها وكأنّه يهرب من إثم وعار، لم تأبه له، فتقمّصت دوره وأخذت يده لعلّه يدرك بنفسه ما ينبغي أن يفعل، توقّفت سيّارة أجرة تعرض خدماتها، فهمّت بالرّكوب جوار السّائق إلاّ أنّها تداركت الموقف ثانية وتلته للجلوس بجواره في المقعد الخلفيّ فيما لازالت ابتسامته المثيرة تُزيّن وجه عبّاد الشّمس ولكنّ القلق والارتياب يعزف على ركبتيه شمالا ويمينا.

صعدا معاً إلى غرفته الخاصّة في أحد الفنادق الفارهة ومازال يتجمّل بصمته الغريب، وفي المصعد حيث لا عيون تراقبهما، أحسّ (معين) بخلوةٍ كان ينتظرها، وفي سرعةٍ البرق ضمها لصدره بقوّة والرّجفة بادية علي يديه وشفتيه، ورجفة اليد عند أول ملامسة لا تُمحى من ذاكرة المرأة أبدا لأنّها أول خطوة نحو السّرير .

آثر الوقوف فيما استلقت هي على الأريكة الحمراء في غرفته، وضع يديه في جيبه كمن يترقّب أمراً، وتحوّلت حينها ابتسامته إلى تقطيب غزا كل تقاسيم وجهه، أحسّت بدقات قلبه تتسارع وتتعاظم، كاد الدّم يتدفّق من وجهه البركانيّ، استخرج من جيبه على عجلٍ ورقة زرقاء... وطلب منها أن تردّد خلفه ما يقرأ باللّغة العربيّة:

"زوّجتك نفسي بمهرٍ قدره ألف باهت ....."

سألته بعدما انتهت من التّرديد الببغائيّ عن المعنى فقال إنّه صيغة شرعيّة للزواج لأنّه شاب متديّن لا يحبّ الحرام أبدا...

" زواج؟! أعتقد أنّ الزّواج عقد لا قيد له!!" ابتسمت ساخرة وأردفت:
" ثم أليس الزّواج طريق العميان؟ ولا أظنّك أعمى!"
ما إن أنهت جملتها حتّى حملها زهواً ووضعها على السّرير كما يوضع صندوق المجوهرات بعناية فائقة، وبكلمات خرساء استشعرتها بريسانا دون أن ينطقها، افترسها ملتهما، يرفع ساقا ويطيح بأخرى، يتأمل جميع الزّوايا والدّوائر، يمسك بخصرها ويشدّ شعرها، فتحوّلت إلى فرس أصيل يعاينها بشراهة نمر مُجهَد، يشمّ بطنها ويداعب شعرها ثم يصعد ظهرها ....
ظلّت بريسانا طويلا على هيئة الغزال الجريح وهو يعاين ويعيد اختبار كل جزء منها باستقلال، أخذ يلعق رحيقها ويعيده مرّة أخرى كأنّه نحلة تصفّي عسلها، يداعب خصلات شعرها ويعيد تصفيفه، يلامس بأظافره كل وادٍ وسهل في مشهد سينمائيّ بطيء يعاد كلّ حين.
أرهق بريسانا استحسانه إعادة التصوير لأنّه في كلّ مرة يداعب مركز وعصب إثارة آخر، تجلّت خبرة الإخراج واحترافيّته عند "معين" ، فطلبته راجية أن يقوم بتصوير المشهد الأخير إلاّ أنّه بدأ بمهاراته يضع المؤثّرات الصوتيّة والضوئيّة في كلّ إعادة حتّى تكفّلت بريسانا متوهّجة بلعب دور البطولة الفاعل، وتحوّل المخرج إلى مشاهد يستمتع بما صنعت يداه وخبرته، قمّة الكفاءة والخصوبة عند الرّجل عندما يُحوِلُ المرأة إلى لبؤةٍ سريريّة، تتحوّل متعته إلى زهوٍ وتعالٍ نرجسيّ يصبح فيه قذف (اللّافا) أمرا هامشيّاً.

كانت بريسانا تمعن النّظر إليه وهو جالس فوق كرسيّ الملك يلوك السّجائر ولا ينفثها، يسخر من جمرها ويبصق دخانها مغمضا عينيه، يقذف بالسّيجارة كلّما احترق نصفها، حاولتْ أن تستعطفه ليرفعها إليه فأشار إليها بحاجبيه أن تجلس جارية بين رجليه لتستعيد ذاتها وتجمع قواها.

وضع كمبيوتره الصغير بحنان أبويّ على فخذيه، ولملء الوقت، دعاها لمعاينة بعض الصّور المنتقاة بعناية على جهازه، أحسّت بريسانا بفزع يراوغها، صور رقميّة ناطقة وشاهدة بما تحويه من دمار وخراب فوق أرضٍ ثكلى، أرض تنوح بوجع من احتضنت بشرا فتقاتلوا بينهم وكان همّهم تمزيق تلك الأرض وبعثرة رمالها، المرأة تبكي فتسيل دموعها والأرض تحبس دموعها كبرياءً فيصبح ترابها ساخنا جافًّا.

لم تتعرف بريسانا على تلك الأرض المرويّة بالدّماء حدّ الحياة، والجثث متناثرة عليها كشواهد القبور، لم يكترث عزرائيل لزيّهم العسكري والمدني فعمل ليل نهار يقطف أرواحهم على عجل بصورة أسرع من حركة أجنحة النّحل، لم يفرّق بين الأطفال والنّساء والشّيوخ، صور نوويّة فعلاً تسرد حكايات دمار أصابت المنازل و البنى التحتيّة لمدن وقرى... فحوّلها إلى أمواجٍ من ركام.

بدأت عينا "معين" تذرفان قطرات ساخنة، وبدأ مسلسل الانهيار التدريجيّ لكرسيّ العظمة، إنّ انكسار الأنا يحوّل الإنسان إلى صنم من جليد يتهاوى تلقائيا، ترك حبيبته الآنية استجابة لانهزامه الدّاخليّ متعلّلا بقضاء حاجته ومداراة لوهنه ودموعه.

تيقّنت بريسانا أنّها صور حيّة لم تجفّ دماؤها بعد، ومازال عويلها هديرا، صور لشعبه ووطنه، لحضارة أريد طمسُ معالمها قسرا، ولوطن تلذّذ المعتدون بفنون اغتصابه.

انتصب واقفا كصنم جاهليّ فقد القدرة على العطاء، يُمَنُّ عليه سخاءً ويُتوهّم جبروتُه، ثم كسر سطوة الصّمت بافتراشه قطعة سجاد على الأرض:

" أريد أن أصلّي الفجر أداءً"

سحبتِ الفتاة جسدها المُبعثر لترمي به فوق الكرسيّ الخشبيّ البنيّ بجانب الأريكة تُلملم أناها.. "تصلّي لمن؟"

" الصّلاة هي صلتي بربّي، إن انقطعت ضاع معها الدّعاء والرّجاء".

تحرّك صامتا يفترش الأرض بقطعة سجاد، قائما قاعدا بخشوع منقطع، انتظرته الفتاة تحملق من خلاله لكُنهِ الإنسان وصيرورته، ذلك الكائن المنعوت بالآدمي، سُمّي إنسانا لأنه يأنس الآخرين حتّى من غير جنسه، ولكنّه مجبول على حبّ الذّات، فتتحوّل إنسانيّته السّامية إلى حيوانيّة همجيّة مقيتة، تتجاسر لديه الذّات وتتعاظم فتخرج عن نطاق السّيطرة، يصبح ما دونٍ أناه عدوّاً إن تقاطعت المصالح، يتعملق ذلك الإنسان فكراً وعلماً لا ليرتقي بل لِيمحو الطّرف الآخر، يولد من ذلك العلمِ طوفانٌ من دمار في مقابل ارتقاء الأنا العظمى، كلُ طاغية هو طفل بالغ لم تُكبح الأنا لديه صباحا فتتوهّج إجراما مساءَ عُمره.

جمعتْ قواها وأعادت شعاع أفكارها متسائلة:

- هل أنت متزوّج؟

أعاد السجادة داخل حقيبته.." نعم "

-أتحبّها وتحبّك؟
اسودّت عيناه بحدّة عين الصّقر وأشاح عنها قائلا:"لا أعرف"
قرأت الفتاة ما وراء الكلمات وبين السّطور..
- لماذا تخونها إن كنت تحبّها؟
- لعوبٌ تحتويك خيرٌ من زوجةٍ تصدّك.
- كيف؟
- الرّجل يا حبيبتي دائما ما يبحث عمّا يُكملُ نقص شريكته في الأخريات.
- ماذا؟ أهي من نفس بلدك؟
وقف ينظر بعيدا من خلال النّافذة..
-نعم...اللبنانيّة كغيرها من نساء الشّرق، تختلف شكلاً أحياناً ولكنّها تحتفظ بنفس القيم.
- وهل تختلف نساؤكم عن نسائنا؟ ..
- ربما....
ارتمى على السّرير متكأً على مقدّمته ينظر للفتاة بعينه ويشخص ببصره بعيدا..
" المرأة الشرقيّة تكره الرّجل المتسلّط ولكنّها تتمناه شريكا لحياتها، وكلما زادت قوتها تمنته أن يكون جبّارا، بطبعها تحاول الفكاك وبفطرتها تعشق البقاء في سجن من صنع يديه، الشرقيّة ليست كباقي نساء العالم، قد تجاهد للتخلّص من زوجها وتحلق خارج السرب ولكنها تحترمه وتُجلّه إذا كسّر جناحيها بعنف وقلّم أظافرها بلا هوادة، سِرٌ ما يقبع داخل قرارها، لا تريد أن تبوح به وتريده أن يغوص في أعماقها ليستخرج بنفسه لؤلؤها المكنون، هي هي تلك الأنثى الشرقية، تقاوم وتمانع حتى في ممارسة الجنس، ولكنّها تُغرم

بالرّجل الذي يفضّ بكارتها كلّ مرة وتحلم بمن يتقن ممارسة الجنس معها دائما كأوّل مرّة.

إنّها مخلوقٌ هلاميّ غريب فعلاً، كلّما لامسته من جهة تمايل من الأخرى، تتسرّب من بين أصابعك وتستمتع ببقائك جنديًّا منكسرا مهزوما يحاول النّهوض، ولن يُرضي غرورها غيرُ اقتحام حصنها ومخادعة كلّ حرّاسها، شرط أن تصل إلى غرفة الملكة المزعومة وتقتحم سورها، تكمم فمها وهي تستجدي، وتثبّت حركتها وهي تتلوّى كالثّعبان، ثعبان يحاول الانقضاض عليك، فإن تمكّنت منك بصقتك، وإن تمكّنتَ منها وضعتك تاجا على رأسها ما بقيت...

لها في كلّ جزءٍ من جسدها قصّة مستقلة وأبطال مختلفون، شخصيّات متنوّعة حقّاً، المرأة السّليطة في لسانها قد تعجز عن الحوار ولكنّها لا تقف عن الكلام، تكره الصّمت مجبرة وتحبّه اختيارا، وإن خسرت معركة اللّسان فإنّ يدها رمح حادّ في خاصرة الرّجل، تتخيّلها لبؤة شرسة، وفي أعماقها مرآة كاذبة تعكس نفساً تُخدش بيسر كبير ويصعب أن يُمحى ذلك الخدش مرّة أخرى، أمّا المرأة الدّامعة، ليّنة الجانب، هامسة الكلمة، فهي ذئب يهبك الليّان فتستعذبه، ويغرس فيك نابه ولا تتجنّبه.

تلك هي الشرقيّة، كائن التّناقضات، لا يجدر بها إلاّ كفؤ لها، فهل تستعيذ بالله من الشّيطان أم منّها؟!"

انتهى من هذيانه دون أن تستقر كلماته في فؤادها.. فاستدركت بسؤال آخر عن الكلمات الّتي ردّدتها خلفه للتوّ.

ـ" تلك صيغة شرعيّة للزّواج الإسلاميّ."

نثرت الدّهشة ألوانها على وجه بريسانا..فأردفت قائلة:

ـ"هل أصبحنا زوجين بعد تلك الكلمات؟ ولماذا نعقد قرانا إن كنّا نستطيع ممارسة الحبّ بلا حدود؟"
ـ "باختصار، لا أحبّ الحرام."

الخطّ الفاصل بين الحرام والحلال خط من زبَد، يكون عاليا مع ارتفاع مدّ الموج الاجتماعيّ ويبدأ بالاضمحلال كلّما اتّجهنا ناحية الشاطئ، فيمكن للإنسان أن يختار منطقة للإبحار في الحياة ويلفّ نفسه بذلك القيد، إمّا أن يكون قيدا شديدا عاليا أو ضحلا بلا تأثير.

الزّواج هو عقد توثيقيّ للرّباط المقدّس تُحفظ به الحقوق والواجبات، وهو ليس قيداً فولاذياً، وعندما تكون صيغته لفظيّة بدون إدراك ذلك الرّباط فإنّه جريمة مركّبة ومعقّدة، في حقّ الدّين والإنسانيّة.

أثارت بريسانا تلك الخروقات الباطلة والأقنعة المزيّفة....

- وهل يسمح لك دينكم أن تتزوّج ليدي بوي ثم تطلّقه؟
- بهذا العقد نحقّق أقلّ الضّرر والإثم.

ردّة فعل الطّرف الآخر هي سلاح فعّال في العلاقات الاجتماعيّة، بها يمكن أن تفرمل علاقة ما وبها يمكن أن تعيش رواية من إبداعك... تمادت بريسانا في استنطاق "معين" واستجوابه بسؤال صغير يختزل صراعات فكريّة وطائفيّة شتّى..

-وهل للزّواج أنواع مختلفة لديكم؟

لم يجد الشابّ ضرورة للإجابة على استفساراتها لكنّه أثار غبارا داخليًّا ظلّ ساكنا أمدا طويلا... ابتسم مهمهماً مع نفسه..

- هناك الزّواج الدّائم والمنقطع، زواج المسيار والمسفار، العرفيّ والمدنيّ وغيره، وستسألينني بعدها: بأيٍّ منها تزوّجتك ؟.. وما الفرق بين كلّ تلك الضّروب؟.. ما أعرفه أنّ الزّواج الدّائم هو الأكثر شيوعا، وهو الزّواج الّذي لا تكاد تختلف حوله الفرق والمذاهب الإسلاميّة، بعقد وشهود ومهر وإشهار.... أمّا الزّواج المؤقّت والمعروف بزواج المتعة فإنّه منقطع، يحدّد فيه وقت انتهاء الزّواج كما بدايته..والثّالث؟ الزّواج العرفي، يشبه كثيراً الزّواج الدّائم ولكنّه غير موثّق رسمياً ولا يشترط الإشهار لأكثر من الشّاهدين.... آهٍ منك !! أدخلتني في متاهات كثيرة... وهناك نوع آخر سمّي بالزّواج المدنيّ، نحن - المسلمين - نحرّم زواج المسلمة بغير المسلم بينما نجيز للمسلم أن يتزوّج بالكتابيّة غير المسلمة!

ربتت على كتفه الأيمن بحنانٍ مقصود أعادته إلى عالمه، أومأ لها برأسه وعاد مسترسلا في أفكاره..كأنّما يخاطب نفسه..

" لماذا، هل نساؤنا أفضل نساء الكون؟ يقال حتّى لا تغيّر المرأة دينها بعد الزّواج، إذن، أليس للمسلمة عقل مثل المسلم، تتديّن بقناعة ومعرفة؟ وهل عاطفتها تتدخّل في قراراتها فعلا؟ ندّعي مساواة المرأة بالرّجل ولكنّنا نمارس التمييز ضمنيّا ونشعرها بالدّونيّة، يحقّ لرجالنا الزّواج مطلقا ونقيّده للمرأة، أليس ذلك تمييزاً آخر؟"

وضعتْ وجهها أمامه وضعا وهزّت كتفيه..

-بأيّ العقود تزوّجتني؟ وبأيّ شريعة؟

استرسل في حديثه الأبكم ولكن ، من حيث لا يشعر، أصبح بكلمات منطوقة..

" ليس المجال لنقاش أطول هنا...أمّا النّوع الآخر للزّواج فهو المسيار.. زواج يشترط الزّوج فيه على الزّوجة توفير السّكن وعليه بذل المجهود بسخاء قبل المغادرة شرط أن توفّر هي السّرير".

تبسّمت بإيماءة أوحت له بمواصلة الحديث:

" ثمّ زواج المسفار حيث يتّخذ المسافر له خليلة أو زوجة أثناء سفره، يطلّقها بمجرد عودته إلى بلاده".

- جميل، وذلك الذي عقدت عليّ به، أليس كذلك؟

- لا أعرف، أنت ردّدتِ الصّيغة الشّرعيّة ولكنّي لا أتذكّر بأيّ نوع تزوّجتك، هو زواج والحمد لله، فليختاروا له مسمىً جديداً".

- وهل تواظب على صلاتك؟

- نعم، إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر...

الحوار الملفّق مصطلح يعزف على أوتاره الكاذبون، فينتج لحنا يسمعه الجميع ولا يعي مضمونه أحد، إن لم تكن لك القدرة على التغيير فلا خير في حوار مع الذّات ولا مع الآخر.

انتهى حوار الطّرشان مع "معين" ذلك الشابّ اللّبنانيّ الوسيم دون أن يعين نفسه على أن يضع رجلا تخرجه من مأزقه مع الدّين كإطار أيديولوجيّ للحياة، وكسلوك اجتماعيّ يسمو بالإنسان روحا نحو الكمال، ازداد فكره ظلمة وقتامة ساعة تفكَّرَ فيها وحاول التبصّر.

الإنسان الجاهل يعيش أكثر سعادة من العارف، فالجهل بالشّيء يزيح عن كاهلك عبء المساءلة وتأنيب الضّمير، أما العارف فإمّا أن يكون مثقّفا يعكس سلوكُه فكرَهَ ومعرفتَه، أو أن يكون جهله مزدوجا لأنه يعرف ويصرّ على ألّا يعمل بما

يعرف، وفي موازاة ذلك، يأتي المتغابي وهو ذو ذكاءٍ مركّب، يعيش سعادة الجاهل حينا ومتعة المعرفة حيناً آخر.

كان معين يعرف جزءً من الشّرع وبتفكره ذلك أمسى حانقاً على الشّرائع المتعاكسة بفضل التدخّل والفهم الناقص للإنسان الذي يبحث في زلّات الآخرين ليثبت مصداقيّته في تفكير حاد ذي علاقة سلطويّة فوقيّة.. إمّا أن تكون معي أو ضدّي.. أصبح بعدها كمن اصطدم بجدار فصار رجلا.

أحسّت بريسانا بما آلَ إليه صاحبها.. " أيّ زواجٍ هذا الّذي يتحدّثون عنه؟ ولماذا كلّ هذه الأنواع من الزّيجات؟ وأيُّ صلاة تلك التي تحرِّم الفحشاء وتجرّم الحرام ولكنّه يواظب عليها بموازاة أفعاله؟ لماذا كلّ تلك التّناقضات وكأنّه ليس ديناً واحداً، كلّ حزب يُؤطّر ويُشرّع وكأنّهم في حرب مستعرة من أجل تفنيد الآخر وتجريمه، كأنّه يقول إنّني الصّواب وغيري الخطأُ لا محالة!!".

بعد حواره العاقر والعقيم ذلك، أخذ الشاب فَتَاته نحو الباب وأعطاها "التّسعيرة المهر" المتفّق عليها سلفاً، وعدها بالاتصال صباح اليوم التّالي في بروتوكول عفوي عندما ينوي أحدهم الفرار من فخٍّ مفاجئ.

غادرت بريسانا على إثره دون أن تعي شيئا سوى أنّها تمنّت البقاء معه طويلا لتشاركه آلام نفسه ووطنه ودينه، وربّما لتختبر ذكاءها في فهم أفكار وثقافة الآخر، واستيعاب تشريعاتٍ ربّما تكون وضعيّة ـ لم يستطع حتّى بنو دينه تبنّيها كلّها ـ إلاّ أنّها لم تر ابتسامته التي تقصّتها في وجوه المارّة كثيرا ولو خلسةً.

*****

بعد يومين من ذلك اللّقاء العابر الثّائر، حطّت بريسانا بأجنحتها الجنسيّة على أوكارها اللّيليّة طلبا لرزق سيّان كان إلهيًّا أو شيطانيًّا، تريد عصارة عمل جسدها مالاً، جلست في إحدى الحانات التي تفتح فرجها الأحمر للمارّة، ويصمّ صخبُ موسيقاها الأسماعِ، مصيدة جهنميّة من نوع آخر، فخّ التلاعب بالحواسّ الخمس يكون عادة أجدى، الضّوء الأحمر المركّز يحوّل الرّجل إلثور أسبانيّ، والموسيقى الصّاخبة الإيقاعيّة تجعله "هُبَلاً" أصمّ.

في أحد تلك الشّوارع المتحوّلة جنسيًّا من تجاريّة صباحا إلى بغاء ليلاً، تختفي فيه سيّارات الأجرة و"التّك تك" والدرّاجات الهوائيّة مساءً لتكون مخصّصة للرّاجلين فقط، دخل "جوناثان" ورفاقه تلك الحانة، واقتحم حدود الفتاة بلا مقدِّمات، شاب ببياضٍ محمرّ، طويلِ القامة، ذو شعر بنيّ خفيف وعينين زرقاوين، مرتديًا "شورتاً" أزرق وقميصا أبيض فضفاضاَ، اجترّ كلماته الفظّة فتحوّلت إلى وقاحة، حيث الوقاحة تجاسر على الذّوق العام وهدم للقيم والأعراف دون اعتبار للآخرين، هي محاولة يائسة لإبراز سطوة الذّات على الحاضرين، محاولة لا مسئولة تخفي تحتها كائنا أحمق، يريد أن يسمو بنفسه فيحوّلها برازاً.

تحدّث جوناثان لبريسانا كالغزاة الفاتحين:

-مرحبا.

بنظرة مُهمِّشة وكلمة مقتضبة:

-أهلا بك.

-ما اسمكِ أيتها العاهرة وهل لديكِ صديق؟

إهانة المرأة تعطيها الحقّ في النّباح، وتحقيرها يتيح لها أن تصبح مصارعة، كظمت غيظها .. وبترو قالت:
-لا، ولا أُجهد نفسي بحثاً، الكائنات الضالّة تبحث عن مأوى.. والعفن يتجمّل بعطر الآخرين.

قيل مرارا أن من يدمّر قواعد المجتمع فإنّ المجتمع سيحطّمه .. بسبب وطأة الردّ القاسي، تريّث الفتى سريعاً متراجعا، وتحت وقع الممانعة وسحر الكلمة، تحوّل طلبه إلى نوع من الرّجاء..
-أتمانعين أن ترافقيني خلال جولتي في العاصمة؟
-لا أعرف.
-سأدفع لكِ ألفي باهت في اليوم.
-أنا لست عاهرة ولا خادمة حتّى تدفع لي بهذه الطريقة.
-ثلاثة آلاف.. طيب.. هل تقبلين بي صديقا حيثما رحلت في دياركم؟
-وماذا أيضا؟
-لاشيء.
-أوافق فقط حين لا تكون هناك شروط..هيَّا.

استاءت بريسانا بأن توصف بـ "العاهرة"، فهي في قرارها مجنيّ عليها أُسريًّا واجتماعيًّا، تمارس عملها الشّريف بما وُهبت من قدرات وإمكانات، حتّى وإن استطاع كلّ مقتدر أن يتحسّس سائل ما بين فخذيها بأصبعيه، إنها لا تسرقهم كباقي اللّصوص، كأولئك الّذين يسرقون الشّعوب تحت مظلّة الحكم، ويرفضون أن يوصموا بالسّرقة على الرّغم من أنّهم ينهبون الناس في وضح النّهار باعتبار أنّهم خدّام لتلك

الشّعوب؟ كلٌّ منهم يمارس عمله بما وُهب من قدرات خارقة.

استأذن "جوناثان" من صاحب الحانة و "ربّ العمل" وسلّمه بعض النّقود وعاد سريعا، لفّ يده اليمنى على الخصر النّحيف بخيلاء المنتصرين وكأنّ خصر المرأة هو الكلمة السريّة للعبور لجسدها، تباهى أمام رفاقه بآخر غنائمه، اشترى قنينة "براندي" من أحد المحلاّت المجاورة وبدأ نهما باحتسائها مباشرة دون أن يسألها إن كانت تودّ أن تشرب أيضا أو تشاركه، تمادى في رفع صوته عاليا وكأن لا أحد على الأرض سواه حتّى بدأ الخمر يفقده صوابه.

إنّه الخمر ذلك المشروب الروحيّ الذي يمسّ عقل الإنسان فيذهب عنه ميزته، سائل ليس كغيره من السّوائل، إنّه كالبرق يتسلّل من خلال الجهاز العصبيّ ليوقد شرارته في المخّ مباشرة، يحرقه كقرصٍ صلب فيمسح منه الذّاكرة المؤقّتة، يُصاب الإنسانُ بعدها بحالة من الهذيان قد تخرجه عن نطاق السّيطرةٍ على ذاته، ينفصل بعدها عن الواقع ليعيش عالماً مثالياً كان يتمنّى أن يصل إليه مسبقاً، نفث الشّراب سرّه الرّوحيّ في جوناثان فحوّله إلى كائن آخر.

استذكرت بريسانا تلك التّجاذبات الفكريّة إبّان سنوات الدّراسة وما جاء في معابد بوذا ... سُمِّي الخمر بالمشروب الرّوحيّ لأنّه السّائل الوحيد الّذي يتجاوز الخطوط الحمراء في الجسد ليلامس الرّوح ويفكّ ارتباطها بالجسد، حلّق الشاب معه بعيداً عن أرض الواقع وسرَحَ مطمئنًّا في ربيع الكمال ولسان حاله يصف الخمر ومدمنيه:

من يجرّب الخمر مرّةً في حياته يبقى يتوق له دائما، قد يمنعه وازع دينيّ، اجتماعيّ أو جسديّ كالمرض، إلاّ أنّ الشّوق له حالة تصيب الرّوح ذاتها لا الجسد، من يفقد السّيطرة على رغبته تلك يمسي متّصلاً بها ويتحوّل مع الوقت إلى مدمن عليها.

والإدمان حالةٌ لا شعوريّة أخرى، يمسي المدمن من خلالها طيّعا تسيّره الرّغبة في الوصول إلى حالة السُّكر، وعادة ما تنشأ علاقة عاطفيّة بين المدمن والمشروب وحتى القنّينة الزّجاجيّة نفسها، قد يحاورها كعشيقة، ويُسائلها أن تمدّ له يدها، تأخذه إلى عالمها سريعا دون جهد الوصول للسّكرة عينها، ودون إسراف وقتٍ يسرقه من مجتمعه، وبدون تبذير مالٍ قد يكون في أمسّ الحاجة إليه.

يتحوّل الإدمان من مرض عقليّ نفسيّ إلى مرض جسديّ لا تستطيع أعضاء الجسم أن تقاومه، فلكلّ عضوٍ فينا قدرة طبيعيّة على المقاومة إلاّ أنّ التشبّع والطمر يسحق تلك الخاصيّة فيبدأ خريف تلك الأعضاء سريعا وقبل الأوان.

الخمر وُجد منذ القدم فعلاً، لم ينقطع في حقبة أو عصرٍ ما، تعايش مع الإنسان كجزءٍ من حضارته، اختلفت الدّيانات السّماويّة في مشروعيّته إلاّ أنّها اتّفقت على وجوده وتأثيره.

في الدّيانة اليهوديّة مثلا، لا يوجد تحريم صريح للخمر بل إنّ اليهود يتباهون بشربه في عيد الفصح، وما مُنع إلاّ في حالات خاصّة كالنّذر والصّيام أو عند الكهنة الذين وهبوا أنفسهم لربّهم ولسواهم. وفي المسيحيّة، فإنّ الإنجيل يذكر أنّ عيسى بن مريم شرب الخمر بل حوّل الماء خمراً وطلب من تلاميذه أن يشربوه باعتباره دمه المُهدَر، ومن هنا جاء ما

يعرف بالقدّاس الإلهيّ، أمّا الإسلام فإنه حرّمه على ثلاث مراحل، بدأه بذكر أنّ له مضارّ ومنافع، ثم حرّمه خلال أداء الصّلاة، حتّى جاء التّحريم المطلق لاحقا، ولكنّ الأمر الغريب أنّ القرآن الكريم يؤكّد وجود الخمر في الجنّة بينما يُعاقب شاربُه في الدّنيا بثمانين جلدةً، يخالها البعض دعوة مبطّنة لاحتسائه وتجربته!!

الخمر مشروب لم تتّفق حوله الإنسانيّة، قليله يُجنِّب الكثير من الأمراض كالنّوبة القلبيّة والسكّريّ والزّهايمر وغيرها، وكثيره يزيد ضغط الدّم وقد ينفجر معه شريان في المخّ يسبّب الشلل والموت، لابدّ أنّ للخمر حكاية وألف حكاية.

استطاعت بريسانا أن تسرق اسم الفندق من هذيان المخمور جوناثان لتخبر سائق سيّارة الأجرة:

" ساوايدي هوتيل في سوي 8 بسوكومفيت".

ألقى بجثتّه الضّخمة بجانبها على المقعد الخلفيّ، ووضع رأسه ويده على المقعد الأماميّ في محاولة البحث المستميت عن الاتّزان، ما إن أوقف السائق محرّك سيّارته أمام الفندق البنفسجيّ حتّى فتح جوناثان الباب بنفسه وألقى ما في جوفه على الرّصيف في مشهد لا يفضّله ولا يتغنّى به غير الذّباب والفئران، استعاد بعدها جزءا من حيويّته ونشاطه واختفت أنكر الأصوات التّي كان يتحف المارّة بها.

أخرجت بريسانا مائة باهت أجرة للتّاكسي في ظرف طارئ تستعيض به عن دور الرّجل المخمور حدّ الثّمالة، ولعبت دور العكّاز لتحمّل بهيميّة صاحبها، وما هي إلاّ لحظات حتّى بدأ مطربا بصوت يدوّي آذان النّزلاء:

" آي لاف يو بيبي، آي لاف يو بيبي"

تحت وقع ذلك الإيقاع الجديد، أخذ فتاته إلى فراشه، وبدأ يستعيد أنفاسه وذاكرته، مكرّرا تلك الكلمات مع كلّ حركة وكلّ هيئة، برك عليها كالقطط في موسم التّزاوج، لا همّ ينشده إلّا أن يقضي وطره دون أن يعبأ بصاحبته، خرّ كعادة الرّجال صريعا على وجهه في أنانيّة بغيضة، فآثرت عندها بريسانا النّوم بعيدا عنه على الأريكة الجانبيّة عوضا عن الاستلقاء بجانبه لتشتري سلامتها وتضمن أمنها، وغطّت في منام طفوليّ دون أحلام تقضّ مضجعها، حتى أرعبها صباحا ضجيج شخيره الّذي يتحدّى السّكون، وعرقه الّذي ينشر رائحة البول العفنة، كادت على إثرها أن تُصاب بالإغماء فابتعدت إلى أقصى الشّرفة تحتسي قهوتها وتراقب البشر في حركتهم (النمليّة).

أيقظته قبل الظّهر بوضعه مستلقيا على ظهره والعبث بخصلات شعره القصيرة على جبينه بحركة تتقنها النّساء إن كنّ يطمحن في طلب ما أو يخفين مصيبة بانت في الأفق، جلس فاتحا ذراعيه كمن أُنقذ من الغرق، وضع رأسه على الجدار وطلب "شرابا" آخر ليهدّئه ويبعد الصّداع عن رأسه!! فالشّراب داؤه ودواؤه.

نهمٌ غريب بالشّراب، يحتسيه مع كل وجبة تسهيلا للهضم، وبين الوجبات استرخاءً، لا يستعيض به ماءً إلّا إذا تمكّن منه وصرعه، لا يلبث أن يستعيد أنفاسه حتّى يطلب قنّينة أخرى.

برجاء أقرب إلى الذلّ، طلب منها البقاء بمعيّته ثلاث ليالٍ حتّى يحين موعد سفره والفكاك منه، لم يتحدّثا في أمور الدّنيا خلالها إلّا لمماً، لم تجد معه أمرا مشتركا يمسكا بتلابيبه للحوار، الإنسان عقل تأنَسُ فكره فتستلطف هيئته وجسده، وإن فقد ذلك العقل لم يبق منه إلاّ صورة تنفر منها وإن كانت مطلقة الجمال، لم يكن حظّ جوناثان من الدّنيا غير ملء بطنه وإطفاء نار فرجه.

تعمّدت بريسانا أن تلاغيه مجدّدا فلعلّها أساءت الظنّ به، فالمرء يختبئ تحت لسانه، تراه عملاقا فإن تحدّث تساقطت أوراقه تباعا حتّى يتعرّى رويداً رويداً، فيكره النّاسُ النّظرَ إليه.. سألته:

-هل لديك أبناء؟

-نعم، ابن واحد في الخامسة.

-الخامسة؟ ومتى تزوّجت؟

-لم أتزوّج بعد..

-هل تنجب ثم تتزوّج؟

-لم ولن أتزوّج تلك المرأة.

-لماذا؟

-توقّف سيل المشاعر بيننا منذ عامين، ولكن.. من حقارة القدر أن تبقى حاجتك عند امرأة.

-ومن سيربي ذلك الطّفل.

-أمّه، أنا أو الشّارع.

أجزل جوناثان العطاء لها بسخاء ساذج، وهو ما أبقاها صديقة ملازمة لفراشه، وهبها خمس مائة باهت عن كلّ "سرير" أغرقه بمائه أو لم يغرقه، أيّ ما يقرب الألفين يوميًّا،

كان طائيًّا جدًّا معها، مؤكّداً رضاه وسعادته بصداقتها، وهو ما أصّل لروح التملّك الكامنة غريزيًّا لدى الإنسان، أغرقها خلال تلك المدّة مالاً وأظهر حبّاً كبيراً لم تستشعره بريسانا، الرّجل يتجمّل متلاعبا بكلمة "حبّ" ومفرداتها كذبا وبلا معايشة، والمرأة لا تنطقها إلا صادقة، الحبّ عند الرّجل قارب يحاول به الإبحار إلى قلب المرأة، والحبّ عندها شاطئ ترسو فيه.

في اليوم الرّابع، طلب منها أن تمنّ عليه بمرافقته للمطار لعلّها تكون آخر الذّكرى بعد سنين وتثير فيه الحنين فيعود لمرساها، بدأ سيل مفردات الحبّ.. فوضعت يدها على فمه ليكفّ عن الاسترسال:

" سأرافقك شرط ألاّ تشرب حتّى ركوب الطائرة".

رفع سبابّته اليمنى: " قنينة واحدة فقط"، نهرته متوعّدة بعدم مرافقته...فخنع لها بعد ترغيب وترهيب طفوليّ ...

بعد أكثر من ساعة، غادرا دهاليز العاصمة التايلنديّة في خط سيرٍ يشبه "لعبة الثّعبان"، تخطّيا خلالها سحاب الدخان وضوضاء المدينة مترامية الأطراف.

وصلا إلى مبنى المطار الدوليّ العملاق على أطراف المدينة، وأدخل حقائبه عبر البوّابة 12 في الدّور الثالث، ثمّ وقف أمام صديقته يعاينها كبضاعة مستهلكة، بانت على وجهه سعادة من أنهى مهمّته بنجاح وبلّغ رسالته كاملة، رسم على شفتيها قبلة حادّة وكاد يلعق لسانها للمرّة الأخيرة حتى موعد يوم الحساب:

" سأتّصل بك قبل إقلاع الطّائرة، سأراكِ قريبا في السّماء كلّ مساء"، عبثت بها الكلمات الغامضة فأخرستها ولكنّها

تداركت العبارة الشائعة: "وداعا".

عادت بريسانا أدراجها باتّجاه منزل صديقتها كونغ فأخذتها ناحية منزل العائلة الصّغير في منطقة (bangna) بضاحية (samutprakarn) بعيدا عن قلب العاصمة حيث السّكينة تطلّ بوجهها والأزّقة كحِجر أمٍّ يترقّب أبناءه، وما لبثت أن تلقّت اتّصالا من جوناثان حيث عبّر فيه عن امتنانه وشكره الكبيرين عرفاناً بالسّعادة التي لقيها بجوارها واعدا بألّا يكون ذلك هو الاتّصال الأخير.

وفيما ذهبت كونغ إلى الحمّام، وضعت بريسانا رأسها في حجر أمّها، وأغمضت عينيها وأرخت رجليها كأنّما وُلدت للتوّ، مسحت الأمّ رأس ابنتها وأدركت بروحها أنّ خلف الجفنين عالما ناريًّا لم تألفه من قبل قط. بدا فضول الأمّ وقلقها بارزا من خلال حشرجة صوتها ومن دمعها المحبوس، وتوالى مسلسل التّحقيق الفطريّ، أسئلة لا تكاد تنتهي حتّى تبدأ مجدّدا، حاولت بريسانا عبثا الهروب من عينيّ أمّها وأسئلتها فلم تستطع، أطبقت على عينيها هروبا، ثم أخبرتها بضرورة استحمامها والعودة بعد دقائق لسرد فصول قصّة وظيفتها الجديدة، وضعت هاتفها في يد كونغ وقالت:

"سأعود بعد عشر دقائق لنسرد عليك أسرار المهنة الجديدة".

بينما بريسانا في الحمام، وصلت رسالة نصية لجهازها، لم تجد كونغ حرجا ولا ضَيراً في قراءتها: " بريسانا، أنا مصاب بمرض الإيدز منذ ستة أشهر، جوناثان".

*****

أصاب كونغ الذّهول ولكنّها أطاحت عن كاهلها الحِمل بأن وضعت التّلفون (الموبايل) في حقيبة بريسانا الّتي عادَت

مرحة فرحة وجلست بالقرب من أمّها:
"نحن نعمل في صالون تجميل نسائيّ، أغلب الزّبائن من السّياح الأجانب، يدفعون ويرحلون، تكون علاقاتنا بهم عابرة نخزنها في الذّاكرة وتُمحى مع تقادم الزّمن، السياح الأجانب يدفعون مبالغ طائلة، الابتسامة والكلمة الطيّبة تزيد من رصيدنا الماديّ...".

لم تكترث الأمّ لما قالته ابنتها، كانت بترقّب تتابع عينيها ويديها اللّاتي لم تعرفن السّكينة، أيقنت الأمّ أن في الأمر سرّاً تُبطنه ... ولكنّ السعادة المزيفة نتعمد تصديقها حتى لا نفسد الأمور، لذّة الكذب خير من مرارة الحقيقة أحيانا.

أما كونغ، فقد تكوّر فمها وتحوّل مساويا في حجمه لاتساع عينيها، يعكس علاقة مطّردة بينهما.. ارتدت نظّارتها الشمسيّة لعلّها تختبئ خلف عدساتها.

غادرت الفتاتان المنزل، واعتذرت كونغ سريعا عن مصاحبة بريسانا:
" أخبروني أنّ أخي مريض في المستشفى، سأذهب حالا...إلى لقاء".
استقلّت بريسانا التّاكسي: " سوكومفيت بليز"

فتحت تلفونها في حركة اعتياديّة لملأ الشعور بالفراغ وإزهاق الملل، وقعت عيناها على الرّسالة النصيّة، أعادت قراءتها مرّات ومرّات..عبثا حاولت الاتّصال مرارا بالرّقم الذي يقع خارج الخدمة... أخذتها سيارة التّاكسي في جولة غير محدّدة المعالم في العاصمة، كلّما تساءل السّائق عن وجهتها أشارت له بمواصلة الطّريق حتّى توقفت عند الفندق الّذي كان يقطنه جوناثان، سألت موظّف الاستقبال إن كان

جوناثان في الدّاخل:
" ألم يخرج معك صباحا للمطار؟!" اصفرّ لونها وتناثرت في مهبّ الرّيح..

توالت عليها السّحب السّوداء تظلّل خطاها، كلّما تنحّت إحداها أمطرت الأخرى كنذير شؤم، الجزع يلفّها نهارا ويقضّ مضجعها ليلاً، فقدت شهيّة الأكل فتعاظمت نحافتها وبرز فكّها العلويّ وجحظت عيناها، توارت عن الأعين اتّقاءً للألسن السّليطة، وفضّلت الانزواء بعيدا وإن جالست معارفها للضّرورة فإنّ جسمها يأسره المكان وعقلها يبحث عن مخرج من أنفاق المستقبل المظلم، توالت الكوابيس بكثرة في حركة امتداد طبيعيّ لما يختلج فيها، الجزع يسلبك الحياة ويبقي رماد قلبك نابضا.

أشعلت النفس اللوّامة شرارتها حتّى أصبحت تعمل بكلّ طاقتها، تساءلت تجلّد ذاتها وتصوّب السّهام نحو قلبها في تساؤل عن الحكمة من وجودها... السرّ في الحياة، لماذا خلق الإنسان؟ هل الحياة أبديّة؟ ماذا بعد الحياة؟ ما هي الرّوح.....؟ أسئلة محفورة فوق عين الإنسان وعلى جبينه إلاّ أنّه لا يراها إلاّ إذا أغمض عينيه وتفكّر، ولا يحدث ذلك إلاّ في النّائبات!! أو حين نرى الموت قريباً، أليس أكثر الناس حكمة من يرى الموت دائما في غده، بعيداً عن طول الأمل؟

*****

استمرت فصول المأساة شهرين أو يزيد وكأنّهما قرنان من الزّمن، أخذت وصديقتها كونغ تبتدعان القصص الوهميّة لكي ينقطع حبل المودّة بينهما في عمليّة وأدٍ للصّدق، فالمرأة

الصّادقة مع نفسها هي الّتي تكذب مع الآخرين، يتملّصان وكلٌّ له دوافعه.. بريسانا لا تحبّذ أن تخبر أحدا عن مرضها، وصديقتها تكره أن يربطها حبل مودّة بـ (متأيدزة)، تحوّلتا لروائيّتين كلّ منهما تنسج بيوتا عنكبوتيّة واهية، تسرد كلتاهما قصصاً فاشلة فتجد لها صدى عند الأخرى، وعندما نصدّق الآخر على كذبه يتحوّل الكذب إلى حقيقة، نوع آخر من الجرائم يشبه افتتاننا بحاكم ظالم فيتجاسر ظلما، وبروائيّ مبتذل فيملأ الرّفوف بمؤلّفاته.

بعد طول انتظار وصراع خفيّ مميت، تآلفت بريسانا مع وضعها المستحدث، وعرفت يقينا أنّ الشّجاع هو من يتعاطي مع القضاء ولا يهرب منه، فمن الجميل أن نسلك الطّريق المزهر وصولا للنّهاية الحتميّة، وعلى من أضاع غده أن يحتفظ بيومه.

قرّرت أن تلتقي كونغ بعد انقطاع ولكن دون أن تخبرها، الموت خيرٍ لها من عين تدمع رأفة، وعلى مقربة منها، قرّرت كونغ أيضاً التّمثيل استجابةً وكأنّها تجهل الأمر كلّه...

التقتا مجدّدا داخل مرقص (climax) في الحيّ التجاريّ بسوكومفيت، أقبلت بريسانا بكلّها على كونغ تصرخ: "حبيبتي"..

وضعت كونغ يدها اليسرى على صدر صديقتها لتوقفها والأخرى على حذائها تعبث به، تلاشى موقف التّرحيب بذلك المشهد المصطنع، جلستا تتأمّلان نفسيهما في عين الأخرى، استشعر كلٌّ منهما الآخر دون كلمات، فالصّداقة الرّوحيّة علاقة متعديّة لا تحتاج خمس حواسّ لاقتحام الآخر:

" أجد الحكاية كلّها في عينيها الشّاردتين، فمن أخبرها؟" سارعتْ بسؤالها:

-كيف أصبح أخوك بعد مرضه؟

-وهل كان مريضا؟

-يبدو أنّك نسيتِ!!

-تذكّرت الآن، كانت وعكة صحيّة عابرة، ألا تريدين أنت عمل الفحوصات الطبيّة؟

أذابت معرفة صديقتها بالسرّ الدّفين كلّ الجليد الّذي يقف حائلا بينهما، ولكنّ الفضول يدفع بريسانا للتحرّي عن كيفية شيوع السرّ و رسوّه عند صديقتها..

-من أخبرك؟

-كان حلماً..فتحدّثي إن أردتِ!!

تحدّثت كمن يقرّ بأمرٍ بديهيّ بلا تكلّف أو رتوش..

" كانت علاقة عمل عابرة بذلك الشابّ الأستراليّ جوناثان الّذي تذكّرينه طبعا، تخلّى في سكرته عن استخدام الواقي الذّكريّ، احتمال إصابتي بمرض الإيدز اللّعين تبدو كبيرة جدّاً، يقال أنّه فيروس يتحيّن الفرصة بانتظارٍ ليس فيه كلل أو ملل من أجل غزو خلايا الضحيّة، لم ألحظ أعراضه بعد ولكنّي أشعره بداخلي، كرهت نفسي كثيرا وتوقّفت عن العمل طويلا ولكنّي سأعود حتما... لن أرغم أحدا على ممارسة الجنس، كلٌّ لديه الحريّة المطلقة، كلٌّ بيديه رهين".

اقترحتا ركوبَ موجة العمل مجدّدا وطرق بنوك الدّعارة بأجسادهنّ.." لن نذهب للطّبيب إلاّ إذا فقدنا الأمل والعمل، سنرى من يمزّق الآخر، رغبتنا في الحياة أم ذلك المرض القاتل؟؟؟".

حصدت بريسانا من هذه التّجربة المُرّة الكثير الكثير، فالموت قريب جدًّا لأنّه يأتيك من أعماقك والسّعادة كنز ثمين لا ندركها إلّا إذا أخذتها أمواج الدّنيا بعيدا عن سواحلنا، سألتها صديقتها إن كانت تخشى الموت الآن...

" الموت أمرٌ حتميٌّ غير قابل للجدال، ولكنّنا لا نخشاه كثيراً بل نكتم ابتسامتنا عندما يخطئنا ويصيب الآخرين، لا نعتقد غالباً أنّه جزءٌ منّا بل هو جزءٌ من الآخر، ولذلك فهو يبحر بعيدا عن شواطئنا، قدرنا في الواقع أن نساير الموت باتّفاقية تضمن لنا التّعايش السلميّ معه، كلّما قضى على خليّة ما سمح لنا بوضع بديلٍ مناسب لها، فلا نشعر بالفراغ ولا الضّعف أبداً بسبب احترامه الكبير لتلك الاتّفاقية.

يبدأ الجسد البشريّ بالتملّص من تلك الاتّفاقيّة والعبث بها من جانب واحد فيما يشبه الخيانة باعتبارها صفة متأصّلة في الإنسان جُبل عليها، فيبدأ بتطبيقها على ذاته أولاً، وعندما يستشعر الموتُ تلك الخيانة يصبح شهماً وكريمافيمنح الفرصة تلو الأخرى للجسد بمراجعة ذاته لعلّه يأتي ببديل جديد، إلّا أنّ للموت صبرا ينفذ إذا لم تعد إلى رشدك أيّها الإنسان.

يعطي الموت بشهامة الفرسان إشارات واضحة على أنّه يفتك بعضوٍ بعد الآخر لعلّك تجد حلاًّ لخيانتك، وفي هذه المرحلة بالذّات نبدأ نستشعر الموت ويتسلّل الخوف من المجهول إلى ذاتنا، نبدأ بمراجعة أخطائنا ونعلن التّوبة ولكن من منطلق ضعف فاضح.

كلّما تغلغل الموت إلى أجسادنا أصبحنا نعتاده مع الوقت ونألفه فيصبح جزءاً من حياتنا اليوميّة، نعايشه ولا نخافه،

وأحيانا ندعوه ليلتهم وجبته، حقٌ وواجب علينا ضيافة الفرسان، وكذلك حينما نرى الموت بكثرة حولنا فإنّ له عذوبة خاصّة ولحنا جميلاً نقف له تقديراً، فقرب الموت يجعله أليفاً جدّاً".

*****

أصبح عملها تقطيريًّا يشبه الاختيار الجبريّ، تصطاد الزّبون إذا شحّ مالُها، وتوقع آخر تحت وطأة الانتقام، خلال تلك اللّيالي الطّوال تسترجع ذاتها وتمزجها باحتمالاتٍ وهميّة، ترسم صوراً لما ستكون عليه لو صحّت الرّؤيا، كيف لإنسان يعيش في جلباب وهَمِ الموت أن يتذوّق الحياة؟! كيف يصارع موتاً يدنو منه بطيئاً؟

حاولتْ مثابرةً جمعَ شتاتها ومحو ذلك الكابوس "الأستراليّ" البغيض، قرّرت ألاّ تمارس الجنس إلّا لماماً، وأصبح الاستمتاع به أقلّ حيث تتلاطم أمواج الأفكار المختلفة في ذاتها فتطغى على متعة الجنس نفسها، تساءلت عن ماهيّة الجنس..

" الجنس ليس غاية في ذاته، الجنس هو عصارة علاقة حميميّة بين قلبين مرتبطين ببعضهما البعض، ارتباط تُؤطّره وتوثّقه عدّة عوامل خارجيّة ترتبط بالمجتمع الذي يعيش فيه الطّرفان، وهناك أواصر أخرى بينيّة تعتمد على المودّة والرّحمة والتّلاقي الفكريّ والتّضحية والثّقة والإيثار وغيرها كثير، ومتى ما تحقّقت هذه الأمور يتولّد الحبّ الأمثل، ويصبح لممارسة الجنس بعدها مذاقٌ كالعسل في حلاوته وكالخمر في رعشته، يصبح الجنس ليس واجباً بل عطاء

وتلبية لنداء فطريّ يسعى للكمال الواحد بالتقاء النّصفين أيّ الذّكر والأنثى واكتمال الدّائرة، وتزهر تلك العلاقة في ربيعها، ثمّ تثمرُ بالأجود.

البعض لا يعرف من الجنس غير الجانب الحيوانيّ الحركيّ الذي يعتمد على التخلّص من عصارة الجسد وماء الحياة فيرمي بها بأيّ وادٍ وأيّ وعاء، فلا يأخذ من الجنس غير الأدنى والأرذل، يُخيّل له أنّه مارس الجنس المنشود وهو لم ير و لم يلامس غير حافّة الكأس ولم يرتشفه.

نحن الذين نمارس الجنس كآلةٍ صمّاء نستطيع بخبرتنا أن نحرّك خيوط الرّجال ونجرّهم بسلاسل حول أعناقهم، كلٌّ على شاكلته وهيئته من أجل أن تتسرّب مياهه سريعاً فنفكّ الارتباط ونبحث عن صيد جديد وتجارة أخرى، بعضُ الرّجالِ يطلب كلمة وآخر حركة وغيره جزءً من جسد، كلٌّ يبحث عن نقص لم يجده في شريكه المزمع، المرأة فانوس جميل، بعضنا يبهره شكله وآخر يبحث عن نوره، دورنا أن ندرك النّقص ونلبّيه عبر تحليل سلس لكلّ رجل، عمليّة بدأت صعبة المنال وأصبحت مع الوقت من البديهيّات والمسلّمات."

*****

استلطفها رجل تايلنديّ خمسينيّ الملامح ولكنّ الجاه بادٍ عليه، في لباسه وعباراته، دعاها لقضاء بعض اللّيالي معه ريثما يغادر المدينة، فأبدت موافقتها لعلّها تُهزّ عرشه، كان حسن الخلق كريما جدًّ ا، دائم الابتسام، انتقائيّ في مفرداته، يدير أعماله عبر شبكة اتّصالات مختلفة كالتّلفون والانترنت من أيّ مكان وزمان، دقيق في ملاحظاته ومجاملاته، تحسّ

بإنسانيّتك وأنت تجاوره، كانت تنتقل معه بين المطاعم الفاخرة في سيارته المرسيدس السّوداء، يطيل النّظر في كلّ الزّوايا ويمعن مدقّقاً كلّما مرّت حسناءٌ في مرمى عينيه.

كانت تنتظر متريّثةً الفرصة الّتي يدعوها فيها لممارسة الحبّ، فالرّجل يصل لدرجة الهذيان كلّما عبرتْ بسريره، يتخلى عن حصونه الدّفاعيّة ويفتح الخزائن السريّة لفكره، يتحوّل الرّجل من جبلٍ صلد يصعب تسلّقه إلى بستان أخضر كلّما تمكّنتْ منه، تُصاب بالذّهول حين يقرّر رجلٌ الفرار من بين أنامل امرأةٍ ما، كيف بسط لها دفاتره ولم تقرأ كلماته؟ أيُّ ذكاء ذلك الّذي تملكه المرأة إن مرّت بجسد رجلٍ ولم تستطع ربط كل أطرافه بأوتادها؟ الرّجل في سريره صحيفة مفتوحة على مصراعيها، والمرأة بذكائها يجب أن تدقّ مساميرها في الجانب الأقوى منه لوضعه قيد الإقامة الجبريّة.

أصبحتْ تتقن ببراعة إتّباع إرشادات الصّيد بأقصى حدودها، إلاّ أنّ ذلك المُترف التايلنديّ لم يهزّه جسدها، لم يطلب غير المداعبات الخارجيّة، كأنّما يتفحّص قطع غيار ليضمن جودتها وعمرها الافتراضيّ، وهو بذلك أمر مريح من جهة الأمان إلّا أنّه يتطلّب مهارة أكبر وجهدا مضاعفا مركّباً كي توصله إلى مبتغاه. أصبحت المهمّة معقّدة لإنجازها، فهو لم يدع أبوابه مشرعة كغيره لتكتشف حديقته الغنّاء.

كان يُسائلها عن أمورها الخاصّة وعن أسرارها، كأنّما كان يبحث بأسلوب مخابراتيّ عن أيّ فكرٍ تتبنّى حيث يصبح الرّأي جريمة أحيانا، سألها عن عائلتها، دراستها، عملها وعن دخلها اليوميّ بأدقّ التّفاصيل فيما كان يصدُّ أسئلتها بدرعٍ قويّ

صعب الاختراق، يحوِّر كلّ سؤال يوجه له ويعيده بوابل من الأسئلة المثيرة.

بعد ساعاتٍ طويلة وبرغم المحاولات المضنية، لم تستطع استنطاقه عن نفسه أبدا، أدركت أنّ لرجال الأعمال مواصفات خاصّة أولها معرفة الآخر وكأنّه يجري دراسة مسحٍ عليه يتبعها بدراسة جدوى، تنتقل الصّفات العملية إلى الجوانب الأخرى من الشخصيّة فتنقّحها وتنحت فيها، تتحوّل بالتدريب إلى جانب سلوكيّ شخصيّ، وتصبح تلك المميزات كامنة لديه، تتوارى تارة وتبرز أخرى، فمتى ما عرف الهدفَ بحدسه أمسى يمارس عمليّة التّقطير تجاه المتلقّي منتظراً ردّة فعلٍ تنال استحسانه وإلاّ آثر التوقّف والانسحاب.

بعد أسبوع من الملازمة المكانيّة أصبح هناك اتّصالٌ عاطفيّ ولّد شيئا من الثّقة، أسَرّ لها بامتلاكه شركة صغيرة في حجمها ولكنّها مترامية الأطراف عنكبوتيًّا، له أذرع في مناطق مختلفة من العالم، يدير منها حاليًّا أعمالا تجاريّة أخطبوطيّة في دول الخليج العربيّ والمملكة المتّحدة، وأنّها عبارة عن خليّة شبه وهميّة تدرّ أرباحا طائلة. عرض عليها العمل معه، موضّحاً أنّها ستجني دخلاً ثابتا شهريًّا بالإضافة لمبالغ إضافيّة تمثّل "طبيعة عمل"، فسألته:

-أين يكون مقرّ الشّركة؟

-لا عليك، يجب ألّا تسألي عن الأمور الإداريّة.

-وهل سأوقّع عقد عمل؟

-نعم، سيكون بيني كطرف أول يمثّل الشركة وبينك كطرف ثانٍ.

-هل نوثّقه رسميًّا؟

-لا، سنوثّقه في شركتنا.

تمنّت أن تسرع وتيرة الحوار ويبدأ العمل فهناك من تريد أن تنتقم منهم في هذا العالم، إنّها تملك سلاحا فتّاكا تحت جمالها الصّارخ: "لماذا لم يجربني هو بنفسه فيكون أوّل ضحيّة؟ إنّها بالطّبع سياسة رجال الأعمال، مراقبة فعاليّة الطُعم ولكن دون أن يكون فريسة بذاته".

-كيف سأعمل، وما هي الضّمانات؟

-الضّمانات هي كلمتي، وعملك سيكون عبارة عن إقامة لأسبوع واحدٍ قابل للتّجديد في تلك الدّول، وستأخذين تعليماتك منّي مباشرة عبر الهاتف والإيميل.

-وكيف أبدأ؟

-سيأخذ لك فريق العمل بعض الصّور الجميلة.

-صوراً شخصيّة؟

-ليس تماماً.

-صورا إباحيّة؟

-صورا جميلة ومثيرة، بأوضاع جذّابة، وملابس رائعة.

أدخلها هذا الرجل في مجالٍ آخر بعيدا عن الدّعارة المباشرة.... "لا بدّ أنه يخطّط لإقحامي في العمل السينمائيّ أو في المجلّات الشّهيرة مثل (البلاي بوي) فضاء مختلف، أموال لابدّ أنها أضعاف مضاعفة..لابدّ أن أهشّم جمجمتَيْ عصفورين بحُصيّة واحدة".

-وبعد ذلك؟

-سيتمّ عرض الصّور في ملف خاص بك في أشهر مواقع التّواصل الاجتماعيّ.

-ثمّ؟

-لا يعمل معنا إلّا من يطيع ولا يسأل كثيراً بشرط توفّر الجمال المطلوب، نحن سندير موقعك ونردّ على من يرغب بلقائك.
-ولماذا أسافر إذا؟
-خلال الأسبوع الأوّل ستعملين هناك كما تعملين هنا. سنوفّر الزّبائن ونخبرك عن أيّ اتصال تجيبين عليه، ثم تعودين لديارك، ومن يطلبك يحوّل إلى حسابنا مبلغا نتّفق عليه.
-وماذا سيجني الزّبون؟
-سيجني هواء ونجني مالاً.
-وهل هناك رجالٌ سُذّج إلى هذا الحدّ؟
عضّ شفته العليا بخبث واستخفاف، وابتسم قائلا:
-وأكثر من ذلك.
-لماذا؟
-هذا ليس في نطاق العمل ولكنّي سأُجيب فضولك، الجنس لغة عالميّة، يتعلّمها كلّ البشر دون الحاجة إلى أيّ حاسّةٍ من الحواسّ الخمس، ولكن لا يتقنها إلّا القلّة، وكلّما جاهدتَ لقتل إحدى هذه الحواسّ تمادت مستنجدةً، دورنا أن نختار البيئة المناسبة ونعرف أيّ الحواسّ التي وُئدت هناك، وكما أسلفت فالجنس لغة، وفي تلك البيئة وئدت حقاً فزاد التشبّث بها، الكبت والحرمان يشبه في نتائجه الإباحة المطلقة، وفي تلك الدّول يجعل من الرّجل برميل نفطٍ قابل للاشتعال والانفجار في لحظة، علينا كمستثمرين ورجال أعمال أن نحدّد الهدف بدراسات مستفيضة ثمّ نبدأ التّطبيق التّدريجيّ وانتظار المردود الماديّ.

*****

شدّت بريسانا الرِّحال إلى ثلاث مدنٍ في الخليج العربيّ، مكثت في البلد الأوّل خمسة أيّام متنعّمة في أحد فنادقها الفاخرة، لم تمارس الحبّ السريريّ خلالها مع أيّ زبون وكلّ ما فعلته هو حوار تلفونيّ حاولت فيه سحب سفينة المُتّصل إلى الشاطئ لعلّه يرمي مرساته في مينائها، بدأت محادثة استكشافيّة فيما توهّم المتحدّث أنّه يعرفها منذ زمنٍ بعيد:

-مساء الخير آنسة أنالين.

-مساء الخير، من؟

-فهد.

-أهلاً بك فهد.

-أريد معرفتك أكثر، أحسست بارتياحٍ كبير كلّما تحدّثت معك على الفيس بوك.

-لحظة من فضلك.

أبعدت الهاتف عن أذنها تستذكر ما يجب فعله: " أنا أنالين الآن، يجب أن يكون ما يقوله صحيحا... لعلّني أنجح في الاختبار الأوّل".

-ماذا تريد أن تعرف؟

-أولاً، أريد أن أشكرك على الثّقة التي منحتني إيّاها لأتّصل بكِ.

-لأنّك تستحقّ.

-أريد معرفتكِ أكثر.

-ما الّذي تريد معرفته؟

-اسمك، عمرك، عائلتك.

-كما أخبرتك، أنا أنالين، 22 عاماً، من أبٍ تايلنديّ وأم روسيّة، أعيش هنا في فندق الشّيراتون.
-ما هو عملك؟
-أعمل في مكتب سياحيّ، والآن في إجازة سياحيّة قصيرة.
-يسرّني أن نلتقي.
-يسرّني ذلك أيضا.
-هل ترغبين في معرفة شيء ما؟
صمتت للحظات:" لا أريد معرفة أيّ شيء عنك....ولكن دعني اسأل ...".
-هل أنت متزوّج؟
-مطلّق، منفصل.
-أعتذر لسماع ذلك، ولكن لماذا؟
-أعتقد أنّها بسبب الطّريقة التقليديّة للزّواج في بيئتنا أو مجتمعنا.
-وكيف تمّت الخطبة والزّواج؟
انطلق في حديثه كطفل مُنع من الكلام يوما كاملاً، مفردات الثّرثرة الطفوليّة تعبير عن الحياة وإطلاق سراح طاقات كامنة..
-في المجتمع الغربي، يمكن للرّجل والمرأة المتحابّين أن يعيشا تحت سقف واحد ويمارسا الحبّ وحتى الإنجاب دون أن يكون هناك عقد رسميّ للزّواج، وفي كثير من الحالات يتمّ الانفصال قبل الزّواج نفسه، وعند الإنجاب ينسب المولود لوالده، وقد يحدث كثيرا أن يرفض الأب ذلك المولود فيتمّ قيده باسم أمّه الّتي تقوم بدور الوالدين، طريقة الزّواج هناك لا تخدش عرف المجتمع وتقاليده، ونادراً ما تبقى المرأة

عذراء حتّى ليلة دخلتها، طريقة الزّواج تلك تحمل صوراً ايجابيّة إلّا أنّ سلبياتها تفوقها بكثير، وفي المجتمع الشرقيّ، هناك صور مختلفة للارتباط، ففي مصر مثلاً، هناك ارتباط عبر مشروع الخطبة أو ما يعرف بـ (الفاتحة) وفيه يقدّم الرّجل خاتما بحضور العائلتين، وللعريسين الحقّ في التنزّه والتحدّث دونما خلوة بينهما في الغالب، وهناك في أغلب الدّول العربيّة، يبدأ الزّواج بخطبة رسميّة موثّقة، قد لا يفلح الطّرفان في التأقلم مع بعضيهما فيحدث الانفصال، توصم فيه المرأة بالمطلّقة دون أن تتزوّج فعلا، أو أن تتمّ الخطبة عن طريق (الخطّابة) ولا يُسمح للرّجل أن يرى خطيبته إلاّ في حفل الزّواج.

-وأيّ نوع من الزّواج اتّبعت؟

-النّوع الأخير، تزوّجتُ امرأة رأيتها وعرفتها بعين الآخرين، خطبة منافقة وزواج أكذوبة.

-ولذلك أتمنّى أن أُسعدك حقاً .

-وأنا لكِ، اطلبي ما تشائين.

-أنا هنا أحتاج لمساعدتك ومن خلال ذلك أعرف مدى جديّتك وإخلاصك لي، ثم أكون كلّي لك، سترى السّعادة بعينيك، وتلامسها بيديك.

-ما الأمر، أيّ مساعدة؟

-أريد أن تحوّل لحسابي مبلغاً ماليّاً.

-لا تخشي شيئا إذا تعلّق الوضع بالمال.

-أريد ألف دولار أميركيّ في حسابي اللّيلة وسأقضي نهار الغد كلّه معك.

-حقاً؟

-نعم، سأتّصل بك بمجرّد أن أرى المبلغ كـ (عربون محبّة).
-تمّ.
-إلى لقاءٍ قريب.
-مع السّلامة يا حبيبتي.

أثبت فهد قاطعا أنّه رجل يفكّر بخصيتيه وقد استبدل دمه بسائل منويّ، فلم يستغرق أكثر من ساعتين حتّى شُلّ عقله وحوّل المبلغ الماليّ وكأنّ ذلك حدث بجرّة قلم.

تلقّت بريسانا على إثره مهاتفة من المكتب الرئيسيّ في بانكوك، تأمرها بالرّحيل لعاصمة أخرى قبل احتمال مطاردة عمليّة الابتزاز تلك، طُلب منها أيضا انتظار صيدٍ جديد قبيل العودة المحدّدَة سلفاً.

بهذا العمل الاستثماريّ الدّؤوب، حصلتْ على راتب شهريّ لعام كامل ولكنها لم تحقّق هدفها الضمنيّ في نقل الفيروس المميت. من طبيعة هذه التّجارة أن يُستبدل (الطُّعم) حتى قبل أفول نجمه في خطوة استباقيّة احترازيّة.

بعد ذلك الاستثمار تخلّى عنها صاحب العمل باحثا عن بديل لها وبمميّزاتأُخرى، عملٌ يكثر فيه التّرحال، لم تُجهد فيه جسدها ولكنّها مازالت بانتظار من تنتقم منه!!

أضافت بريسانا لرصيدها المعرفيّ والثّقافيّ الشّيء الكثير، فالصّحراء تعبثُ برمالها في عقول قاطنيها، يصبح للفضاء ساحة شاسعة في تكوينهم، تستوعب تلك المساحاتُ كلَّ المتناقضات، وتكون أرضا خصبة لغرس اللّافكر والخرافات والبدع، فمن جهة، يسهل على غزاة الفكر زرع أوهامهم الفكريّة وأطروحاتهم، فنجد أبناء الصّحراء

ينسجون القصص الخياليّة من بنات أفكارهم، تتحوّل الكذبة إلى حقيقة بتكرارها ثم ما تلبث أن تصبحَ معتقداً.

ومن جهة أخرى، يكون للتطرّف الفكريّ والحَدّةِ وقع في تبنّي الآراء المختلفة، فإمّا أن تكون أبيض أو أسودٍ لا وجود لما بينهما، يكون الرّجل متديّنا بشدّة ومتمسّكاً بخطوطه العريضة ولا يقبل أيّ خدش له، يصل به التطرّف حدّ تكفير الآخر، ولكنه يكسر كلّ الحواجز عندما تحين له الفرصة، يعيش رحابة الصّحراء فلا يحبّ القيود أبداً.

*****

حطّت بريسانا الرّحال في مدينة خليجيّة أخرى، مدينة ساحليّة جميلة، تتميّز بمبانيها العاشقة والمتراصّة، لا تكاد تشاهد فيها لَوْحاتٍ لِوَاحات خضراء، العمارات الإسمنتيّة تتنافس فيما بينها رغبة منها في معانقة السّحاب وهروبا من الوحل والتّراب، مدينة عربيّة ندرَ فيها من يستخدمون اللّغة العربيّة أداةً للتّواصل، أغلب سكّانها من الآسيويّين الّذين تكتظ بهم الشّوارع والطّرقات.

أصبحت اللّغة العربيّة مطاردة في أزقّتها، تتكالب عليها لغاتٌ آسيويّة مختلفة، كلّ منها ينهش جزءً ويقضم آخر حتّى أحسّتِ اللّغة الأمّ بالغربة في دارها فآثرتْ لبس الحجابِ لعلّه يحفظ ما بقي من حيائها.

من المطار العملاق لتلك المدينة الحديثة، أخذها سائق خاص آسيويّ كان في استقبالها إلى أحد الفنادق الفاخرة، ومنه انتقلتْ إلى جناح 710 الذي يطلُّ بعينيه على شريان تلك المدينة الصّاخبة.

لأول وهلة وبتمويهٍ فاضح، لاحظتْ على المنضدة الدائريّة خلف السّرير وجود ظرف برتقاليّ بداخله بعض الأوراق الإرشاديّة ، قرأتها سريعا، وجاء فيها بخطّ اليد:

العزيزة بريسانا
مساء الخير،
يرجى عدم مغادرة الجناح الخاصّ بكِ إلى حين وصول تعليماتٍ جديدة عبر الإيميل أو الهاتف، قد تتأخّر المكالمة ولا تصل إلّا فجراً.
تقبّلي تحيّاتي
^^

لمحاربة قسوة الانتظار، عبثتْ بذاكرتها فاستعادت الأحداث الرئيسيّة في مشوار حياتها لتعيد ترتيبها، استذكرت كلّ أزمة وكارثة عبرتْ بها وعبثتْ بكيانها، كأنّها قصص بنهايات مفتوحة تمّ ترميمها بخواتيم سعيدةٍ في محاولة لرسم لوحة ناصعة تنثر الفرح والياسمين.

من المنطق أن تتغيّر النّتائج بتغيّر المعطيات، فدائما ما نحلم ونردّد أنّ الأيّام الّتي لم نعشها بعد هي الأجمل في نقدٍ مبطّن ومتواصل للذّات، نتوهّم أنّنا نملك العصا السحريّة لتغيير الواقع ومقارعة الزّمن بكوارثه، تخيّلتْ لو كانتْ أنثى حقيقيّة منذ ولادتها، ألم تكن قد تزوّجتْ وأنجبتْ أطفالاً؟ ألن تكون الحياة أشهى وألذّ دون منغّصاتِ تقمّص الجنس

-لا عليك، تلك مهمّتنا.
-شكراً
-إلى لقاءً قريب.

عرفتْ بعد أيّام ليست بالكثيرة أنّه يتمّ استخدام صورها بصورة فيلم سينمائيّ خليع فيما يقوم بالحوار المكتوب أو المسموع أحد موظّفي الشّركة للإيقاع بالفريسة وابتزازه لدفع الأموال على مراحل مختلفة، مبلغ أوّل وثانٍ وثالث، يُفضح أمره تدريجيّا رغبة في الحصول على أكبر قدر من الأموال.

*****

مرّ عامان ونيف على احترافها لمختلف الأعمال ولكنّها جميعا صبّت ينابيعها في حقل واحد، تعلمتْ فيهما الكثير من الخبرات وعرفتْ العديد من البشر، يختلفون شكلا ومضمونا وتربطهم الشّهوة الحيوانيّة التي تحرّكهم بخيوطها وتعجنهم بطحينها. تنقّلتْ بين الفرائس وأصبحت تختار الشّباك الّتي تستهويها لتقع فيها حتّى امتلأت نفسها ولم تشعر باللذّة في العمل، آثرت البحث مستعجلة عن فرصة أخرى تجد فيها ذاتها وتحقّق أهدافا أخرى في حياتها.

تعلّمتْ فنّ الكذب في الحبّ، وهو أسلوب حضاريّ لمراوغة الآخر والنّيل منه عبر نفسه، قيل دائماً أنّه لن يهينك أحدٌ إلّا بمساعدتك وتوصّلتْ بمساعدة عصارة تجاربها إلى أنّ الحبّ يبدأ كذباً ووهماً فلا حبّ يُولد إن لم تجد إشارات قبول من المحبوب، بفعل أو كلمة وإن تكن صامتة، عندما نقابل المحبوب (المتوهّم) نجد فيه صفاتٍ تكميليّة لشواغر ونواقص فينا فنتمنّى أن نُكمل ذلك النّقص بالتقاء الطّرف الآخر، ربّما يكون وهْمُ المصلحة، ثمّ نحاول الإيقاع بالآخر

وعادة ما نبدأ بالكذب ويكون محمودا هنا، كذبٌ لأنّه لم يُخلق الحبّ حتّى تلك اللّحظة، ويبدأ الطّرفان برسم صورة مستقبليّة لواقع أجمل وهو نوع آخر من الكذب ينمو معنا ويكبر عندما نرويه كلّ يومٍ بإضافة كذبة أخرى، وقد يكون الحبّ المتوهّم هروبا من واقع أليم وهو كذبة أخرى أيضاً.

ما حدث مع فهد قبل سرقته دليل على كذبة الحبّ، كان في أمسّ الحاجة للبديل حتى يعوّضه، كان على استعداد تامّ لسماع كلمة (أحبّكَ)، وأصبح خلال أسبوعٍ واحد في شرك ذلك الحبّ المزعوم.

أصبحت صناعة الحبّ أمرا شائعا لكثرة المشترين، بائعٌ وزبون وسلعة، تجارة لن تبور، ربحٌ قريب الأجل كتجارتنا وبعيد الأجل لما يُعرف بزواج الحبّ، المرأة العقرب هي الّتي تلدغ رجلاً ولا يجد دواءه إلاّ عندها.. فيتزوّجها بغبائه فرحاً.

*****

أثارت الأزمة الماليّة العالميّة التي ضربت كلّ بقاع الدّنيا مطلع الألفيّة الثالثة أطماع الفقراء في تايلاند كما في غيرها، فتسلّقها العامّة تغنّيا بها ونيلا من الأغنياء، ورغبة في تضييق الهوّة بين الطبقتين المخمليّة والكادحة، ظنّ الأغلبيّة أنّها ثورتهم، هدفهم الأسمى بل فرصتهم التّاريخيّة التي إن تشبّثوا بها وحقّقوا مآربهم التي لم يدُر بأحلامهم إمكانيّة ترجمتها لواقع، حاولوا العبث بالسّراب والإمساك به، فكأنّهم امتلكوا عصا موسى، فتخيّلوا قرب الانقضاض على فرعون والنّيل منه.

لا شكّ أنّ الانتماءات الضيّقة تكون سكّيناً حادّة في تقطيع جسد الوطن في كلّ مكان، فالانتماء المذهبيّ مثلاً يؤثّر سلباً على وحدة الدّين، وبدوره فإنّ الانتماء للدّين يضعف الانتماء للوطن، وهناك انتماءات جغرافيّة مناطقيّة، وأخرى قبليّة وحتّى رياضيّة، كلّها تدق إسفينا في نعش الوطن الأمّ، ولذلك يقوم بعض الحكّام في العالم أجمع باختلاق عدوٍّ وهميّ لكافّة الشّعب، وقد يتحوّل الوهم لحقيقة فيُشعل نار الحرب أيضاً من أجل زيادة الانتماء للوطن وتناسي الخلافات الجانبيّة!! مرضٌ سرطانيّ يشلّ العقل البشريّ حقاً، تقاتل الجماعات الصغيرة نفسها ولا تتّحد إلاّ إذا وُجد خطر مشترك، جسد بشريّ يحمل عقلاً (حميرياً)، ألا يمكن أن تذوب كلّ الانتماءات حين نتحدث عن وطنٍ واحد؟!

كانت بريسانا ترى اجتماع كلّ الأطياف الشعبيّة في تايلاند ضرباً من الخيال، بوذيون، مسلمون، مسيحيّون، سيخ....صينيّون، هنود، نيباليّون... إلاّ أن حالة الفقر المستشرية ووجود عدوٍّ مشترك تمثّل في الفئة المترفة جعل الأزمة الاقتصاديّة العالميّة تمثّل شرارة احتجاجات مشتركة ضدّ الحكومة وشعاراتها.

لعبت وسائل الإعلام الرسميّة وغير الرسميّة كعادتها دورا مفصليّاً فعالا في تغيير أمزجة العامّة وتجييشهم، وعبث رئيس الوزراء المخلوع بأحلام الفقراء والمعدَمين، وتناسى أن أعداد البؤساء كان أكبر على عهده، كانت قاعدة حكمه من الهشيم، لكن الحلم والأمل يمسح الماضي من الذاكرة بالتقادم، لم يمكنه فك الارتباط مع كرسيّ الحكم، هرب من

البلاد تحت سطوة المساءلات التي تلاحقه، فعيّن أخته الشابة لرئاسة حزبه في خطّة بعيدة المدى تعيده لمنصة الحكم.

ومن جانبها، حدّت الحكومة من سطوتها وقسوتها حتى لا تفقد مصداقيّتها في خطوة لامتصاص غضب الشارع، وكأنّها تغضّ الطّرف عامدة، فالتّغابي ذكاء مركّب، وهو ما ولّد من دون وعي ساحة مفتوحة للعابثين والراغبين للبروز والظفر بنصر ماليّ أو سياسيّ على رقاب الآخرين.

بدأ تحرك النّاس من الأطراف باتّجاه القلب وصوب العاصمة يتّخذ صورة الموج البشريّ، كلٌ تدفعه أحلامه الشخصية متقاطعة مع أحلام الجماعة، احتشدت قوافل الجماعات في طريق واحد، جماعات عرقيّة، دينيّة، اجتماعيّة، سياسيّة وغيرها، يربطهم الهدف المشترك: إسقاط الحكومة.

كان للمثليّين دور فاعل أيضا في صفوف المشاركين، فخرجتْ بريسانا مع صديقتها كونغ وأخريات في الاحتجاجات الحمراء تفاعلاً مع كل الأطياف، ارتدى المتظاهرون فيها القمصان الحمراء تعبيرا عن الفداء بالدّم ومن أجل بثّ الرّعب في نفس الحكومة ذاتها، إن زرعَ الخوف في نفس العدوّ هو الخطوة الأولى للنّيل منه.

اختلطت أجناس ومعادن المتظاهرين في حي المال التجاريّ الرّاقي في وسط العاصمة بانكوك لشلّ عصب الدّولة وضربها في مقتل. فتشابكت أيدي الرّهبان والمجرمين وسقطت الحدود الدينيّة والنفسيّة بينهم، وتصافحت أيدي المنبوذين بالمتسوّلين، كلّ يعتدّ بنفسه

ويصبغ نفسه بالحمرة فيما يذكرهم القادة المنتخبون بنجاح الثّورة البرتقاليّة في أوكرانيا وعناد الثّورة الخضراء المستعصية في إيران.

تسرب الأملُ في الأجساد كتسرّب المياه في الأرض البور، وداعب الميل للتّغيير النزعة الكامنة في الإنسان، فدعت بريسانا وصديقتها كونغ جميع المثليين الراغبين في التغيير للمشاركة في الثورة ودحر الحكومة في جحرها، أضفنَ إلى الثوار الأشداء اللمسة الأنثوية لإثبات أنّ كلّ الشعب بجميع أطيافه يرفض الاستبداد الحكومي القائم، لمسة تبث روح العزيمة والإصرار عند الجميع.

اتّخذت المقاومة أشكالا مختلفة، كلّ يسخّر نفسه من أجلها، كلّ يهيئ ما وهبه الخالق من إمكانات من أجل الوصول إلى الهدف المنشود، فمنهم من يعبر عنها بالتخندق والسلاح، وآخر بحرق الإطارات وبغلق المنافذ بينما أُوكلت للنساء ومن في حكمهنّ مهمة إيصال الإمدادات ورعاية المصابين وتقديم العلاج الطبيّ للأشداء.

استمر إغلاق الحي التجاري قسرا لأكثر من شهرين، استوطن خلالها المتظاهرون الشوارع الرئيسية وحولوها إلى ثكنات سكنية عسكرية تنتظر غيث التنازلات الحكومية أو التدخلات الأجنبية.

وعلى عكس المأمول، تخندق الجيش حول الحيّ التجاري مهددا باستخدام آلته العسكرية والبطش بالمعارضين بيد من حديد في تعبير عن نفاذ الصبر، وبدأت المناوشات برذاذ من الرشقات المتفرّقة، وأتبعه الاقتحام المفاجئ للمستشفى

الرئيسي الواقع في الحيّ الماليّ، ثم سقوط القتلى برصاص القناصة.

وفي ليلة الخميس الأسود وقع الهجوم التدريجيّ الانتقامي والذي ملأ ظمأ شوارع بانكوك بالدّماء ونشر الرّعب في قلوب المعارضة وتكدّست القمصان الحمراء للداخلوخلف المتاريس.

اتّخذت النساء والمثليون متزاحمين موقعا لهم خلف المتاريس الرملية والهلع يلفّهم، والصراخ يملأ الحي في كل حركة، فحتّى القطط صارت تفجعهم وتخيفهم، وبرصاصة خاطفة لم يُسمع إلا دويها، أصيبت كونغ في صدرها فسقطت على مقربة من صديقتها جثة هامدة ... زاد التكتل الآدمي على بعضه البعض وتشابكت الشعور والصدور على التراب... وثار الغبار.

أحسّت بريسانا بضربة خطافية أصابت ساقها الأيمن إلا أنها ازدادت اختباءً وتمنت أن تنفصل رجلها عنها، فيما بدأت دماؤها تسقي الأرض مجددا والدخان يتصاعد طالبا رحمة السماء.

*****

بعد ذلك الهجوم الخاطف، أدرك المتظاهرون أن حركتهم التغييرية لن يحالفها النجاح ولن تكفي دماؤهم لرش بذورها رغم دستوريتها وضرورتها التاريخية، فغياب القائد السياسي الفاعل عامل جوهري في فشل تلك التظاهرات، القائد السياسي الناجح هو الذي يجيد الكذب والمراوغة، تملؤه العقد النفسية، يخاطب الجماعة بلسان حالها ويغير توجهها

نحو مصالحه الذاتية بعيدة المدى، يتبنى رأي الجماعة أولاً وتتبنى الجماعة رأيه الشخصي لاحقا، رجل يقف في وجه الريح ويبتعد عن العاصفة.

الثورات الصادقة هي ثورات فاشلة، ترمي حممها البركانية القاتلة بسرعة مذهلة ثم تبرد بصورة أسرع على سفح الجبل فيصبح السير عليها سلسا ونظيفا للغاية، الحركة الحمراء هنا لم تختلف عن الثورة وأخواتها في إي مكان وزمان.

بصورة استسلامية موفقة، علت الأصوات المطالبة بوقف إطلاق النار ووقف سيل الدماء المراق، تدخل القائد المزمع للقمصان الحمراء مناشدا ومتوسلا عبر الميكرفون بقبول التفاوض المباشر وغير المشروط والتنازل عن كل المطالب بما فيها استقالة رئيس الوزراء، فجاءه الرد طاووسيا فاترا من قائد الجيش، دعاه مستأسدا للاستسلام والخروج برفع الأيدي والمناديل البيض شرطا لوقف إطلاق النار، ساد الصمت الرهيب في المنطقة، وأثار السكون والخوف أفئدة الحاضرين، سمُع طنين مقابل أزيز الطائرات وزاد نبض القلوب فيما الدخان لا يكف متوسلا في تضرعه بالدعاء للسماء، بدأت الرايات البيض تظهر متسارعةً متشابكة بلا نظام خلف القائد المنكس رأسه، فنُكست الألوان الحمراء وتراخت عظامها وسادت الألوان البيضاء قلب العاصمة مرفرفة داعية حمائم السلام القسري لمعانقتها.

خلعت بريسانا قميصها الأحمر وألقت به أرضا وكأنه دنس وعار باحثة بين ملابسها الداخلية عن أي قطعة قماش بيضاء إلا أنها لم تجد غير حمالة الصدر لعلها تفي بالغرض وتحملها

بعيدا عن شبح الموت، رجلها التي لم تشعر بها ما عادت قادرة على حملها، وكونغ مع صديقتها صرعى خلف جذع شجرة ترويانه بدمائهما، أحسّت فجأة بيد تلامسها وتبحث عن حياة بين أضلعها، وجدوا نبضا ويأسا وبقايا حياة، أحسّوا ببقايا الروح فحملها أحدهم على ذراعيه مهرولا وسلمها لقوات الجيش مباشرة حيث سيارات الإسعاف تنتشر في كل مكان وتعمل بهمة النحل طلبا لانفراج الغمة.

بعد شهر خالته دهراً، غادرتْ مستشفى بانكوك الدولي كغصن مكسور بسبب الآلام التي انتقلت مستمتعةً من عضو إلى آخرٍ في جسد ضعفت مقاومته تدريجيا وتمنى الموت خلاصاً من واقع مرير لعل الروح تحيا في سعادة وبلا قيود، غادرتْ بلا هدف منشود، بلا أنوثة ولا رجولة، تحولت إلى معاق عاجز عن القيام بأي مهنة أو حرفة بالإضافة إلى مرضها الكامن فيها، ففقدت ذاتها وأحلام طفولتها وتجارتها وحتى أمنيات عائلتها.

حين يصبح الإنسان عاجزا ومعاقا تتحول الذكريات لديه من ماضٍ إلى حلم مستقبلي، لا يتمنى خلالها أن يقتحم مجالا جديداً بل أن يستعيد ذلك الماضي، الحلم بالماضي هو مستقبل الضعيف، غالبا لا نقنع بما نحن فيه ولا نرضى بواقعنا ونعيش طول الأمل، ولا نعرف قدر حاضرنا إلا إذا تحول إلى ذكرى.

فكرتْ مليّاً في العودة إلى فاترينات عرض الدمى البشرية، معتمدةً على إرث العلاقات الاجتماعية والعملية التي بنتها إبان فترة ازدهار تجارتها! وعلى مختلف أنواع العملاء الذين

تكاثرت أعدادهم باطراد مستمر، إلا أن للواقع دائما كلمة طُولى في قطع حبال الأحلام ... فرض الواقع نفسه عليها مجددا، فمعارض الأجساد لا تحتمل أن تُشوه، فكيف بجسد يحمل عاهة في الرِجل اليمنى! كل ما تحمله الآن هو ذاكرة جسد.

وجدت نفسها مقطوعة عن العالم وعن كل معارفها، وأصبحتْ غريبة بين معارفها وأقربائها و "عملائها" أيضا، أدركت أن رحيل كونع كان رحمة بها وحسدتها على موتها، إن مرارة الفراق وألمه ترهق الأحياء ولكنها حتما تريح الأموات، إلا أن موتها البطيء يتكرر في مشاهد تفيض بالجزع كل صباح، فالعجز عن العطاء هو موت تدريجي يكون أقسى من الموت بعينه.

*****

في عاصمة مترامية الأطراف تعرف بمدينة الخطيئة، تحملك كل السفن على ظهرها إلى مرسى الغرق، لم تجد بريسانا غير هذيان وذكريات...فراحت تقلب صفحات الماضي وتخاطب نفسها سرّا:

" ركبتُ سفينة الدين فقذفتني بعيدا عنها فكأنما لها ربٌ غير ربنا، إلهً يصطفيه الناس ويعجز هو عن احتوائهم برحمته، أي رب هذا الذي يقرر سواه مصيرَ الآخرين؟ أي رب هذا الذي لا تجده عند الشدائد؟ ابتعد عني حين تقربت إليه! نحن له عباد و هو ليس لنا إلها!

ركبتُ سفينة العلم فما أبحرتْ إلا بمال يحرك شراعها، فالعلم غاية سامية، وفي مدينة الخطيئة لا تصلها إلا إذا

ولدت وفي فمك ملعقة من ذهب، وإلا قذفتك من على ظهرها مع أول موجة عاتية تداعبها.

حاولتُ اقتحام عالم المال والتجارة، وللتجارة فنون، فالشاطر هو من ينتقي اللعبة المناسبة لإمكاناته ومؤهلاته ويمد يده ليقطف الثمر فيما عيون الآخرين ترمقه وتعجز عن أن تحرك ساكنا، بعت جسدي فربحت وربحت، ولكن الخطيئة تسحقني بقذارة نعليها... تبصقني في أقذر وأقرب حاوية.

أغرتني السياسة ورجالاتها، وداعبتني حكايات التاريخ وبطولات الأساطير، وهامت بي الكلمات السرمدية: الحرية، والعدل والمساواة.

وتغنيت بالثورات والتحرير، وأن التاريخ لا يغيره إلا الرموز، فتُقتُ لأكون رمزاً، لأكون وجودا، دخلت ميدان السياسة وقودا، وما عرفت إلا بعد خراب روما أن من يشارك في الحرب بيديه لا يجني ثمرا ولا يقطف أزهاراً، وأن السياسي الناجح هو من يزني بأحلام الشعوب".

حين تسأمُ الدنيا وتجافيها فإنها تتودد إليك ولا تجافيك، تعاتبها فتسايرك ولكن إلى حيث تريد هي، إلى مستقر رسمته لك مسبقا، بحثتْ بريسانا يائسة في أروقة الانترنت والمحلات التجارية عن عمل يناسب مؤهلاتها وقدراتها الحالية:

- عاهة دائمة ومرض كامن
- لا شهادات أكاديمية
- لا خبرة عملية
- نصف لغة أجنبية....

ساقها القدر متكئة على عكازها إلى مطعم "فالابيلا" الشهير الواقع في شارع "ثونغلور" بمنطقة "سوكومفيت"، يتكون ذلك المبنى الخرافي في تصميمه وهندسته من جزأين أحدهما مغطى والآخر تظلله السحب، تعكس المرايا الزوايا المختلفة للمطعم فكأنك ترى كل ما في المبنى حيث تجلس، يقدم ذلك المطعم بصدر رحب أرقى أنواع المأكولات التايلندية والعالمية، إلا أن للأطباق العربية حضورا طاغيا تلبية لأذواق أكثر السائحين ورجال الأعمال العرب الذين تضج بهم منطقة "سوكومفيت"، يتحول "فالابيلا" إلى حانة مختصّة مساءً ثم إلى ملهىً ليلي مزدحم بعد منتصف الليل، مكان واحد وأوجه مختلفة تتغير طلبا للرزق بحسب أمزجة الوافدين.

بعد المدخل الحدائقي الطويل المليء بالزهور الصفراء والبرتقالية والزرقاء، اتجهتْ يمينا نحو السلّم ذي العتبات التسع قبل أن يُسمح لها بالدخول إلى مكتب مدير التوظيف، أخبرتها السكرتيرةُ بأدب متكلّف أن ذلك المدير هو شاب عراقي مهاجر يُسمى كاظم.

انتظرتْ زهاءَ خمس دقائق قبل أن تأخذها السكرتيرة إلى غرفة الاجتماعات الواسعة ذات المكتب الكستنائي الغامق، أشار إليها المدير باستدارة كفه الأيمن بالجلوس على يمينه متحدثا:

-ما اسمك؟

-بريسانا

-عن أي نوع من الأعمال تبحثين؟

-أيَّ عمل تراه مناسبا

-نحتاج إلى محاسبة تقبل العمل بنظام النوبات، براتب عشرة آلاف باهت شهريا قابلة للزيادة.
-أتمنى أن تتاح لي فرصة العمل في أحد أكبر واشهر المطاعم في بانكوك.
-ستتاح لك التجربة لشهر واحد نحدد بعدها بنود عقد العمل.

بعد تلك الأسئلة المباشرة، أخذت أسئلته منحىً ثعبانياً آخر، أصبحت أسئلته مختلفة جدا، أسئلة ومداخلات تركت لها المجال واسعا لتتحدّث عن نفسها بل لفضح أمرها، انتقل بدبلوماسية غريبة تشبه التنويم المغناطيسي إلى أسئلة شخصية خاصة لا تتشابك مع نطاق دائرة العمل، كان يتعمد أن يطيل ويسهب في الحديث فيما كان يمعن النظر في عينيها خاصة ويراقب يديها وباقي جسدها، كان يخاطبها بلسانه ويسمعها بحواسه الخمس، يراقب بإمعان حركة الشفاه واليدين والكتفين وغيرها، يكتشف ويحلل وكأنه في دراسة ميدانية، يستمع لصوتها ويثابر لمراقبة لغة جسدها... كأنما استطاع أن يزيل كلّ التشوهات الطارئة ويصل إلى جمالها البكر.

أبلغها بساعات العمل وضرورة الالتزام بالوقت والزيّ الرسمي، تحدث عن الراتب الأساسي والعلاوات المحتملة، وعن متطلبات الوظيفة من لباقة وابتسامة دائمة، وأكد على أن حب العمل والتفاني فيه هو السبيل الوحيد إلى النجاح.

بدأتْ بريسانا العمل كمحاسبة بعد يومين فقط من ذلك اللقاء، عمل روتيني سلس إلا أنه حيوي جداً.

حينما تكون في "سوكومفيت"، تمر بك مختلف الوجوه، تتنوع سلالاتها، بين أبيض وأسود، آسيوي أصفر وآخر أسمر، بين بنية عملاقة وأخرى تفضل البقاء قريبة من الأرض، الكون بأجرامه السماوية يمر بين يديك كل يوم.

أخذت الحياة تدبُ في العلاقات البينية مع الزملاء والزبائن، تُكوّن بها انطباعاً خاصا لكل شخص على حِدة بناءً على سلوكيات معينة تضعها بعين الاعتبار، ثم تُكوّن في نفسها ملفا تراكميا شخصيا عن كل فرد قبل أن تنفتح عليه، لم تشعر مطلقا بعجز في هذا المجال، كانت تعرف دائما أن أشدّ البشر عجزاً هو من عجز عن اكتساب الأصدقاء، وأن الإعاقة الجسدية أهون من الإعاقة النفسية، فالجسد مرتبط بمكان محدد وللروح فضاء لا نهائي تسبح فيه.

كان لأغلب الزملاء محبة تنبثق عن القيم التي يحملونها، إلا أن للشاب العراقي كاظم وقع مختلف في نفسها بدأ يسري في جوانحها مع الوقت، فرغم حركته في كل أنحاء المطعم إلا أنه يتباطأ في مشيته متكلفا حين يمر أمامها، كان يتحدث ويوجه الجميع بملاحظاته الدءوبة التي لا تنتهي أبدا وبإشاراته التي لا تتوقف ولكنه يقتصد في حديثه معها، تراه أمامها كثيراً إلا أنه يدير لها ظهره غالبا، فهو حاضر غائب، أصبحت تراقبه ويراقبها خلسةَ كالسارق وكأن كلا منهما يترقب الخطوة القادمة من الجانب الآخر، مشاعر وأحاسيس متباينة تنتابها كلما مرّ طيفه سحابا نديا أمامها!

" آهٍ كم أتمنى أن أقبلَه، وأن يهبطَ مساءً بسريري، يشاركني حتى ذلك الفيروس، كي نحيا أو نموت سوياً".

بعد إجازتها الأسبوعية والتي حُددت سلفا يوم الثلاثاء، أقبل عليها كاظم في الصباح الباكر، وبعد تحية صباحية مقتضبة، وضع على المنضدة قصاصة من جريدة بانكوك بوست، وقال:

-بريسانا، بإمكانك أن تحطمي العالم.

ودون أن ينتظر ليسمع ردّ التحية أو التعقيب، تركها تغص بكلماتها، فلم تنطق ببنتِ شفة!

" هل عرف عن مرضي شيئا؟ ربما بحث في دفاتري السابقة، لا بد أنه يفكّر في الاستغناء عن خدماتي في هذه الوظيفة! كم تمنيتُ أن أُوقعه قبل هذا".

بحذر الخائف القلق، أخذتْ قصاصة الجريدة بكلتا يديها المرتجفتين ....

" تمكنت السباحة الجنوب أفريقية ناتالي دوتيوت (وُلدت في 29 يناير 1984) من أن تكون مثلا أعلى في تحدي الذات والتغلب على المصاعب وتذليلها، فكانت تعاني من مرض الربو في طفولتها، ولعلاجها، قرر والداها تعليمها السباحة عندما كانت في السادسة، وفي البداية كانت ناتالي تخشى السباحة لأنها لا تعرف فنونها، ولكن بمرور الوقت أصبحت تتقنها، وفي الرابعة عشرة من عمرها، بدأت في تحطيم الأرقام القياسية المحلية.

وفي الثامنة عشرة، تعرضت إلى حادث مروري أفقدها إحدى رجليها وهو ما تطلب استخدامها لرجل اصطناعية بعد عملية معقدة، وفيما كانت أغلب الحالات المشابهة تستغرق عاما ليعود المريض للمشي، تمكنت ناتالي من السير مرة أخرى

بعد خمس ساعات فقط من إجراء العملية الجراحية وبعد ستة أسابيع عادت إلى ممارسة السباحة.
شاركت ناتالي في الألعاب الأولمبية للمعاقين في مدينة مانشستر الإنجليزية وتمكنت من تحطيم رقمين قياسيين في 50 و 100 متر سباحة حرة وهو ما دفعها للمشاركة في الألعاب الأولمبية الرسمية التي استضافتها أثينا العام 2004.
تؤكد ناتالي أن كل إنسان يمكنه التعلم من التجارب التي يمر بها في حياته ولابد أن يسخرها لمصلحته وأنها تكره الشعور بالعطف تجاهها، وهي تتحدى حالتها النفسية دائما بالبقاء في الماء.

أصبحت ناتالي نموذجا عالميا للجميع وللمعاقين بصورة خاصة، فهي متحدثة رائعة لبقة ومؤثرة وتطالب الحكومات المتعاقبة والمنتخبة في بلادها بمراعاة حقوق المعاقين في توفير الدراسة وفرص العمل".

*****

كان أكثر ما يغيظها حقا هو الإحساس بالعطف والرأفة التي تلامسها في عيون الآخرين، والشفقة عدو الثقة، وهي إحدى أكبر العوامل التي تقف عائقا لعودتها إلى نفس الإنسان ومن ثمّ يتوقف قطار الأمل لديه ويمسي من الصعب بلوغ هدفٍ كان قد رسمه في خارطة وهمية لحياته.

أدركتِ الآن لماذا يشيح كاظم بوجهه عنها ولا يريد النظر في عينيها كما فعل أول مرة خلال المقابلة الأولى، وعرفتْ لماذا يحوم حولها كالنحل دون أن يقترب أكثر، وأدركت رغبته الجامحة في أنٍ يراها كما يريد هو: إنسانا بلا إعاقة أو منغصات، قادراً على هدم الصعاب.

في صباح اليوم التالي، فوجئتْ حين طلب منها أن تُرافقه للعشاء في مقهى دي ساليل القريب من محطة قطار ثونغلور (Thonglor Skytrain)، وفي الهواء الطلق للمطعم جلسا في أقصى اليسار بالقرب من بركة السباحة التي يرتفع سورها الأزرق فوق سطح الأرض بما يقرب المتر.

وعلى أنغام الموسيقى الحية تناولا العشاء المكون من فطائر محلية مكونة من الحليب، البيض، السكر والموز بالإضافة إلى شوربة "توم يوم كون " الشهيرة والغنية بالبهارات والبحريات.

لم يتناول طعامه بل ظل شارد الفكر كأنما سحرته الموسيقى ومسّه طائرها، يكاد يلامس القمر ببصره لقوة استغراقه فيه، طرقتْ بالملعقة على الطاولة مقلدةً إيقاع موسيقى فولكلورية لكسر حالة السرحان والجمود تلك، أشاح بوجهه عن جرم القمر ونظر ببطئ إلى وجهها القمري وقال:

-قادر، ألا زلتَ تحبني؟

-نعم؟

-هل تذكر فصلنا المدرسي وتلك النخيل الباسقة والمتراصة التي نأكل رطبها الأحمر والأصفر؟

-أنا؟

-وبعد يومين، كاد الفرات يبتلعك في صباح ذلك الجمعة، كان يوما جهنميا بحرارته.

-أيضا؟

-قادر.. أقصد بريسانا...

ثم وضع يده اليمنى على جبينه محركا إبهامه وسبابته بصورة بيضاوية أعادته لمكانه وعالمه الآني..

-عما تتحدث يا كاظم؟
-بريسانا، كيف وجدتِ العمل لدينا؟
-ممتعا.
-هل تحبِين التعامل مع الزبائن؟
-جدا.
-أي الجنسيات تكثر لدينا وتسعدين بها؟
-كل العالم هنا، ولكني أظن العرب أكثرهم.
-بالطبع، فأغلبهم عرب.
-وماذا؟
-أتمانعين لو أعطيتكِ اسماً عربياً مستعاراً؟
-لماذا؟
-ليناسب عملك والسياح ويشعرهم بالألفة أكثر، لدينا الأكلات العربية والوجبات الحلال، نفكر أن يكون موظفونا بأسماءٍ عربية مستعارة.
-وأي اسم اخترت لي؟
-قادر، سيكون اسمك قادر.
-ولماذا هذا الاسم بالذات؟
-يناسبك أكثر، بل اسم يرتديك ويعنونك، يُثبِتُ قدرتك على الصمود دفاعياً وعلى غزو القلوب بطلعتك.

بعد عشاء البطون الذي لم يأكلا منه شيئا، سرقا نفسيهما منه فركبا سيارة الأجرة الحمراء ذات العجلات الثلاث التي تسمى بـ (التك تك)، طلب كاظم من السائق ذي اللحية المبعثرة أن يأخذهما إلى نهر "جاو برايا" الذي يقطع العاصمة طولا وعرضا بشراييِنه الفرعية كأنه إخطبوط يمد أذرعه في كل مكان، تتقاتل العمارات الشاهقة على ضفتيه لعلها تنعم

بمائه الدافئ، وتكثر فيه القوارب الصغيرة والكبيرة، أما الجسور العلوية فإن البشر راكبين وراجلين يقطعونها كالنمل في الاتجاهين، تكاد تخلو ضفتاه من السواحل العامة التي تعود ملكيتها للخواص من فنادق ومقاهٍ ومتاجر وملاهٍ ليلية إلا فيما ندر، اقتربت منه أكثر ولا مس رأسها كتفه تسأله كمن يتسول إجابة ما...

- لماذا أنت في بانكوك ومنذ متى؟

لم يتردد كثيراً:

-منذ بضع سنين، جئتُ أبحث عنك وعن حياة آمنة.

-هل وجدتَ ضالتك؟

-القيم نسبية... والكمال مُتوهّم.

بعد أكثر من عشرين دقيقة، افترشا التراب جالسين على شاطئ هُيألرياضة المشي، كان كاظم كعادته يطيل الصمت متعبدا إذا نظر في عينيها اللتين تعيدانه إلى حبّه البغدادي الأول، فيطرق لمناجاتها بصوت منخفض، يبحث عن سرٍ فيها، وإن أشاح بنظره عنها فإنه يعود ممسكا بيدَيها ومحتضنا إيّاها أحيانا أخرى، كأنه تائه في حلم يقظة، يتحدث فتستمع بكل جوارحها:

-قادر، أحببتُ كثيراً والديك وخاصة والدك.

-كيف؟ أنت لم ترهم ولم تقابلهم!!

-حقيقة، أقصد أن النخل الذي أثمركِ لابد أن يكون رائعاً في خصوبته.

-النخل؟

-هل يمكنني أن أزور بيتكم ثانية؟

-ثانية؟

-نعم، معرفتك زيارة أولى ولقائي بهم زيارة ثانية.
-تشرفنا.
-متى نذهب لزيارة والديك في الجادرية؟
-أين؟ نحن نسكن في منطقة رايونغ، على بعد مائة وخمسين كيلومترا من قلب العاصمة.
-أتذكر تلك المنطقة الزراعية جيدا.
-سنذهب إن أحببتَ في إجازتي الأسبوعية.
-لا تقلقي بشأن الإجازات أبدا.

أمسَتْ بريسانا تلك الليلة بين السماء والأرض، أخذ كاظم يتنقل بيسر كبير بين قلبها وعقلها كالرحيق، تراه يحدثها ويلامسها، يمسك بيدها ويداعب خصلاتِ شعرها، يقبض على رجلها المريضة فتنتشي، تشعر أنها سليمة فعلاً، معه لم تعرف العجز أبدا، ما إن يغالبها النعاس إلا وتراه مجددا في المنام، يلازمها حتى في أنفاسها، عندما تستلقي على يمينها تشعر بطيف يده يطبطب عليها، وإن فتحت عينيها فإن هالته تزيح صورة البرواز وتحل مكانها، عندما تفتح بابا تتوهم أنها ستراه خلفه، وإن ارتدت ثيابا تتساءل إن كان ذلك ما يعجبه ويفرحه... تهذي دائما متسائلة:

" هل ذلك حبٌ أم إعجاب؟ ألا يوجد عالم أو فيلسوف يعرف الحب علمياً، يضع له ضوابط وحدودا؟ كيف أدخله سجن قلبي فلا يخرج منه؟ إن كان ذلك حباً فقد أصبح عليه ملازمتي حتى في مرضي ... لابد لذلك الفيروس أن يعبث بجسدينا سوياً".

استيقظتْ قبل أن يمارس المنبه عمله اليومي، أصبح المنبه آلة غبية فعلاً، كمن يطرق الباب بعد الدخول، وكالمرأة

العاقر التي تهيم بحملها وإن كان كاذبا.. " لا أريد أن أتناول الإفطار في المنزل كعادتي، أرغب أن يشاركني فيه، أناوله بيدي ويُشربني بفمه ويشبعني بدفء كلماته".

إنه الحب لا محالة، فلم تعهد رجلا لم يكن هاجسه زيارة جسدها، العين الجنسية خادعة أحيانا فتحول القبيح حسنا... ولكنه لم يداعبها.. يريدها هي فقط، يرغب في روحها لا جسدها، رجل من كوكب آخر وزمن مستحيل، لم يرغب في شفتيها كنقطة عبور ولم تأسره أردافها الدفينة ولا صدرها الرماني، بل يداعب ويقترب ثم ينزوي بعيدا...

" لا أعلم إن كان يعرف عني شيئا، عندما يعلم بمرضي سيهرب لا محالة، سأصيبه بالمرض ثم أخبره!! أي حب هذا؟ لابد أن لا أهبه جسدي بل روحي، ولكن كيف سيكون الوصال؟"

قضية أزلية أخرى تخالجها... كيف تُسر المرأة بما في داخلها؟ بلسانها أم بقلمها؟ أم بفيض مشاعرها فقط؟

الجنس نتيجة حتمية وملازمة للحب، يسقيه ماءً كلما جفّ أو تبخر، يتطلب فلاحا متمرساً يعرف كيف ومتى يحرث أرضه ثم يتقن جمع ثماره، ولكن الحب غير المرتبط بالجنس هو حب نوراني، تسامى عن تأثير المادة، أعلن عن حالة الانفصال عن البهيمية والحيوانية.

الحب الصادق تغمره مشاعر ترفع الإنسان للكمال ولكنها تجد تلك الرغبة الحيوانية الأرضية متأصلة فيه فيَسير الإنسانُ مترنحا بينهما، وهو الوضع الذي يُؤثره من يمارس الجنس، لا يفضل البقاء في وضع واحد مستقر، هو استجابة

لوضع جسدي أرضي وآخر روحي سماوي ينتج عنه تقلبات وصراع سرير.

الحب مع كاظم لا شك هو حب سماوي لم تدنسه أوحال الأرض، مشاعر شوق وسعادة تغمرها وتُبقيها عاليا دون أن يجرها بجسده أرضا، حب لم تعهده أبدا، تمنته حزينةً عندما يكون معها وازدادت فرحا حينما لا يستجيب لندائها الداخلي، هي المرأة ... تُجل الرجل حين يصدها.

*****

عندما يكون الإنسان في قمة السعادة فإن الزمان والمكان يتعاقبان عليه ليلاً ونهاراٍ، لا يلتقيان أبدا، في الطريق إلى العمل في مطعم "فالابيلا" كانت كالسجين الذي يريد الفرار، حيث للمنزل قضبان يعيقها من كل اتجاه، وللقطار حديد ناري لا يأبه بالعاشقين، وللطرقات مغناطيس أقوى من المعتاد يجعل الخطى ثقيلة جداً، كل جزء لا يحن إليك إلا في تلك الأوقات، تريد أن تحتضنك وتبقيك بين جنبيها، يأخذ المكان حيزا مؤثرا فيتحكم بيديه الخفيتين في الزمان فيجعله بطيئا ثقيلا، ترى أن كل الأماكن أصبحت عدوا لك، لا تريدك أن تفلت من بين يديها.

وصلتْ قبل الوقت المعتاد، إلا أنها أحسّت أنها متأخرة جدا، وهنا لاعبها الزمان مداعبا وتنحى المكان، كانت تنتقل في كل الزوايا والممرات تبحث عن كاظم، حتى وجدته يعبر الممر الرئيسي مرتدياً بذلة فرنسية سوداء، وربطة عنق حالكة كسماء الصحراء حيث تتباهى النجوم فيها ببريق لافت، ولنظارته السوداء أيضاً غموض آخر يثير الآخرين للبحث والتقصي عما وراءها.

كان بخيلا في ابتسامته مع الموظفين زاهداً في مفرداته، يرد التحية بإيماءة خفيفة وبإصبعين مستقيمين وآخرين راكعين، مرّ أمامها دون اكتراث، وكعادته حدّثها بصدود مصطنع حين يشيح بوجهه ويختبئ خلف ظهره.

أصبح الوقت يمر وجلاً بطيئاً وهي تترقب مروره ثانية أو مهاتفة منه تطفئ نار الشوق وتخمد ثورة الترقب والانتظار.

جاءها اتصال من مكتبه خفق قلبها على إثره متسارعا وأصيبت برجفة شتائية غريبة، سقط الهاتف من يدها مترنحا على الأرض، التقطت سماعته وبصوت متردد مرتجف:

-نعم.

-الآنسة بريسانا.

-نعم.

-سيكون اجتماع الموظفين في الساعة الثانية عشرة، يرجى الحضور قبل عشر دقائق.

-بالطبع.

-شكرا جزيلا.

-شكرا..إلى لقاء.

أعجبها أسلوب المداراة الذي يتبعه كاظم ويؤثره في عمله، هناك فاصل شفاف بين العمل والعاطفة...

" لابد أنه يحب أن يغلف لقاءنا بشيء من الرسمية ليبعد الأعين ويخرس الألسن، يبقى للنجاح في العمل أمور يجب إتباعها، الفصل بين الرغبات الشخصية وضرورات العمل من أهم أسباب النجاح، سأقطف قبلة من شفتيه وربما أدعه يصطادني".

دخلتْ على السكرتيرة قبل الوقت المحدد في اعتقاد أقرب إلى اليقين أن كاظم ينتظرها وحدها داخل غرفة الاجتماعات، يتلهف لرؤيتها، وما إن طرقت الباب حتى أطبق الصمت عليها لشدة الانكسار.

رحب بها ثلاثة من الموظفين سبقوها للاجتماع، توقعت أنه ربما لديه خطط بديلة تزيد وقع المفاجأة التي يخطط لها..

" لابد أنه سيشير لانتهاء الاجتماع ثم سيختلي بي..أنا.. نعم.. أنا.. ولوحدي..."

جاء متأخرا خمس دقائق حاملا نظارته السوداء من طرفها بيده اليسرى، جلس في عرينه على كرسيه الكستنائي الفخم، وبدأ مرحبا بالجميع، بابتسامة لا تُرى من خلالها أسنانه، بدأ حديثه بعينيه متجولا في وجوه الحاضرين كعادته، يتفحص تقاسيمها وتضاريسها، ثم أصبح لكلماته مفعول الأمر تقبله الحاضرون بإيماءات خفيفة متعاقبة فيها الكثير من النفاق اللاإرادي.

كانت تنتظر أن تلتقي عيونهما ولو خلسة لكنه لم يفعل!!

وزّع المهام الجديدة على الموظفين ثم خصّها بالقول:

-بريسانا

-نعم .." ألم يقل البارحة أنه بدّل اسمي إلى قادر؟!"

-يجب أن تستقبلي الحاضرين وقوفاً، ذلك من الذوق العام.

-وعملي على الكونتر؟

-أعني إن لم يكن بين يديك ما تفعلينه.

-لك ذلك يا سعادة المدير.

كان صدوده كهربائيا لاسعا أجبرها على الابتعاد، وأعادها إلى الذاكرة الصلبة باعتبار أن الصد والهجران كانا سلاحين

فعّالين عند الإيقاع بفريسة ما، ما تعلمتْه في حياتها العملية أصبح خبرة تراكمية تجيز لها استخدامها عند الضرورة ولكنها لم تتخيل أن يتحول إلى نيران صديقة!

الحب مرة أخرى... ذُكر أن العشرة الزوجية تحول الحب إلى صداقة فيسمو أو إلى ملل فينحط، ومن أعراض هذا الملل صدود المحب... فكأنها تدرك أن تمنّع المحب هذا وهميٌ لا يعالَج ولا يقاوَم إلا بعدم الاكتراث، هو عمل يُقصد به إثارة زوبعة في فنجان وخير علاج له هنا هو غلق ذلك الفنجان براحة اليد أو ترك الزوبعة تذهب سدى وبلا رجعة في مهب الريح، حلٌ في غاية السهولة عند المنظِرين وقد كانت منهم يوما ما، ولكنك عندما تقع في شباك الحب وشركه فلا مكان للعقل والمنطق، تنسى مرغما ما علّمتك إيّاه الحياة، إن الحب ساحر فرعوني، يُبدي لعينيك صورة خادعة، فإما أن تكون لديك عصا موسى فتُبطله، وإما أن تذروه الرياح فتقتله.

من يقع فريسة للحب يصعب عليه أن يختار شاطئا يرسو فيه، يتيه في محيطه إن كان عميقا ولا يستطيع التجديف إن كان ضحلاً، كانتِ الداء والدواء في قضايا الحب، والآن، عندما أصيبتْ بالداء لم تجد مصلا ولا لقاحا.

عند خروجها من مكتب الاجتماعات، طفَرت من فمها عبارة: (لا كون) أي مع السلامة فجاءها الصدى من السكرتيرة:

-لنا لقاء يا قادر.

-قادر؟ أنا؟

-نعم قادر..ألم يمنحك الأستاذ اسم قادر؟

-بلى، ولكنه لم يخاطبني به في الاجتماع.

-كان اجتماع عمل، أظنك تفهمين ذلك.
-نعم، ولكني كنتُ أترقب سماعه.
-أكاد اقرأ ما بعينيك.
-لا يوجد بهما شيء.
-الحب لا يحتاج إلى كلمات حتى نعبر عنه، ولا يستطيع صندوق أمانات حديدي أن يُوصد بابه عليه.
- ..... تلعثمت .. ورحلت..
-إلى لقاء قريب يا ... قادر.

*****

قرّرت الانتقال إلى خطّة بديلة للوصول إلى أعماق هذا الشاب البغدادي الغريب، " يجب أن أُبارزه في معركة سرير، المرأة الفاشلة هي التي يُسعدها فتور همة زوجها، وكاظم أكثر من مجرد زوج وحبيب، كما أن أصدق الاعترافات هي تلك التي تلي الرعشة الجنسية، سأقتص منك!! وسأبدأ الخطة الجديدة بُقبلة استكشافية توضح ضمنا الرغبة في ممارسة الجنس".

التقبيل فنٌ تتقنه بجدارة فلابد أن يكون سلاحا نفّاثا مع كاظم..القبلة ليست رمزا عن الحب بل هي عالم مستقل بذاته، وهي ليست بابا بل مراماً وهدفا مستقلا بذاته .. نعم.. القُبلة قِبلة المحب.

آهٍ من القبلة!! نستشعرها بيسر في عين من نحب، فكأن للعين دائما قوة كهرومغناطيسية، وكأنها ستار مسرحي إن أزحته تستطيع مشاهدة كل الإنسان وتتغلغل فيه وصولا لروحه، تتحول من حالة معنوية إلى مادية، فمع الإيجاب

والقبول تبدأ عادة الشفة العليا في البروز والسفلى إلى الانحناء والاستدارة، ثم يسيل اللعاب ليروي جفاف اللسان ومحيطه، لعابٌ يحول الفم إلى أرض خصبة قابلة للزراعة، وما عليك، إن كنت فلاحا ماهرا، إلا معرفة وقت رمي البذور وموسم الحصاد.

انتظرتْ اتصاله حتى جاء الفرج بعد عسر القطيعة المرة، جاءها عبر رسالة تلفونية مقتضبة:

" عمري قادر، سأنتظرك في موقف السيارات الخارجي للمطعم في الساعة العاشرة مساءً.

أحبكِ

تحياتي: كاظم"

أدخلتها رسالته (المسج) تلك في نزاعٍ خفي جديد مع الوقت، أصبحت تتأمل الساعة كل برهة ودقيقة، تنتقل بين ساعتي الحائط وساعة يدها لعل إحداهما تُسرع الخطى ... رمت ساعتها من نافذة المكتب لعلها تتخطى حاجز الوقت، وقفت أمام المرآة متفحصة كل جزء من جسدها محاولة إعادة صياغته وتهيئته، وكلما أمعنت النظر وأطالته لم تجد نفسها في المرآة، لا تستطيع التركيز حتى في هيئتها، كأن المرآة لا تعكسها، إنها تحتوي صورة جافة ذابلة، نعم ... للمرآة فلسفة أخرى وعدسة مختلفة تفضح كذبنا، وربما لذلك أوجد الإنسان المرآة قبل الزجاج نفسه كأنه يبحث عن فضيحة .. ثم رددت بينها وبين نفسها:"ماذا فعلتَ بي يا كاظم؟"

أرخت عيونها حبالها، فسالت الدموع المحبوسة، وظهر خلالها بريقٌ من أمل ممزوج بخوف وترقب.

رنّ الهاتف معلناً مكالمة تلفونية أخرى من مكتب المدير كادت أنفاسها تختنق على إثرها:

-مرحبا..

-صباح الخير قادر.

-من؟

-سكرتيرة المدير.

توقعتْ أن يكون كاظم بجوارها، وسيقتلع منها السماعة. قالت:

-نعم

-لدي بعض الأمور التي تخصك.

-تخصني؟

-نعم، تخصك يا...قادر

احتارت يداها، فتنقلتا بسرعة بين شعرها وخدها حتى استلقت هائمة على صدرها...

-ما هي؟

-تعالي إلى المكتب الآن وسترين بنفسك ولكن بشرط.

-شرط؟

-نعم، أن يبقى الأمر سراً بيننا.

-لكِ ذلك، إلى اللقاء.

-وداعا.

همهمت مع نفسها:

"ماذا يريد؟ هل أقف أمام المرآة؟ لا أعرف شيئا الآن لكني سأذهب، سأحاول مرة أخرى، سأقاسمك حياتك وستشاطرني علّتي".

دخلت مكتب السكرتيرة التي كانت ترتدي تنورة سوداء ضيقة لا تستر ركبتيها وتنحسر جزرا وقسرا إلى الأعلى إذا جلست، وقميصا أحمر يبرز عظام الترقوة فوق كتفيها النحيفين، ويُظهر نهيراً مائيا دقيقاً وسط صدرها يفصل بين تفاحتين ناشئتين، تربط شعرها الأسود بصورة حلزونية في مفرق الشعر فيما يتدلى حلقان ذهبيان دائريان من أذنيها.

كانت تتحدث في الهاتف وتُدون بعض الملاحظات، لمحتها داخلة فأشارت واقفة بسبابتها اليمنى لتأخذ ظرفا أبيض وُضع على الطاولة البنية الصغيرة قرب الباب، بعدما رفعته بريسانا، غمزت السكرتيرة بعينها اليمنى لتقول صامتة: نعم، ثم أومأت برأسها للأعلى مرتين طالبة منها الانصراف على عجل.

ما إن أجلسها الظرف بطيئاً على مكتبها حتى فتحته بيد أصابها الزهايمر، وجدتْ فيه ورقة منسوخة (كوبي)، قرأت لها ترجمة (غوغليةً) مرفقة أكثر من مرة:

" حياتي قادر،

تحية لا يدرك معانيها إلا من يحمل قلبا مشطوراً كقلبي، وروحاً تائهة بين الأرض والسماء كتلك التي بين جنبي، ونفساً ثاكلة لا عزاء لها غير تأمل ذكراك، تمنيت أن يكون حبي لك كحب السبع للغزال يتلاشى بعد الصيد... إلا أن حبي مرض يصعب شفاؤه، وإذا اقترن بالعشرة والألفة أصبح سرطانا لا يعالج إلا بترا، أصبحتُ أراكِ حبيبة في كل نساء الدنيا.

كل الماضي كان أمسي، أستذكره دائما كتلميذ يهيأ نفسه لامتحان مفاجئ، أعيشه مراتٍ ومرات، وبالأمس عانقتك مجددا فعادت لي الحياة، بك أحيا وربما إليك.

قادر، لم أكن أتخيل أبدا أنما خلقت الأنهار لتروي ظمأ الأرض والإنسان سويا!! عندما تنهكني الحياة أذهب للنهر متأملاً، وكلما زادت تعاستي تعلقت به أكثر، أدخل يدي فيه فأتيه بك، وأُغطس رجلي فتنتشر فيّ، و أرتمسُ فيه فتحتويني، وكلما لطمتني موجة إلا واشتهيتك.

أحيانا، أتتبع مجرى النهر ومصبّه لعلني ألقاك هناك أو على إحدى ضفتيه كالحوريات، ولكنه يقف مشلولاً حائراً عند البحر فيختلط الزلال بالأجاج، أختلط بحلاوتك وتعكر صفوَك الدنيا بدناءتها، فأتيه مجددا في السماء، آهٍ يا وجعي..حقا لا ندرك قحط السماء الطويل إلا إذا أمطرت يوما ما.

قادر، أليست للنهر قدسية دينية لديكم؟ سنرحل له إذن، لعلّه يهبنا الحياة..أو يلقي بنا بحراً فتغرق أجسادنا، أو سماءً فتتيه أرواحنا.

قبلاتي ... كاظم

بريسانا

تساءلتْ حائرةً، "أحقا هو من كتب هذه الرسالة؟ أهي لي أنا وحدي؟ هل كان سيرسلها لي؟ لا أعتقد، ولكنه يذكرني باسمي .. اسمي المستعار، بالطبع هي رسالة موجهة لي، أجهدت نفسها السكرتيرة مشكورة على ترجمتها، ولكني لم أعرفه أديبا بارعا أبدا!! أعرف أن الأدب، شعرا أو نثرا، هو روح، أما الأسلوب فمكتسب يأتي بالتدريب، إذن أنت تملك روح الأديب يا كاظم، أراك كاتبا ناجحاً،أليس الكاتب الناجح هو الذي يثير فضول القارئ؟ لقد فعلتها بحرفنة متقنة، سنتجه للنهر مساء.. يا لسعادتي بك".

وضعت رأسها بين يديها تبحث عن نجوم السماء لعلها تُطربها...

" لابدّ أنه يخطط للسباحة في النهر، كم أحبك يا كاظم، ولكنه يتحدث عن ديننا، عن بوذا المقدس، لقد أحبني فعلاً وصار يبحث عن مقدساتنا، عن ماء النهر .. وربما سيطلب مني زيارة بعض المعابد التي كرهتها بسبب ذلك الراهب، ولكن الحب الصادق يدفعك أن تحب ما يحبه محبوبك، وكلما سما الهدف زادت المشقة، سأجتهد في ذلك، إنه يبحث عني وعن كل ما أحب، وهبتك نفسي يا كاظم مجددا".

لم يتأخر كعادته العربية، بل وصل قبل العاشرة بسيارته التويوتا البيضاء الخاصة، خاطبها باسمها الأصلي:

-بريسانا، مساء الخير.

-مساء الحب.

-هل تناولت العشاء؟

-أنتظرك.

-هيا، النهر أولاً والعشاء ثانياً!!

لم يُرهق نفسه كثيراً فكأن السيارة تعرف طريقها لوحدها، تغوص في الزحام ثم تنسل كإبرة دون اكتراث بما حولها، لم يكن يسير باتجاه النهر إنما كان يبحث عن فضاء، يتحول مساره تلقائيا نحو الفراغ، من يريد الهروب من نفسه يبحث عن ذلك الفراغ، وعندما يجده يتفاجأ أنه إنما يختلي بنفسه مجددا، هروب متوهم لأنه نحو الذات، كان صوت عبد الحليم حافظ دائما يرافقه:

"ستفتش عنها يا ولدي..
في كل مكان،
وستسأل عنها موج البحر..
وتسال فيروز الشطان.."

-حبيبتي

-نعم

-هل لا تزال النخيل والأشجار تغطي المدرسة التي كنا فيها؟

تدارك نون الجماعة فصحّحها مستغفلا: أقصد كنتِ فيها.

-نعم.

-إن للنخيل رائحة لا أجدها إلا تحت ظله، ولبلحه مذاق مختلف عندما تقدمه بيديك، قيل أنه من ثمر الجنة، وكأن الجنة أصبحت بجوارك فقط .. لا أحب إلا النخيل المثمرة لأنها تدلني عليك وتُشعرني بالحياة، لها طعم كطعم لعابك.. كم أزداد شوقا إليك.. وكلما قربتَ مني، ازددت عطشاً..

عجبا لتلك الكراسي التي جمعتنا!! وللكراسات التي تناسيناها..وللأقلام التي كتبنا بها.. كلها تكوّننا.. وتخلقنا من جديد.

أدركتْ شبه جازمة حبه وهيامه بها..كل حرف يهمس به يلامسها حقا..... " أحببت كل شجرة مررنا بجوارها، وكل قلم كتبت به، وورق قرأته أو كتبته..ولكني أريد قُبلته، إني أستشعره بكلماته ولكنني أريد أن أقبع داخله بتلك القبلة".

وضعتْ يدها اليمنى على كتفه ثم انتقلت مشيا على أصابعها إلى شعر رأسه، وتسلقت اليد الأخرى قميصه لتصل إلى شعيرات صدره..اقترب فمها منه، وبدأت تستشعر أنفاسه... " أرى في بقايا دخانه عطرا نفاثا.."

فجأة، كأنما استيقظ من سبات عميق، نفض رأسه ونظر إلى المرآة الأمامية..."هناك سيارة شرطة خلفنا، ربما توقفنا".

انقطع الشريط السينمائي، ولم ترَ أي رجل مرور يلاحقهما، قرر بعدها كاظم أن يضع نقطةً ينهي بها حلقة اليوم...تعلل بحاجته الملحة إلى النومفالوقت تأخر ولابد أن يستيقظ مبكرا غدا صباحا فلديه اجتماع مهم... كلمات تفسيرية لكذب فاسق.

*****

صباح اليوم التالي، وجدتْ رسالة أخرى على مكتبها مغلفة في ظرف توأما للرسالة الأولى، بالطبع كانت من عند السكرتيرة..."ماذا تريد هذه المرأة؟ لماذا تريدني أن أعرف كل شيء عن كاظم؟ هل تريد أن تتخلص منه فتبحث له عن حبيبة ما؟ لا يهم..الأكثر ضرورة أن أعرف كل شيء عنه" ...فتحت الظرف وقرأت الورقة الصفراء:

"حبيبتي،

الدنيا تبدأ بالبكاء وتمر بالعناء وتنتهي بالفناء، ومعكِ، يا روحي، بدأتُدنياي فرحا بكِ، وتيها بلقاءاتنا وانتهت في ظلام السراديب، رحلتِ بعيدا عن العيون وارتديت الظلام طلبا للنور والحياة، حتى صعبت الحياة عليك وتناوبت التجارب المريرة على وجنتيك، من يواجه الدنيا بظهره تدير له قفاها، فأعطتك أسوأ ما لديها حتى اغتالت أحبتك وتركتك شريدة.

تعلقتِ للخلاص بالمنطقة الخضراء فتحولت في وجهك سوداء لا تعرف لها قرارا.. عانقتِ بشرا من كل بقاع الدنيا فما تمتعوا إلا بجسدك وتركوك وحيدا حين احتجت إليهم ، كأن عاهات الناس كلها اختزلت فيك وحدك.
أراك بعيدا كلما اقتربت مني، أريد أن أقبلك، أضمك وأتذوقك مرة أخرى، أصبحتَ يا قادر كماء البحر، أزداد عطشا كلما شربت منك*!!*

محبتي يا مهجتي"

للرجل القدرة على جمع حُبين في قلب واحد شرط أن يكون أحدهما بازغاً والآخر آفلاً، فمن البلاهة أن يبقى مخلصاً لنجم أصبح ثقباً أسود ...

" هناك مساحة في قلب هذا الرجل، سأملؤها حباً، لا أعرف إن كنتُ حبه الأول أم البديل، ما أعرفه أن شلالاً من العواطف يجرفني إليه.. ومن الغباء أن تبحر في وجه التيار.."

أن تتقمص المرأة دور العشيقة أمرٌ لم يعد أحجيةً، بشيء من دموع التماسيح، وتمنعٍ يوحي بعفة عذراء، وابتسامةٍ نصفها غنج، وكلمات مخدرةٍ ... يقع بعدها الرجل في شرك غوايتها.. شرط أن يكون لديه كأس فارغ!

ولكن الأمر المعقد على المرأة هو كيف تخفي حبها عندما يكون واقعاً؟ حينما يتحول حبها إلى ممارسة... إنّ أصدق الحب هو أن تكون المرأة جارية طواعية لمحبوبها، تسقط حينها كل الوثائق المزوّرة وتصبح المرأة غير قادرة على لعب دور البطولة، تُمسي نصاً أدبياً جامدا يابسا ليس به أي بلاغة تصويرية ولا موسيقى شعرية.. وتصبح معادلةً كيميائيةً لا تحمل إلا نتيجة علمية واحدة.

كل من يجاور بريسانا يعرف أي عشق يخالجها الآن، والعشق لابد أن يكون مراً وعذاباً، اقترن منذ الأزل بالفراق والمطبّات، ولا يعالج إلا وصالاً..

من عمق خبرتها التراكمية، وجدت نفسها تتحين الفرصة كاللبؤة لتوقع كاظم في وصالها، لتنهشه وتبقيه جريحا لا يستطيع علاجه أحد غيرها.... ولحبها النقي هذا جانب آخر يعذبها أيضا... " لا أستطيع أن أورثه مرضاً يودي بحياته.." إنه العشق المتأرجح بينرغبات حب الذات وبين الفناء في المحبوب نفسه.

*****

دعاها زائرة أن تعبر بشقته الصغيرة الواقعة في الشارع الخلفي للمطعم الشهير، واتفقا على أن تمكث هناك حتى إدبار النهار قبل العودة للعمل مجددا، ترك الباب موصداً ولكن دون قفله فتسللت دخولا ولم تسمع غير نشيدٍ لم تفهمه:

"وطنٌ مدّ على الأفق جناحا
وارتدى مجد الحضارات وشاحا،
بوركت أرضُ الفراتين وطن
عبقريالمجد عزما وسماحة..."

تواصل غزوها للمساحة الفارغة باتجاه مدخلٍ آخر على يسارها يبزغ منه نور خافت يرافق ذلك النشيد، أطلّت عليه فوجدته منكباً على جهاز الكمبيوتر المحمول (اللابتوب)، عادت أدراجها باتجاه الحمام الخارجي لتغير ملابس العمل بأخرى زاهية فاضحة، تعطرت برائحة فرنسية مثيرة تسللت عبر الأثير إلى كاظم، أدرك أنها في الجوار، تسلل بدوره على أصابعه، وبعين واحدة رآها من الخلف، عاد سريعا إلى جلسته بانهماك مصطنع يقرأ ويدوّن..

-صباح الخير.

رفع رأسه وأعاده سريعاً...

-صباح الخير.

أقبلت عليه وهي ترتدي قميصا أسود بخطوط حمراء يصل إلى ركبتيها ، يبرز تفاصيل جسدها أكثر مما يستره، جلست على طاولته فانحسر القميص عن أحدى رجليها وسطع بياض

داخل فخذيها ...وضعت يدها على رأسه تداعب خصلات شعره القصيرة وتساءلت:

-ألم يعجبك عطري؟

-بالطبع.... ليس للعطر شذىً إن لم نحب، ولكن...سجل الحضور والغياب يثبت أن ستة موظفين هم من كثيري التأخير.

اقتربت منه أكثر وهو يضع خطوطا زرقاء تحت تلك الأسماء، كاد أن يدخله عطرها المركّز الزكي في غيبوبة وقتية، اقتربت بثديها الأيمن من وجهه وما إن رفع رأسه ينظر إليها حتى أصبح نهدها بحلمته الزهرية المتوهجة بين شفتيه، أغمض عينيه وتنفس عميقاً، حرّك أنفه حوله دائريا، وضعت يديها على كل رأسه تجز شعره فأمسك بخصرها وانتصب واقفاً في موازاتها، استدارت شفتاها تكوراً فلامسهما بسبابته اليمنى ليجد نفسه أكثر التصاقا بها.. تنهدا استعدادا للسقوط البديهي... صعقهما الهاتف برنة عزرائيلية أفسدت حلمها وهدفها:

-دع الهاتف، لا عليك.

-إنه مالك الفندق..لا بدّ أن أجيبه حالا.

أنهى المكالمة و أردفها بأخرى وهي تنظر إليه وقد تنحت همتهما جانباً:

-ما الخطب؟

-عراك معتاد بين أحد الزبائن السكارى وحارس الأمن.

توجّه متثاقلا إلى المطبخ يعد إفطار الصباح فسارت خلفه غيظاً من تكسر خططها على يد تلك المهاتفة اللعينة:

-كاظم، هل كانت تلك الموسيقى أغنية عربية؟

-لا، إنها النشيد الوطني القديم للعراق، العراق الذي ضمنا تحت جناحيه جميعا، برحيله قُتل كل الماضي، لم أعد أعيش إلا في ذكرى الحبيب.

... ذكراكِ أنتِ.

-أنا؟

-أقصد الماضي الجميل الذي أتاح لي اللقاء بقادر...بكِ، لولا سقوطه لما هاجرت لدياركم ولما رأيتكِ هنا.

لم تدرك بريسانا مرامه تماما فتاهت في إجابة مبهمة، الإنسان يبحث دائما عن أرض صلبة يقف عليها عند الحوار فيختار صخرة يستطيع أن يُطل منها على العالم، بحثت في دفاترها عن موضوع للحوار تستثمر به وقتها...

-ألا ترغب في الزواج؟

أثارته سرعة السؤال وأدهشه، لم يخطر بباله أبدا أن يرتبط بفتاة فكيف يتزوج "ليدي بوي".. فبادرها بسؤال تخيل أن تجيبه عليه بالنفي فيضعف وقع ردّه السلبي عليها

-هل يمكننا الزواج رسمياً هنا؟

-نعم يمكننا ذلك، ولكن لا بمسمى شريكين.

-وهل يوافق الإله بوذا على ذلك؟

-ديانتنا البوذية لا تمانع أن يقام هذا النوع من الزواج، شرط أن نقدم المنح للمعبد ونكون من ذوي السير الحسنة، يمكننا أن نتزوج في المعبد ذاته أو في أحد الفنادق الكبرى أيضاً.

صعقته الإجابات غير المتوقعة، أراد أن يضع عائقا آخر يتملص به من عقد الزواج..

-وهل يمكنك أن تغيري لقبك فتُسمي آنسة أو سيدة؟

-ذلك أمر ممنوع بتاتا، لأنني لا أحمل رحما أصلاً.

-إذن لن تستطيعي الإنجاب مطلقاً ...
-تلك مسألة أخرى...عندما نرتبط رسميا يمكننا أن نتبنى طفلا بصورة قانونية.
وليضع العقدة في المنشار...
-سنبقى حبيبين حتى نجد طريقة يمكننا بها الإنجاب، أعدك رجلا بذلك.
-وأنا أعدك أيضا.

*****

توطدت العلاقة بينهما بحبل متين، فالمكان عادة ما يدق أوتادا ويعمل الزمان على تثبيتها، العلاقات الإنسانية تتلاشى تدريجيا في مهب الريح كلما أصبح لكلٍّ منا موطئ قدم في رقعة جغرافية بعيدة فكيف وهما يتلاقيان في مبنى واحد أثناء العمل ويبيتان تحت سقف واحد، وجد كل منهما عند الأخر ما يسد نقصه، بريسانا عثرت على الحب الذي لم تؤمن به مسبقا، وكاظم رأى فيها امتداد حبيب، كان يتجلى فيها قادر بصفات أجمل، وجد حرية ما كان إبليس يتيحها له في العراق، أصبح للشيطان هنا دور هامشي فما عساه أن يزيد!! كان إبليس يتمنى منذ طرده من الجنة أن تختلط الأنساب فاستخدم الميل الجنسي الطبيعي في غير موضعه، جعل كل رجل يرى نساء الدنيا أجمل من زوجته، وهيأ الطرق واشيا حتى تصل رسالته.

ولكنّ إبليس هنا أحسّ بالعجز، أصابه الإنسان بإعاقة ذهنية مستدامة، كان يتمنى أن يواصل عمله في خلط النطف والأنساب، وإذا به يرى البشر يتزاوجون من نفس

جنسهم ولا أمل في الإنجاب، أصبح إبليس يفكر جديا في التقاعد المبكر فلم يعد عمله مجديا، أو أنه يتمنى الموت فيصبح لزاما علينا أن نقرأ لروحه الفاتحة.

تقاسما شقته كزوجين ووهب كل منهما شيئا من ذاته لشريكه، ينطلقان من تاريخ وأحداث متشابهة، هو يراها روحه التي زُهقت، وهي تجده رجلا من بين أشباه الرجال الذين عانقت أجسادهم وحلبت خصاهم، أصبح يربطهما سرير واحد وأحلام واحدة ولكن دون عقد زواج رسمي.

بعد شهور عدة، حيث الحياة تحملنا فوق أمواجها، أصيب كاظم بحمى دائمة أدت إلى ارتفاع في درجة حرارته، أفقدته الشهية تدريجياً فزهد في غذائه، وأصبح أكثر خمولاً وأقل نشاطاً، حتى أمسى جسده هزيلاً كعود خيزران، صار يابسا وقابلا للكسر، نُقل بعد أيام معدودات على إثر ذلك إلى عيادة خاصة، ولكن الحمى أصرّت على تحيُن الفرصة لزيارته كلما توقف مفعول الدواء، أجبره ذلك المرض الغامض على الدخول في دهاليز الغياب المتكرر عن العمل، فاستاء ربُ العمل لذلك وبحث عن وسيلة مُرضية لفصل كاظم عن العمل... وكان له ما أراد خلال شهر واحد فقط.

تيقنت بريسانا أنها هي ـ ولا أحد سواها ـ من نقلت إليه المرض اللعين ... " لماذا لم تظهر عليّ الأعراض كلها رغم إصابتي به منذ زمن طويل بينما أوقعه المرض سريعا و أقضّ مضجعه؟".

قيل إنّ الروح ترتدي الجسد قميصا، ورغم أن مصدر الأرواح واحد إلا أنها ترتدي قمصانا مختلفة، ولذلك وجد الطويل والقصير، الأبيض والأسود... وهذا القميص تختلف

ماهيته، فإما أن يكون قويا صلبا فتزداد مقاومته للنزلات أو يكون هشاً يقصمه حتى الظّلُّ.

عملت النفس اللوامة بكل طاقتها عند بريسانا فاستاءت من فعلتها الشنيعة... " كيف سأخبره أنني عبر جسر الحب وباسمه نقلت إليه ذلك المرض الخبيث الذي صار لم يتعدّ في علاجه إطالة مقاومة المرض دون الفتك به؟"

هناك ضربان للحب، أحدهما أن تحب ذاتك فترغب لها ما يرضيها ويكملها وتتوهم حينها أنك تحب فيها الآخر ولكنه حب يروي ظمأك..وهو حبٌ مذموم على شيوعه، وهناك حب الآخر لذاته في ملازمة لإنكار الذات، وهو حب محمود على ندرته..

أدخل الإحساس بالذنب بريسانا في نطاق الخوف كلما تألم كاظم وتأوه أمامها، جلست على جانب سريره وهي تضع كمادات الماء البارد على جبينه كمحاولة يائسة لخفض درجة الحرارة، حدّثها كمن يحدث نفسه:

-لم أُصب بهذا المرض من قبل قط.

-ستشفى حتماً بعد الفحوصات الطبية الشاملة التي ستجريها في مستشفى العاصمة العام.

-الفحوصات السابقة كلها سلبية، لم تثبت أي شيء!!

وقفت وكأن الدنيا تعصر حيرتها فوق رأسها.." كيف سأخبره؟ يجب أن أسدل الستار فلم أعد قادرةً على التمثيل".

-هل أُجريَت لك فحوصات مرض الأيدز؟

-كان الفحص شاملاً..ولا يمكن أن أكون مصاباً به.

-لماذا؟

-لم أقتحم سريراً مع سواك منذ قدمت هنا.
ازداد انصهار الذات لديها.." كم أنت مخلص ووفيٌ يا كاظم!"
المرأة تحزنها خيانة الرجل فتقابله بخيانة مضادة، ولكنها تسجد له وتُقبل رجليه إن قابلت إخلاصه بخيانة لم يكن يستحقها أبدا، يأتي ذلك كنوع من معاقبة النفس، والرجل الذكي هو الذي يستثمر هذه الزلّة في امتلاك المرأة ويُسير دفة حياته تبعاً لها.
-ماذا ستقول لو كنتُ مصابة بمرض الايدز؟
حملق فيها واشرأبت عنقه دون حراك في صورة صنمية، تلعثم حيث ارتبكت كل الحروف في مخارجها فهمهم بكلمات غامضة قاتمة غصّ بها حلقه فغيّبته عن الوعي ... وسقط مغشياً عليه..
أصاب الرعب بريسانا فترنحت على فراشه تستجديه أن لا يموت.. أحضرت عطرا ووضعته على أنفه مختلطا بدموعها، تحدثه لعله يسمعها:
-لم يكن خطأً مقصوداً، أصابني المرض ولم أكن أعرف بهوأصابك ولم أكن أدرك أيضا، لك كل الحق في جلدي وحتى في قتلي إن أردت.
استيقظ واضعا رأسه بين يديه باكياً متخيلا مستقبله المعتم: " لم أكن مذنبا أو مخطئا معكِ أبدا، لا استحق ذلك".

*****

الشجاع هو من يواجه الخطر والصعاب ويهزمها لا من يهرب منها، لذلك قرر كاظم أن يجري وحبيبته الفحوص الطبية كاملة في المستشفى العام ببانكوك، اتفقا سويا على اقتحام حالة الجمود ومواجهة المرض شرط أن يبدأ ببريسانا

لأنها دخلت في دائرته أولا. فحوصات روتينية للدم والبول وغيرها تشم معها رائحة الموت وتستشعر الازدراء في عيون الآخرين، مشاعر تُقزمك أمام نفسك وتُحقرك أمام الآخرين، كأنك تحمل عارا على جبينك يَزيد أوجاع المرض، نظرات الرأفة والدونية أشد مرارة من المرض نفسه، تشعر معها أن جميع أعضاء جسمك بدأت تتخلى عنك وتعلن عن تاريخٍ محددٍ لاستقلالها، وما على المركز إلا انتظار ذلك الانفصال لتبدأ رحلة الضعف الذاتي والجماعي.

أخبرهما الطبيب المختص أنّ الفحوصاتِ كاملةً ستظهر خلال يومين، فلم تغمض عينا بريسانا خلالهما مطلقاً، حاورت دموعها وأحسّت بالموت البطئ حتى تيقنت أنها مريضة ومصابةٌ لا محالة، لم تكن قادرة إلا على شرب بعض المياه التي يحضرها كاظم، المرض الجسدي هو حالة امتداد طبيعي لوهم وهذيان نفسي، فقدت الرغبة في مراجعة الطبيب، فالأمر لا يحتاج إلى ذلك الجهد المضنيٍ لاكتشاف المرض وآثرتْ الانزواء والانكماش للداخل بعيداً عن رهبة وقسوة المتربصين. استحضرت الموت أمامها وكلما استيقظت وضعت يدها علىٍ صدرها لعلها تستشعر نبضات قلبها التي كانت تخفت رويداً رويدا.

أصرّ كاظم على اصطحابها إلى الطبيب مجددا فيما عجزت رجلاها عن حملها واضطربت مفاصلها وأصبحتْ عاجزة عن حمل أي شيء وإن كان كأس ماء، أحسّت أنها مصابة بالروماتيزم فكل مفاصلها تؤلمها، وبالزهايمر فما عادت تتذكر شيئا، بينما قيثارة النحيب تعمل بلا هوادة.

توجها معا إلى الطبيب كلٌّ منهما يحمل صاحبه لاستلام نتائج الفحوصات، أشارت لهما الممرضة بإصبعيها بالانتظار في آخر الممر، وبعد عشر دقائق برزخية وصل الطبيب ذو النظارة السميكة حاملا أوراقه ومعداته، أخرج بعض الوريقات وبلا أدنى اكتراث قال:

-هل أنت بريسانا؟

رفعت رأسها وعيناها للأرض.." ليتني لم أكن يوما تلك الفتاة".

-الفحوصات كلها سلبية.

-ماذا تقصد.

-لا أثر لأي مرض جنسي في دمك.

-أنت تريد مواساتي ورفع معنويّاتي، أسلوب معروف لدى الأطباء لإخبار المرضى، أسلوب بدائي حقير.

-الفحوصات كلها سلبية يا بريسانا.

بتنهيدةٍ من كل قلبها كادت تموت معها:

-هل أنت متأكد؟

-نعم، لا يوجد أي مرض جنسي لديك، كل الفحوصات سلبية.

فزعت من مقعدها باتجاه الطبيب ونهبت التقرير من بين يديه: "أرني.. دعني أقرأ بنفسي".

سقطتْ كتلةً واحدةً على الأرض دون إدراك، ولم تشعر إلا ببعض المياه الباردة تسري على وجنتيها وشيئا من الكحول قرب أنفها. تساقطت دموعها بغزارة لم تعهدها وعلت ضحكاتها كمن مسّه جان، كادت أن تفقد ما تبقى لديها من عقل، فضمّها كاظم إلى صدره معانقا والسعادة تغمرهما، لم تكن قادرة بعد على المسير لكنها شعرت بالحياة مجددا:

-لا أريد أية سيارة.
-دعينا نعبر كل شوارع بانكوك راجلين.
-نعم...أرغب في التهام جميع المأكولات.
-يا لك من مجنونة وشقية!

ساقهما الجوع فطرياً إلى مطعم شعبي لا يشبعان إلا فيه، رائحة الأكلات البحرية والمشويات تنفذ إلى المعدة مباشرة، أخيراً عرفت نعمة الجوع، فمن دونه لا نستمتع بالطعام، لا نعرف قيمته طعما ولا رائحة، أدركت أن تضرع المعدة واعتصارها جوعاً نعمة كبرى، أليس الجوع سر نجاح كل طبّاخ ماهر؟

أصبح كاظم أكثر تألقا ونضارة كلما رأى الفرحة على وجهها الجميل، تناثر الأمل أمامه وبدأ يبحث عن مصدر آخر للرزق بعدما أوصد الباب في وجهه أثناء مرضه، كان جادّا في البحث عن وظيفة جديدة، فعثر على فرص مختلفة للعمل ولكن دخلها المادي لم يكن موازيا لما كان يحصل عليه، دخلٌ لم يرض قدراته ولم يشبع غروره.

أما بريسانا فأعادت الحياة لشريط الذكريات تبحث بين جنباته عن مخرج تضع رجلها مجددا عليه ولكن إعاقتها تقف حاجزا أمام كل فرص العمل.

عرضت عليه محاكاة شركة زبونها التايلندي، رجل الأعمال الذي يدير شبكات دعارة في مناطق مختلفة من العالم، يعبث بخصي الذكور ويتاجر بمنيهم في استشعار ذكي للحاجة البهيمية للجنس.

وبدوره أعاد الشريط السينمائي لسرداب النونو وأخوته، لقادر وحمد وغيرهم، للجنود الأميركيين وجيوش قوات

التحالف.
-أين يمكننا البحث عن الطعم وعن الزبائن؟
-افتح النافذة وستراهم جميعا.
-الرجال هنا لا يبحثون عن واسطة تدلهم على الطريق.
-نعم، الطعم متوفر، ولكن يجب البحث عن بيئة تلتقطه بلهفة.
-مانيلا...
-مانيلا...الفلبين؟!

الفصل الثالث

مانيلا

وقع اختيار بريسانا لمانيلا بأمرٍ قدري وقضاء محتوم، وبالرغم من أن أشدّ الأوقات ظلمة هي تلك التي يرى فيها الإنسانُ الشرّ طريقاً وحيدا للخيرِ، إلا أنها كانت تبحث عن تربة جديدة خصبة تنبت فيها نباتاً حسناً، تنهي بها عناد القدر الذي تعودت منه أن يحرمها كل ما تريد، تصبح فيها بعيدة عن الشبهات، وتبحث فيها عن خطط لا محسوبة للإنجاب والحظ و لعبة (اليانصيب) حيث الفوز بجوائزها يُبنى على مدى إيمانك بالفوز بها، الأرض الجديدة تُلبسك حلّتها فهي لا تعرفك ولا أنت امتحنتها قط، تنتظر منك الخطوة الأولى وستباشر هي بوضع الإطار العام في رؤية استشرافية لمستقبلك وقدرك المحتوم، ومن يؤمن بشيء ما في عقله فإنه يتحول لحقيقة بالعمل الجاد، وبقدر ما يكون فراقك لموطنك صعباً وضنكاً، فإن التفاني وتدارك أخطاء الماضي كفيلٌ بأن يصورك إنسانا مختلفاً فوق تراب آخر.

استقل كاظم وبريسانا (التاكسي) في طريقهما لمطار سوفارنابومي الدولي (مطار بانكوك الجديد)، كانت شوارع بانكوك العنكبوتية تعبث في ماضي وذاكرة بريسانا التي لم يُمح منها بعدُ شبحُ جوناثان ذلك الغول الآدمي الذي توارى في الجزء الخلفي من الذاكرة وأصبح هاجساً يبزغ طيفه كلما مرّت بتذكار تاريخي أو جغرافي، يطل بوجهٍ شيطاني كلما خلدت هي بمشهد صفاء ذهني، لا ينفكُ يظهر خنّاساً كأنه من صور إبليس المستحدثة والمستنسخة، وللشيطان في

هذه الحالة صفتان متناقضتان، الأولى تشدك لتكرار الرذيلة ويجملها لك بإضافات أحلى وأشهى، والأخرى في محاولته العملِ عليك كالذباب يلعق الجروحَ وكلما أزحته عنك عاد مجدداً.

أصبح للجانب الآخر من كيان بريسانا مرارة شديدة استمدت طعمها من الفراقِ حيث تُقتلع الأشجارُ من جذورها فتبدو وهي تنفضُ تلك الجذور بحبيبات التراب كمن يذرف الدموع الساخنة، تلك الدموع المتقطعة التي تتحجر كلما تجمعت بقسوة إلى مستودعها، فلكي تتمرغ في التبرِ يجب عليك أن تتمرغ في التراب أولاً.

صارت اللحظة الفارقة نقطة عملاقة بين حياةٍ تكاد تزول وبين مستقبل مجهول لم يُبنَ إلا على الأمل المعقودِ للعيش بجوار الحبيب، ذلك الحب المتعالي الذي يُنكرُ فيه حبُ الذات ويذوب المحبُ فيه ويفنى بقرب حبيبه، حيث لا يبحث عن سعادته إلا حينما يروي بساتينه بفيض العطاء، ذلك هو الحقيقي الذي لا يغيره الوقت ولكن لونه يتغير بتقادم الزمن.

أقلتهما الطائرة محلقة في السماء المتخمة بالغيوم السوداء وكأنها نذير شؤم وبؤس لمن يخترقها، ولكن سرعان ما تجاوزا تلك الطبقة المتراكمة ليبدو الأفق الأزرق اللّا متناهي باعثاً على الأمل المعقود خيره بناصيتهما.

للترحال والسفر سطوة برزخية غريبة، فيها تتعلق الروحُ بين الحياة الأولى والآخرة، تنقلك بينهما بألم ومرارة، يكون الجزع بدايته ولكنه يتلاشى مع الزمان، كأن للمكان سطوة

وللزمان الكلمة الطولى، تبادل أدوار بين لا غالب ولا مغلوب، إنها مشاعر وكلمات من وحي الشراب.

بدأ كاظم وبريسانا يستشعران القادم المجهول، تتبادر لهما صورٌ مختلفة عن اللوحة المرسومة مسبقاً لتلك البقعة النائية من الكرة الأرضية، تلك التي نقش عليها اسمُ مانيلا، فهل تتشابه الأراضي في تربتها، في ملوحتها وسبختها، وهل هناك صلة أرحامٍ وتناسب بينها؟ ولماذا يُقال أن التربة الخصبة تُثمر انساناً أكثر خصوبة؟ وهل للبشر إنسانية مختلفة يتولد عنها انفجاراً أخلاقٌ متعددةٌ وقيمٌ شتى؟ تلك أفكارٍ المسافر وذلك هو اللغز السياحي الذي يُصاب به الرّحالة براً وبحراً وجواً.

بعد ثلاث ساعات ونيف، بدت الجزر الفلبينية البركانية متناثرة على الرداء الأزرق للبحر، تجتمع تارة بود وتتنافر تارة أخرى بحماقة أندادٍ وبراءةٍ طفولية، تلاعبت حمم اللّافا البركانية في نسجها فكان لها يد فنان بارع وريشة محترفة، ازدانت تلك الجزر بغطاء أخضر كثيف أعطى تناقضا وخداعاً بصرياً بين اللونين الأخضر والأزرق وتناوبت بقية الألوان بينهما، وكأنما بدأ يزيح الستار تدريجياً عن التكوين البشري لقاطني تلك الجزر، تكوين طبقي موازٍ للطبقات الجيولوجية الرسوبية.

حطّت أرجلهما في مطار نينوي أكينو الدولي[5] الذي عرَفا لاحقاً أنه على عكس الجغرافيا الشائعة يقبع في جنوب

[5]- كان المطار يُسمى بمطار مانيلا الدولي ولكن تم تغيير اسمه تقديرا لزعيم المعارضة نينوي أكينو الذي قتل في المطار على يد الرئيس فيرديناند ماركوس عام 1983 وذلك عند عودته من المنفى في الولايات المتحدة.

العاصمة مانيلا... فتساءل كاظم وقد وقع عليه هولُ الاندهاش بسبب ذلك الموقع:

-تستوطنُ الأحياءُ الراقيةُ غالباً الضاحية الشمالية في أكثر مدن وعواصم العالم، فلماذا اختار هذا المطار بالذات لنفسه ناحية الجنوب؟

-ربما هي طريقة مبتكرة.

-وربما ليواصل إبليسُ وخزَ هذه المدينة باستمرارٍ فيدفعها للفاحشة.

-وهل يستطيع الشيطان أن يفعل ذلك؟

-قلتِ بأنه الشيطان، دائما يشطُ ويخالف المألوف والمعروف ولا يخز إلا من الخلف، من الجنوب.

نظرت إليه بريسانا مبتسمة حذرة:

-هو أنت يا كاظم، لكل سؤالٍ جواب!

-انطباعٌ أوليٌ يدفعنا للحذر.

انطلقا من المطار كالأرانب التي تُصمَدُ عيناها قبل نقلها لأراضٍ جديدة ثم يُفتح لها قفصُ الحرية فجأةً؛ تسير نحو هدفٍ مشوش بقلقٍ بادٍ على عينيها، اتجها راكبين ناحية قلب العاصمة حتى كسر السائق رهبة السكون بسؤال بديهي معروف:

-إلى أين أيها السادة؟

عبث كاظم بشفتيه وهو يتمتم إلى بريسانا بحديث غير مفهوم، كأنه ينتظر إجابة منها:

-إلى إحدى الضواحي الشعبية.

-مثلا؟ لكما مطلق الحرية في الاختيار، أما الحرية عندي فهي احترام العقود.

-..... (اتسعت عينا كاظم ورفع حاجبيه تعبيرا عن الضياع)

-هل لديك عنوانٌ محدد؟

-لا، ولكنني أريد ضاحية شعبية بسيطة، يكون الإيجار فيها منخفضا.

-انتراموروس، تايتاي،مالاتي، بانداكان؟

تحت وقع المفاجأة وتدارك عدم معرفة الأسماء وبهيميتها، نطق كاظم الاسم الأخير تخفيفاً من وطأة المفاجأة والجهل بمسميات المناطق وإيحاءاتها..

-نعم نعم، هي آخر منطقة، با با .. بانداكان.

طلب كاظم من السائق أن يوصلهما إلى أحد مكاتب العقارات هناك ليبحثا عن سكن مناسب يكتشفا من خلاله المنطقة ويتخذانه ستراً وحجاباً لعملهما الحقيقي، أما بريسانا فلم تكن شديدة الفضول وذلك ما استحسنه كاظم من طباع فيها، كانت تؤثر الانكفاء على نفسها، فالمرأة شديدة الفضول لكل جديد تكره البقاء على حبيب واحد ومشاعر واحدة .. وهي تبحث عن زوج باهت الشخصية والرجولة ليسهل مهمتها.

*****

أسّتدل الحبيبان بعد بحث مضنٍ إلى أحد المباني السكنية التي منحتهما شيئا من الأمان بين جدرانها في غرفة واسعة بحمام صغير، لا تشبه خلية اليعسوب بخيلائها فالسرير يقبع منطوياً في الزاوية اليمنى ويزاحمه كرسيٌ خشبيٌ بدت عليه معالم الشيخوخة المتقدمة، وبجانبه طاولة صغيرة مربعة متعددة المهام والاستخدامات؛ تُمارسُ عليها رحلة النهار

والليل، تُستخدم سفرةً تارةً وتحفظ عليها أدوات الحلاقة والتجميل تارةً أخرى، وفي وسط الغرفة حُشر بصورة جهنمية تلفازٌ صغير على قاعدة حديدية أمام النافذة التي تقع في الجهة الرابعة والتي تُشرف متلصصةً على بداية الزقاق الطويل، غُطيت النافذةُ بستارة بنية داكنة معلقة من أطرافها تحاول جاهدة أن تمنع أشعة الشمس من العبور بلا رقيب.

اقتحم كاظم الحمام متأنياً مدققا وظلّت بريسانا تفحص بشدةٍ وسادتها بيدها وأنفها قبل أن تُسلمها رأسها المنهك من الترحال، تلك رحلة دائمة للبحث عن علاقة تخلق نوعاً من الصداقة مع المكان في عادة إنسانية غير محمودة؛ لأن زرع العلاقات مع الأشياء يجهدنا عندما نختار طواعية الابتعاد عنها!

ضمن مكونات شخصية كاظم العملية، لم يدع مجالاً للوقت أن يُداهمه، أصبح لزاماً عليه لا شعورياً وفي عقله الباطن أن يحدد أهدافه المستقبلية وكأنه طالبٌ في مدرسة تنمية مهاراتِ الذات الحياتية؛ وضع وبريسانا بسرعة وبدقة أهدافهما المشتركة في هذه المرحلة:

"بناءُ شبكةٍ نُحركها من تحت جنح الظلام، نديرها عن بُعد وتُدرُ علينا أرباحاً مجدية.."، كان ذلك في تحدٍ صارخٍ وفاضحٍ للمهام الموكلة لإبليس الذي استبشر خيراً بهما.

بعد أيامٍ معدودة من التقصي، كانت السماء تُمني مطراً غزيراً فتيقن أن الأرضَ ستخصبُ قريباً؛ قرّر أن يشتري عربة (رصيف) لبيع الملابس النسائية الداخلية، حذّرته بريسانا طويلاً من مغبة القرار المتسرع، إلا أنه كان على يقينٍ من أنّ القرار الأكثر صواباً هو الذي يحذرك منه الآخرون، كان يحاول

أن يشتري العربة بثمنٍ بخس فلعل المرأة الأربعينية التي تتمنى بيع عربتها القابعة على الرصيف المجاور تكون فيها من الزاهدين.

تمكن في البداية أن يراقب بيعها وزبائنها فوجدها تجارة رابحة لن تبور، تجارة مجدية تجذب زبائن الرصيف والمارة وتحثهم على نبشِ محافظهم بسبب زهد الأسعار وفلسفة العرض، وقفَ طويلاً أمام اللافتة الحمراء التي لا تحمل غير كلمة واحدة: للبيع.

ألقى التحية على المرأة وابتسم في وجه ابنها الذي يبدو أنه ناهز العشرين عاماً؛ فسكنت حركاته وهجعت أنامله .. اشترى منها (حمّالة صدر) وتفحص باقي البضاعة قبل أن يستدرجها لحديث عابرٍ استشف ما وراءه من معانٍ باطنية حيث للكلمة العزباء مبنىً وعنوان ..

-مساء الخير سيدتي.

-مساء الخير.

-أريد الشراء ولو بالجملة وربما أكثر.

-ماذا تريد؟

- بكم هذه العربة وما تحتويه؟

تريثت المرأة وعادت للخلف لعلّها تبحث عن جدية العرض وما وراءه، نظرت لمحتويات العربة، وبعد عمليات حسابية غير دقيقة وغير خاسرة أجابت:

-عشرون ألف بيسو.

-كم ذلك بالدولار؟

-مممم ... ما يقرب من 450 دولار أميركي.

-400 دولار فقط.

قطبت في وجهه فلم يكترث، كان لا يطلبُ الحاجة مرتين .. ففي الثانية مذلة، أجابته بعد لحظات:

- أوافق.

-ولكن لماذا تحاولين بيع تجارتك وهي تدر عليك مدخل رزق دائم؟

-قرّرتُ الفرار مجدداً من هذه الأرض وعدم العودة إليها.

-الفرار... النزوح، كلنا نجري في هذه الدنيا بأسماء مختلفة وهدفٍ واحد.

تحدث إلى نفسه هامساً:

- كالمستجير من الرمضاء بالنار.

كان بجوارِ المرأة ابنها كيفن يسترق السمع مصغياً لهم جميعاً وعيناه ترقب كاظم وبريسانا بلا كلل؛ كأنما طرق الزوجُ الغريبُ بابَ قلبه فانشرح له ..

أحسّ الشابُ بطمأنينة إليهما ورغب فؤادُه أن يجاورهما متوددا، طالعٌ حسنٌ قرأه قبل أن يعاينه، أحيانا نعاين أقدارنا بقرن استشعار غيبي وبعده نرى أنفسنا نسير لهدفٍ مرسومٍ سلفا، للإنسان قضاءٌ كقاربٍ ورقيٍ يُلقي به في نهر جارٍف وليس له خيار غير رفع شراعه ... الخطوة الأولى خيارنا والخطوات اللاحقة قدرُنا؛ فلماذا لا نُساءل عن تلك الخطوة الأولى فقط وتجلدُ الأسواط ذلك القدر الجارف؟ هل من يسيرنا الشراع أم النهر؟ تلك هي الحياة وذلك هو حال كيفن.

اكتملتِ الصفقة وأخذت الأم حصتها من المال فرحا وغباءً، فمن يشتري يربحُ المُلكية ومن يبيع يتبخر ماله خسراناً، كانت تأمل في الخلاص النهائي من شريك حياتها، تود أن تُغير اتجاه شراعها حتى لا يكون لهما نفسُ المصب، تمنت

أن يكون لها الخيارُ هنا ولو في انتقاء النهاية، ساعدها عملها المتواضع في اتخاذ القرار الصعب، إنّ حرفة المرأة تساعد في طلاقها، أصبحت ورقة ابنها أسلوبَ ضغط علي شريك حياتها الذي أصبح يكرر أن عدم تطليقه ليس عناداً ومكابرة بل حباً لها وتضحية لأسرته، فإن حدث الطلاق فلاشك أنه تعرض للاغتصاب.

المرأة التي تختار طواعية الهروبَ من أبنائها هي امرأة تحاول خنق نفسها لاستبدال ذاتها، كانت تدور حول نفسها تبحث عن أرضٍ صلبة تقف عليها وهناك ترمي بخيوطها مجدداً لتسحب ابنها بجوارها مرةً أخرى، يدور بخلدها الكثير من الخطط البديلة والأهداف المبهمة.... إنها صيرورة المرأة الأربعينية التي تحاول إبقاء شمعتها متقدة كلما شعرت بدنو أجلها.

*****

عندما سقط نيزك كاظم مخترقاً سماء مانيلا، وقع على تلك القطعة المحددة من ترابها، أصاب بشعاعه الشابَ كيفن في مقتل أدّى لانحراف سبيلِ مستقبلِه لاحقاً، استشعر حينها أن في قسوة المصائب تكمن السعادة، فهو بداية لم يُغيرْ من ديدن حياته إلا الفتات واللّمم، فقد أعجبته وسامة كاظم ذلك الرجل القادم من الغرب الآسيوي، صوتٌ خشن وهيئة ثقيلةٌ انقبض لها قلبُه، عريض المنكبين، لحية سوداء وكثيفة مرسومة بإتقان تبرز هلالين بين ذقنه وشفتيه، أنفٌ حادٌ كالسيف وعينان بابليتان واسعتان يظللهما جفنان قاتمان، عارضان ممتلئان برزانة؛ سمات عربية أصيلة تُعطي للرجولة هناك معانٍ واضحة المعالم.

امتدّ إعجابُ كيفن إلى بريسانا، إلى تلك الأنوثة المكتسبة المتمادية في تعبيراتها، الجمال الفاعل والمثير، جمالٌ قرأه في تباطئ خطوات المشاة والعابرين، تحولٌ أثارَ في نفس الشابِ رغبة دفينة وتوقاً إلى التغيير وحباً في الهروب من الواقع.

أصبح كيفن مع الوقت كثيرَ الالتصاق بالوافديْن الجديدين متحرراً تدريجيا من قيود والده المخمور والمنغمس في لذّاته ومبتعداً عن أمه التي تخطط بسرية إلى الهروب الكبير، وجدَ ضالته فيهما ووجدا فيه فريسة أولى أسلمت رقبتها بأمان وطواعية تبحث عن المقصلة، تلك هي المصالح المشتركة ظاهرياً وللطرفين أهدافٌ خفية كلٌ يرسمها بما أوحي إليه من حكمة وسليقة، وجدا فيه رغبةً جامحةً للبروزِ على السطح حيث الشغفُ بالشهرة غريزةُ الناقص.

استنطقاه تدريجياً ومثّل الكلمات الدامعة ردودا واستعطافا:

-أين تسكن ومع من يا كيفن؟

-مع أمي ولكن فراشي مع والدي.

-هل تتخذ من سرير والدك فراشا؟

-نعم ... فله رائحة خاصة.

استدركت بريسانا ذلك سريعا فهي تعرف بدقة أن الشاب في هذه الحقبة الزمنية من العمر يبدأ معه حبُ الاستقلالِ والابتعادِ عن المكوث في ظل والده، يبدأ أغلب الشباب في هذه الفترة النزوحَ هروبا نحو الشاطئ الآخر... ولكن للقاعدة شواذٌ جديرٌ بالتقصي.

-لماذا يبتعد والداك عن بعضهما؟

-كلٌ يبحث عن ذاته.

-وأين أنت منهما؟
-لستُ بينهما بل أصبحتُ بينكما، الابنُ في النزاع الأسري ليس له خيار، يُقذف به كما يَقذفُ السيلُ بالحجارة من علٍ.

صمتا سوياً صمتاً واجباً حيث أصبحت المفرداتُ خرساء والسكوتُ ذا تأثير استدراجي أقوى وبدأ معها كيفن رحلة الهذيان والاسترسالِ في سرد تاريخ سِنِيِّهِ القصار عددا العظيمة شأناً، سرداً يقصُ فيه رحلة حياته منذ طفولته حتى عنفوان شبابه الذي هو عليه الآن، سرداً ترك فيه الخيار للمداد يؤرخه ويؤطره.

*****

لقد اعتاد كيفن فيما مضى وخلال سنين طفولته المريضة ركوبَ قطار الحياة مع والده الذي لا يعود إلا متأخرًا، حينما يكون الخمرُ قد أخذ لبّه ورسم خيوطه على ما تبقى من عقله، فلم يرَ كيفن فيه حينها غير بقايا إنسان، فهو جسد بلا رائحة، وحيوان بلاهمة ولا رغبة، يرعبه حين يزأر مناديا باسمه بينما تغط الأم في نوم عميق لا تستطيع حتى قنابل ناجازاكي أن توقظها، فقد أشقتها لقمة العيش منذ الفجر ونخرَ عظمَها الوقوفُ على قارعة الطريق تبحث عمّن يشتري ما أجهدها طوال أسبوع لحياكته وتفصيله وما جادت به أيدي المصانع الصغيرة.

-كيفن، كي يو..هي يو..

زئير والده كان يخطف قلبه الصغير، فيسرع مهرولا باتجاهه ليبدأ بالمهمة اليومية، المساج بشقائه من أخمص القدمين حتى قمة الرأس، بينما يتصاعد شخيرُ الأبِ ليكسرَ

حاجزَ الرهبة والتأني، ثم تبدأ رائحة فمه بتخدير صغيره، فهو من يحتسي وكيفن من "يتخمر".

يبدأ مساج الفتى المعتاد دون إدراك، فكل ما يتكرر لا نشعر به، يبدأ من أصابع الرجلين حتى الركبتين، وينطلق متأنيا متلهفا في اتجاه الفخذين باطناً وظاهراً حيث يبدأ التجديف بعده نحو الشمال قبل أن يتوهم التوقف، ويسترسل في التجديف راكبًا الأمواج،فالاستمتاعُ في معرفةِ تضاريس جسم والده الضخم وبنيته يشد الصغير أكثر، فينطلق متمرسا للرأس، حيث الشعر المنكوش، فلا هو حرير ولا هو أجعد، قاتم برغم وضوحه، ثم يعبر مسترسلاً إلى الوجه حيث الشفتان ترتجفان وتبحثان عن شاطئ لترسوان، تشققات عميقة كأنها بقايا أنهار، فيما الصدر يتسعُ فجأة ليختزلَ عالمه قبل أن يلقي حممه البركانية بزفيرٍ جهنمي، بلا رائحة ولا طعم، فيجذب زفيره شهيق ذلك الفتى، ويتنفس على شاكلته وبطريقته، يعطي فيأخذ، في عملية مد وجزر لا متناهية.

أبهرَ كيفن قلمُ والده الذي قُذف به إلى الحياة، قلم منكمش على نفسه، يبث الحياة والروح في غيره ويعجز عن الكتابة بذاته ما لم يحركه زلزالٌ خارجي بمؤثرات مرئية ولمسية وحتى شمية.

شده في جهل كبير اكتشاف آلة وجوده وسر حياته، معرفة الآلة التي بصقته لهذه الدنيا، فلامسه بداية بظفر سبابته وأيقظه بإبهامه حتى استقام في مشيته واعوج في هيئته، أليس التقويم نتيجة للانحراف؟!

تساءل كيفن ونفسه طويلا..
-أهذا قلمي أم قلمه؟ أهو جزء مني أم منه؟ أهو سري وأنا ثمره؟ أيّنا البيضة ومن منا الحجر؟

أسئلة تحتار الإجابات عن صب حبرها عليها، زوبعة أسئلة، لقد تساءلوا عمن يحرك المرأة؟ الزوجُ أم الجنس؟ ومن يحرك كرة التنس؟ اللاعبُ أم المضربُ؟ أسئلة لاتصل نهايتها إلا لتبدأ الدوران من جديد ولكن في النهاية لا يجدرُ بالبشر إلا الإيمانَ بأنّ النارَ المستعرة لا تبدأ إلا بصغارِ الشرر.

تواصلَ العبثُ في قلم الوالد المخمور ليالٍ طويلة حتى أصبح عادة جُبل عليها الفتى دون أن يدرك أن يداً تمتد نحوه وهو في سباتٍ عميقٍ بينما يمنحنه التأمل إليه راحة مخدرة لا يعكر صفوها إلا استيقاظه الذي يميت ذلك القلم مجددا، فهما على النقيض لابد لأحدهما أن يغيب عن الحياة فيما الروح تُصب في الطرف الآخر.

كان كاظم يُنصت جيدا ولكن الحديث يأخذه بعيدا إلى ظلام بغداد الدامس، إلى أيام المدرسة التلقينية، تطوف به صورُ المداعبات الأولى، الفصلُ وغرفُ الدراسة المزعومة في البيت، النهرُ وحديقة الزوراء ... ولكن كيفن يلمحُ شرودَه ويحسبه تأثراً فيضع يده على فخذ كاظم لا رأسه ولا صدره ليهدئ من روعه!!

آثر كاظم الابتعاد والخلوة مع نفسه فقد مرّ بفكره طيفُ قادر ومسّه طائرُ الحب الأول، فالحب الأول يبقيك مراهقا حتى آخر العمر، جلس على الرصيف، استلّ قلمه والتقط قطعة كرتون قريبة فكتبته هذه الأبياتُ التي خطها بيمينه:

لا تغضبي مني فإني مثقلٌ ... والهم ناشبُ سهمه في مقلتي
ما عدتُ أبصرُ في الحياة بدونك ... والبدر أصبح مظلما يا مهجتي
يا من أزاح البدرَ نورُ ضيائه ... ليضيء قلبَ العاشقِ المتفتت
وغداً سأطفئ نجمة في مهدِها ... فالليلُ يفترسُ النهارَ لوحدتي
ظلّي على عرشِ القلوبِ إلهةً ... واستوطني روحي فأنت مليكتي
والملكُ من نعم الجليل لعبده ... وأنا وهبت الخافقين وعزّتي
أبحرتُ في ضنك المحول مخيراً ... ورجعتُ مهموماً أداري خيبتي
ما خلتُ أن الدهرَ يضحك هازئاً ... ويزين الدنيا ويفضح دمعتي
ويصوبُ الآهاتِ نحو كرامتي ... ويعيد لي الذكرى ليهتك بسمتي

كاظم/ مانيلا

أما بريسانا، فقد قذف بها سَردُ كيفن وهروبُ كاظم، قذف بها إلى الماضي القريب الذي لا يريد فراقها، انتابها مجدداً الخوفُ والغيظ من مشهد الاغتصاب الأول، من الألم التوسعي ومن النكبة التي دُفنت بجوارها سراً، ومن الهاجس الذي يراودها كلما شاهدت ابن الجيران قريباً منها.

إنها الأحداث التي لا يمكن لنا أن نتناساها، نحن نحذف من ذاكرتنا مالا نريد حذفه، أما الذي نرغب بمسحه فعلاً فهو يبقى لأننا نستذكره دائما وبلا حقوق حصرية في الاختيار.

*****

في مانيلا، عاصمة الخوف والحب، عاصمة العوز والسعة، تجدُ المتناقضاتِ متداخلة بلا تجانس، تكاد تمتزج ببعضها ولا تنصهر، يحافظ الكلُ على قانون الحياة بلا اختلاط؛ الدون يبقى في الهامش يسترق النظر ويشبعه الفتات، ومن في

اللب يتسلق ليصلَ قمة توهمها عقله الباطن، فلا منتهى ولانهاية للمطاف، مواطنون بلا وطن.

في الأزقة الفرعية لشارع سان أندريس بـ (بانداكان) الفرعية، هناك تضم بقايا البشرِ جدرانٌ شبه أسمنتية، وتظللهم أسقفٌ زائفة، تخترقها أشعة الشمس صيفا وقطرات المطر شتاءً، تصد النظر إليهم وتسمح للهمس أن يخترقهم، تحتضنهم هذه المكعبات فتعطيهم البقاء هباتٍ وزخات، يحيون بها وتبقى بهم حتى حين، يتعايشون مع بعضهم ولا يتزاوجون، يتنفسون من خلالها ويتوقعون أن تجهضهم في أية فرصة مواتية، بعد التسعة أو خلال حملها، العرفُ الاجتماعي هناك يُعد قانوناً غير مكتوب.

في هذه المدينة يفترش الناس قصورهم على الأرصفة وتُحترم الحدودُ والخصوصيات، فالرصيف يعتبر كالماء، أعز مفقود وأرخص موجود .. ولذلك فهو مشاعُ الملك، فللكل حق التملك دون الامتلاك، وللآخرين حق المرور لا الاستيطان، لك أن تمارس حرية في خصوصية مفتوحة، فالأعينُ تراك ولا تحدق بك، وتصلك ولا تلمسك، أما خلف الرصيف فيتعالى عالمُ السماء، دنيا مختلفة، تبهرك باحتوائها حياة لا تنتمي لعالم الرصيف بالرغم من الانتماءِ إلى المكان الأوسع، إلا أن حاجزَ الهامش يقف حائلا أمام توحدهما.

خلف ضاحية مكاتي الراقية بأمتار قليلة، تملأ السماءَ روائحُ شواء السحالي والفئران البيضاء، والعناكب والوجبات الشعبية ومنها الـ "بالوت" حيث يُشوى بيض البط قبل أن يفقس، وغيرها من الوجبات التي تغطي الشوارع المُكربنة

بعوادم "الجيبني" الصدئة وروائح المجاري النتنة، بينما تفتح مجمعات "أس إم"، "أيالا"، "أوميغا" و"روبنسون" وغيرها مصراعيها لاكتشاف العالم الآخر، العالم الباريسي، عالم التكنولوجيا والموضة والعطور، بثلاث خطوات صغيرة تنتقل من عالم أرضي عميق إلى نقيض متعال متراص، رواد العالمين من البشر الذين لا توحدهم غير الهيئة الآدمية، يتشابهون ولا يتناسبون، يتقابلون ولا يتفاعلون، فهم رواد يحملون مسمى البشر ولكن البون واسع وعميق.

*****

واصلَ كيفن اعترافاته الذاتية وكأنه يقصها بأسلوب تشويقي اكتفى فيه بسرد الواقع وترك الخيال لعينيك أنت كمتلقٍ، تنظر للحدث من زاويتك وتكمل رسمها بريشتك.

إن إدمانَ والده وضنك والدته لم يشذا عن قاعدة مانيلا، فتقابلا ولم يتفاعلا ببعضهما، تناسلا ولم يتحابا، فقررا الانفصال الحتمي والطوعي، انفصالٌ لم توافق الكنيسة على توثيقه؛ فاختار والدُه الجانب الآخرَ من الرصيف وأصبح كيفن يتنقل بين جانبي الشارع الضيق لينقل أخبارهما لبعضهما البعض، محافظا على بقاء الحبل السري، إن انفصالهما هو ابتعاد جسدي عاطفي لم يتمكّن من مسح تاريخهما المشترك، وهو شأن حتّم على كيفن ضرورة اختيار الرصيف الذي يغمض عينيه فيه، فاختار جانب والده ليكون قريبا من القلم الذي أحبه وعشقه فهو الذي بصقه لهذه الدنيا، فداعبه ورعاه ولعلّه يردُ له الجميل يوما ما، بينما حوّله إدمانُ والدِه إلى دمية أحس بها ولم تدركه، أحبها ولم تعشقه.

اختلس كاظمُ النظرَ لبريسانا، كان يحبُ السفر في دفتر أفكارها ومشاعرها، وصار يرى نفسه في مرآتها حين يفقد نفسَه، صارت علاقتهما نوعاً من التوحد.

سقط المطرُ غزيراً كحمامٍ سماوي، فغشيه اليمُ إلى الماضي الأليم، أخذ يقارن بين والدِ كيفن المجرم وبين والد قادر المسئول، أحدهما سلبي لم يعرف من الأبوة غير الإنجاب والآخر سخّرَ نفسه في نكران للذات من أجل رسالة تربوية مضنية، وفي الحالتين كانت النتيجة واحدة إلى حدٍ كبير، فلم يُنبتا نباتاً حسناً؛ إنها لعبة القدر مرةً أخرى، ليس لك إلا اختيار وضع شراعك وأن تتركه للقدر يُسيره كيف يشاء، قد تُلقي بنطفة واحدة ويكون حصادك متنافراً يحمل كلّ المتناقضات، سنةٌ سماويةٌ ليس للبشر حقُ المجادلة فيها فالناس أعداء ما جهلوا!

أما بريسانا فتعرف يقيناً أنها من اختار أين تضع رجلها إبّان الخطوة الأولى، كانت طواعية ولم يكن لأبويها حقُ الاعتراض ولم يكن لتذمرهما أيُ وقع على قرارها.

*****

في هذيانه السردي، تحدث كيفن عن فترة طفولته وعن مرحلة المراهقة وصولاً لكيفية تخرجه من المدرسة الثانوية بتقدير مقبول، وتسلق السنين الثقال عنوةً على كتفيه، أصبح الأمر ملحًّا عليه حينها كي يجد "غيرل فرند"، شريكة و صديقة وإن كانت كاذبة، وإلا أصبحَ شاذًّا عرفاً حيث الشذوذ شائعٌ بلا هوية ولا معنى، ينتشرُ ويتبادلُ أدوارَه مع القاعدة، حتى أصبح مفاخرةً أحيانًا، فالرجالُ هنا إما بصديقات وإما

بصديق من نفس الجنس، فالأمر سيّان، طالما "الكوبل" يأخذ ويعطي، يدق ويفتح.

أمست كاثرين ابنة التسعة عشر ربيعًا، وريثة العز والدلال، ذات الطول الفارع والعينين العسليتين، ناعمة العود وزميلة الدراسة الأكثر قربًا والتصاقًا بكيفن، فهي تعيش الوحدة حيث يحذر الآخرون الاقتراب منها بسبب ثرائها الطاغي وجمالها الأخاذ، ويخشون خدشَ حدودها المتوهمة، لكن نظراتها المتأنية والمتطلعة الدائمة شدته لكسر ذلك الحاجز وثقبه بالكلمات المنتقاة، الفتاة تأسرها الكلمة وتخترق قلبها فيما يعجز المال عن شراء لبها، فللكلمة سحر وللمال قشر.

أصبح أكثر قربًا منها بحديث القلوب المتلهفة حتى اقتربت الساعة ودنا القدرُ الذي دفعها لقبول دعوته في أحد المقاهي الشهيرة وإن كلفه ذلك مصروف أسبوع أو يزيد.

الحوارُ الذي يبدأ أخرسَ يكون أعمقَ، وبالكلمات يصبح أجوفَ، تسابق ونفسه على الحديث فما خرجت بنتُ شفة، تواصل معها مجددا بحديث العيون، بلمس اليدين ورجفة الشفتين حتى استرقَ سماعَ دقات قلبها المتناغمة مع دقات ساعة "الكوفي شوب" المعلقة على الجدار الجانبي.

انتهى اللقاء الأول دون كلام يذكر، بل بأحلام كبيرة وبأمانٍ كثيرة، تواعدا على اللقاء نهاية الأسبوع، ولم يعرفا حتى تلك الساعة من الذي دعا الآخر، ربما قلبه وربما روحها، كلٌ منهما ينتظر الجنس ويترقب قيامة الجسد.

مساء السبت اللاحق، تلامس كتفاهما باتجاه مُجمع "روبنسون" لمشاهدة الفيلم الأميركي الشهير "الرهينة" للمثّل الأميركي بروس ويلس، مشيا بتفاخر وتباهٍ فكلاهما توهم

امتلاك الآخر، وكلاهما خسر نفسه للآخر، تجردا ممّا علق بهما وكأنه الحبُ بعينه حين تنقلب المشاعر.

في تلك الليلة المقمرة، كانت الأمور تسير نحو المنطق والطبيعة، تجري لمستقرٍ لها، وبحكم العرف، فإن بعد الفيلم هناك وجبة "فاست فود" يتبعها شرابٌ يأخذ العشاق بلا جناحين إلى القمر، ثم غزل وغرام باليدين قبل الشفتين، احتكاكٌ يولدُ انفجارًا... تلك هي الحكاية بدون رواة.

اتجه وكاثرين دون هدفٍ منشود صوبَ الحديقة الشهيرة خلف المتحف الوطني في مانيلا حيث يقفُ رافع الهامة بطلُ الفلبين "ذا هيرو" في حديقة "لوليتا"، شامخًا بين الأعلام التي ترفرف بلا كلل، منتصبا باتجاه المحيط، ليذكر المشهدُ سكانَ السبعة آلاف ومائة وسبع جزر ببطل رسم الفخر والعزة لهم في محاربة الاستعمار الأسباني، بطل يصب رحيقه في دمك ليذكرك أن الطاقة التي تحملها بداخلك أقوى من السلاح والقنابل إذا كنت تؤمن بقضية ما.

تحدثت كاثرين عن البطل وكأنها تذاكر مقرر تاريخ الفلبين في أحد مقررات جامعة أي إم أي، وعلى استحياء نطقت وعيناها تحدقان بالبطل:

"دخل الدينُ الإسلامي أرخبيلَ الفلبين في القرن الرابعَ عشر عبر التجار المسلمين الصينيين والدعاةِ الاندونيسيين حتى توقف ذلك الانتشارُ الواسعُ والسريع في القرن السادس عشر على يد الأسبان الذين أرادوا تنصير شعب الفلبين ووقف التوسع الإسلامي، وفي تلك المعارك قتل هذا البطلُ "لابو لابو" المستعمرَ الإسباني ماجلان قبل أن نستعيد استقلالنا مجدداً من أيدي الأسبان والأميركان المتحالفين".

نظر كيفن إلى عيني البطل الشامخ، بينما كانت كاثرين تواصل سردها، أحسّ بوهج البطل يحركه، طاقته حررت شعبًا كاملاً مقاومًا، ألا تستطيع أن تجره وتحرره من قيد يتوهمه؟ دفعته عيناه إلى أن يقبض على أصابع كاثرين، فاقتربت صامتة، أدناها إلى صدره حدّ الالتصاق، شمّها فارتخى كلُّها، أللأنف خاصية غير الشم؟!... قبلات مصطنعة حتى غابت عن وعيها وتداعت، هام معها لثوان وغابت لدقائق، لكنه فجأة استيقظ على ذكرى قلم والده الذي لا ينفك يلتصقُ بمخيلته، في كلّ وقتٍ وحين؛ حيث اللذة الفعلية هناك، حيث ريح فاكهة الجنة تسلب لبه، وشهيقه يشدنّه عن بعد، احتضنه بخياله، فتراخت يداه محتضنة الفضاء، فسقطت كاثرين على الأرض بأجنحة كسيرة كما يتهاوى الشهاب إلى مستقر المنتهى، إنّ حياة الإنسان حقاً هي انعكاس لأفكاره في الماضي.

وقفت كاثرين غاضبة حانقة، استبدلت حمرة خجلها بجمر غضبها ، ولم يستيقظ كيفن إلا على لسعة كفها تكتب خطوطها على خده الأيسر، أسمعته قاموس مفرداتها السوداء، ونعتته بكلمات قد يستحي إبليس من ذكرها، فكيف للقلم أن يدونها؟!

موقعة كاثرين في ساحة "لوليتا بارك" تشبه المعركة مع الأسبان، هناك قُتلَ المستعمرُ ماجلان وهنا قُتل للأبد الرجلُ الذي زعم كيفن أنه كان في داخله، كانت تلك المعركة آخر محاولاته مع الجنس "اللّالطيف"، فلا رائحتهن تقربه ولا تضاريسهن تناديه، وتيقن أن ضروب الأقلام لقلم أبيه

النموذجي هو العطر الذي يستهويه، وهي قطار الخلود الأبدي، حيث الكمال والكأس الذي يروي جفاف الصحاري في نفسه، فيسقي الظمأ إلى حين ويلهث وراء السراب.

خلال الإصغاء، اجتاح كاظمَ ألمُ سقوط بغداد على أيدي ما كان يُعرف بقوات التحالف، سقوطٌ أعطى للناس الحرية السياسية والقدرة على الانتخاب والمشاركة في القرار ولكنه سلب منهم الخدمات العامة المرجوة من كهرباء وماء وغيرها، كما سلبهم الحياة الكريمة قبل ذلك، فالعراقيون هم وحدهم من يموتون بالصدفة فيما العالم أجمع يولد بالصدفة! تبادر إلى ذهنه سؤال يصعب على أغلب العراقيين وغيرهم البحث عن إجابة شافية له؛ أيهما أكثر أهمية الحرية السياسية أم الخدمات الأساسية؟ ومتى سيجتمعان؟ يتوقع الكثيرون أن اجتماعهما سيمحو سريعا ما يُعرف بالعالم الثالث، ذلك فعلا ما ينقص الشعوب المضطهدة .. خدمـــات

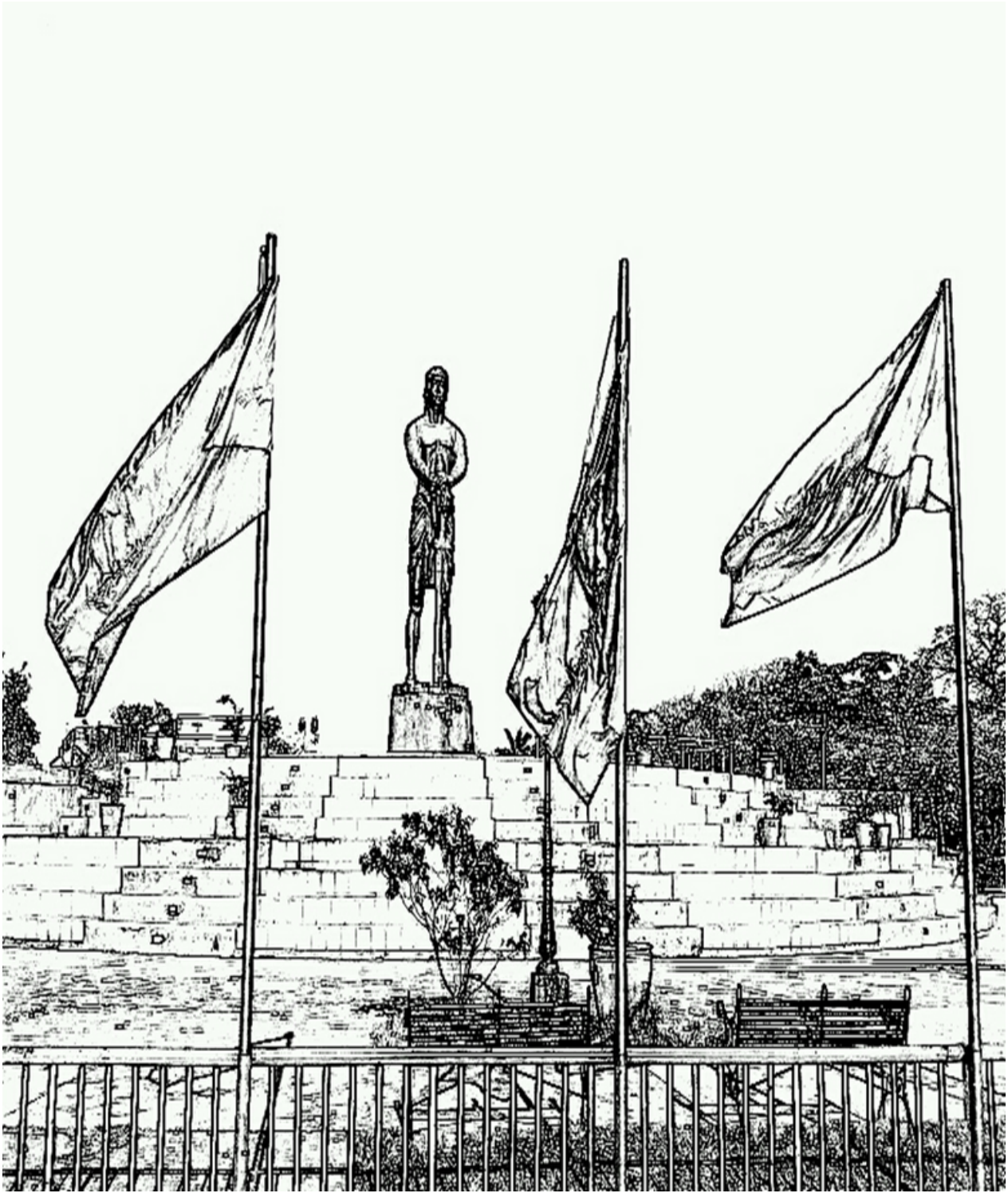

تمثال لابو لابو يتوسط حديقة لوليتا بارك

عامة وحرية سياسية تعني عالما متقدما فقد قيل: أعطني حريةً أعطيك فكراً راقياً.

ولكن بريسانا بدورها أصابتها مرارة سقوط مختلف، السقوط في توهم المرض وتداعياته على الجسد، ذلك المرض الذي زرعه الحيوان الأسترالي جوناثان، وهي شهادة حق تثبت أن الجسد مسرحٍ يُعرض عليه ما يدور في العقل البشري؛ فمن يعش سعيداً يبقى البهاءُ على وجهه، ومن يقنع بقوته تبرز الطمأنينة على محياه، فكما كثرة المعاصي تطرد الرحمة من القلب فإن الأوهام تطرد الصحة من الجسد.

*****

أثار انحسار كاثرين وانقطاعُ أخبارِها عن لسانِ كيفن حفيظة والده الذي كان يأملُ خيرًا في تجارة والدها، تساءلَ تكرارًا بتودد عاصف عن غيابها المبهم وذلك لمَعَزتها ولطمعه في جني شيئ من خيراتِ تلك الثروة، فهي كنز منشود، ولكن لم يكن لدى كيفن القدرة على المواجهة ولا المصارحة وإن تغيرت ملامحه كلما ذُكر اسمها، إن الوجه الآثم صورة للنفس السوداء، هو هروبٌ ممزوجٌ بخوفٍ لا ينمو إلا في الظل، وهو ما دفع أباه للبحث عن آثارها بنفسه، لعلّه يجد ضالته، فأجهد نفسه كثيرا حتى استدل عليها بعد عمليات التقصي في "كانتين" جامعة "أي إم أي" إثر مطارداتٍ واتصالاتٍ بوليسية.

في "الكانتين"، كان النقاشُ محتدما بين الطلاب حولَ الأسلوبِ الأمثل للكتابة الأدبية الروائية، فمنهم من يؤيد الإطناب الخيالي والبلاغي من أجل الوصول إلى الفكرة الرئيسة دون الولوج إليها بشكلٍ مباشر بل استنطاقها

بإيماءة، فيما تشدد لوسي، زميلة كاثرين، خلال حوارها مع زملائها "الأدباء" على أن الأسلوبَ الأنجع والأكثر جاذبية للروائي هو أسلوب الروائي الأميركي الشهير أرنست هيمنغواي مؤلف رائعتي "وداعًا للسلاح" و"العجوز والبحر" التي فاز عنها بجائزة نوبل للآداب العام 1954، مذكرة أن هيمنغواي أسسَ من حيث لا يشعرُ مدرسة تعتمد على البساطة المباشرة والجمل القصيرة والسلاسة في الوصول إلى الفكرة، وخلص آخرُ إلى نتيجة مفادها أن الأدب هو عملية عفوية لنثر الكلمات التي كلما اعتنيت بها كلما أينعت، النثر ومنه الأدب الروائي هو رمي للكلمات دونما تنسيق والشعر هو رسم بستاني، ومنهم من تطرق لما قاله الكاتب الإسرائيلي ديفيد غروسمان[6] حين سُئِل عن الشريحة التي يكتب لها فقال أنه لا يكتب إلا لنفسه.

احمرّ وجهُ كاثرين وتصببَ عرقاً عندما تفاجأت بوالد كيفن يقف أمامها بين الجمع منصتًا، فاستنطقت عينيه سريعًا ولم يستطع هو فهم شعاع عينيها المنكسر، دارَ حديث مشوش بين نفسيهما فيما كانت أذنها تواصل مسيرها قبل أن تتعرقل ويخيم السكونُ والقلق.

اختلسَ الرجلُ جلسة أمامَها على الطاولة البعيدة في لمحِ البصر، ودعاها بطرف رمش عينيه فتقدمت مذهولة بتردد، مبتعدة عن زملائها بتثاقل حذر، كانت تثق فيه دون اكتراثٍ لهيئته، فأخلاقك تبقيك في عقول الآخرين وشكلك يذهب

---

[6]- ديفيد غروسمان David Grossman كاتب ومؤلف وروائي إسرائيلي شهير يحظى باحترام كبير من قبل المناوئين للصهيونية، من أهم أعماله:
"To The End Of The Land" وكذلك "The Yellow Wind"

جفاء، سألها مباشرة عن بعدها وجفائها:
-كاثرين
-..... أجابته بنعم عبر حركة بسط يدها اليمنى.
-أين كنت يا ابنتي طوال هذه الفترة الطويلة؟
-الجامعة.. الدراسة.
-وما الجديد الذي يخفيك ويبعدك عن زيارتنا؟
-لا شيء.
-لا أصدق.

أشاحت بوجهها إخفاءً لمقلتيها ثم أعقبَ ذلك شرودٌ وذهول، ولكنَ للكبت ألمٌ يجرُ الدموع، فتفجر دمعُها بالرغم من المحاولات الجادة لإخفائه، وتنهدت كمن فقد الأملَ وتهاوى رأسُها على المنضدة.

-كاثرين!
-اسأل ابنك الوغد الذي .....
-ما به؟
-لا شيء
-كيف؟
-لاشيء حقاً، فقط تعلمتُ منه كيف أبصقُ الحبَ عند الضرورة!

غادرت كاثرين "الكانتين" على عجل، خجلا من دموعها، وهروبًا من مشهد السقوط المشين أمام نصب البطل الرمز.

*****

في مساء ذلك الاثنين الأسود من شهر أغسطس، عاد والدُ كيفن مبكرًا على غير عادته، حانق الوجه، مسودّ الجبين، رحّبَ به كيفن استعدادًا للمساج المنشود ولما وراءه من

هدف أسمى!! إلا أن قبضة الأب الثقيلة تهاوت على وجنة ولده الذي ترنح على الأرض مرتطمًا بالباب الخشبي ..

-ماذا فعلت بكاثرين؟

حملق بوجه أبيه ورسم الذهولُ جداوله على وجهه:

-لا أستطيع.

-ماذا؟

-أحبها ولكني لا أستطيع.....

-كيف؟

-لا أريد نساء، لا أطيق معاشرتهن أبداً.

وبصوت منخفض يجر أنينًا وحسرة على الابن الوحيد كمن يحاور نفسه:

-آآآآه، تحبني؟ أنا؟ وهل جربتني حيث لا أعرف؟ أم أنك تحب الرجال على النساء؟ أأنت شاذ!! خنثى وفاشل، يداك الرخوتان تخبراني منذ زمن بعيد، اسمع.. لن تستطيع أن تحقق نجاحًا في حياتك، وستبقى راكعًا طوال حياتك تستقبل السهام من الخلف.. لا أريد أن أراك، ابتعد، اخرج من بيتي يا..... أنت ابن أمك التي لم تحسن تربيتك.

غادر كيفن جحره المكعب باحثًا عن المجهول، عن وسادة تحتويه، وعن لقمة تملأ فاه، وعن بصيص أمل يفتح باب مستقبل قد لا يأتي. بحث عن أمه إلا أنها غادرت المنطقة، لا أثر ولا ظل لها، ولا أقرباء هنا إلا على الرصيف، حيث النهاية الحتمية. توجه إلى الشاطئ القريب لعلّ البحر يسمعه، يحس به، وكم تمنى أن تجره أمواجه إلى أعماقه، فيهنأ بنهاية هادئة، نظر للأفق البعيد فرأى شهاباً يجوب السماء سريعا ويموت

بسرعة أكبر، تساءل ونفسه دون إجابة: لماذا يغرينا ضوء الشهاب البارق أكثر من ضوء الشمس؟!

*****

توجه كيفن إلى زميلِ الدراسة جاك عند منتصف الليل وجلاً، لم يكن يعتبره صديقاً حقاً، تذكر مقولة لأمه: الصديق الحق لا يتغير فلا تتسرع في تسمية الناس بالأصدقاء. طلب منه مترددا أن يبيتَ معه حتى الصباح، كان يعرف أن الحاجةَ تُعري صاحبها أمام الآخرين، أبدى جاك ترحيبه به وكأنما كان ينتظر مقدمه ويتوقعه، توجه لاستئذان والديه كي يقضي معه الليلة في حجرته، وكان له ولجاك ما أرادا!!، غسلَ جسده، ولبس أحد معاطفه، أكل فاكهة، فأحسّ بالأمان المفقود وبدأ الحزن يأخذه سريعًا حيث بدأ ذاتيا يكتب أحداث قصته ويدونها في ذاكرته.

بعد كأس الماء الثاني، غالبه النعاس ابن التعب، فأخذ جاك بيده نحو سريره حيث اقترح أن ينام بجانبه بدلا من النوم على الأرض، وأرخى رأسه على وسادته، فيما لحافه الأزرق القطني ينشر دفأه على جسديهما، وعيناه تتجهان لزجاج النافذة ومسلسل القلم وكاثرين وأبيه مكتوب على السحاب البعيد وكل مانيلا قادرة على التدقيق في قراءته.

رائحة جاك تختلف عن رائحة أبيه المعتادة، فهي كرائحة البيض النيئ، تشمه ولا تشتهيه، تدركه ولا ترغبه. وتضاريسه ليست بارزة كقسوة منحدرات والده، وبرعمه نتوء صغير جاف ليس كقلم الحبر، ولكنه ناشئ يحتاج للري والرعاية قبل أن يثمر.

عندما وضع رأسه على الوسادة المجاورة أخذ يتقلب ذات اليمين وذات الشمال حتى استوى مستلقيًا على وجهه، هيئةٌ تبرز تلالاً وتهبُ الغاوين لذة التمعُّن، تظاهر بالنومِ والمصباح الأحمر يسلط أشعته الشيطانية على تلتيه، حتى شدّه المشهد وأغلق ستارة مسرحية والده العبثية، لينتهي هنا فصل من الرواية ويبدأ فصل آخر.

الفضول وحب الاستطلاع من طباعه مذ كان طفلاً بريئًا.. وهل كان بريئا حقاً؟ سقطت يداه على شعره ورقبته مبديًا رغبة في معرفة حرارة جسده، انتظر ردة الفعل إلا أن الصمت علامة الرضى، وبعفوية مقصودة أراح يديه على تلال صديقه، وكأنه مرَّ بتجارب عديدة سابقة، حتى شعر أن معه من يدله ويحركه، بل يمهد الطريق ويفرشه ورودًا، اقترب منه، والتصق به، التحفه وغطاهما لحافه الأزرق القطني، صارا عروسين، زوجين، يعشقان ويحبان وحتى يكرهان.

وفي هذه اللحظة السردية الحاسمة والفاصلة، أمسكت بريسانا بيد كاظم اليمنى تعصرها بحنان وحرارة لكنه ظلّ هائما في ملكوت قادره، يتأمل اللحظات التي توالت سيلا بعد لقائه بباسل وبداية مسلسل الهروب الحزين.

*****

في "صباحية العرسان"، ذهبا إلى الساحل سويةً، وعادا والفرحة بادية على جاك مؤكدًا على ضرورة بقاء كيفن معهم في البيت، فذهب مستأذنًا والديه وهو يعرف مسبقًا أنهما لن يردا طلبه، وهكذا استبدلَ كيفن بيته الخشبي البالي بفيلا ذات جدران أسمنتية، وأسرة مخملية، وغذاء دسم دائم، استبدل بها تلك البيوت المكعبة الخشبية.

منحت "علاقتة" بجاك والعيش في منزل أسرته الدفء الأسري والعناية الأبوية التى افتقدها منذ اختفاء أمه ورحيلها الأول، مدّا إليه يد العون، فأصبح منهم وإليهم، ويكفيهم أنهم لمسوا التغير المنشود في جاك، فقد أصبح أكثر سعادة وزاد إقباله وتركيزه على الدراسة الجامعية، فتبنيا ابنًا و"زوجًا" لفلذة كبدهم لعلهم يجدون مبتغاهم فيه.

وفرا لكيفن أرقى الملابس الباريسية، وغذاءً لم يحلم قط بتذوقه كل يوم، يشبعه النظر إليه، ويغنيه عن ريح الجنة المرتجاة، أتاحت له الحياة المترفة الكثير، صار يعرف (الإنترنت) الذي أدمنه تدريجيًّا، تناول الدنيا بين أصابعه حتى صار الممنوع غير مرغوب لكثرة المتاح وتنوعه، وسهولة المباح ووفرته، كل ذلك كان يرى كيفن مرده إلى كلمات البشر التي نستطيع بها بناء بساتين أنفسنا.

*****

بعد ثلاثة أشهر إلا يومين من بقائه مع جاك، أذهلته رسالة مذيلةٌ باسم أمه حملتها له إحدى المواقع الاجتماعية الالكترونية، أصابته الدهشة فهو يعلم يقيناً أنها لا تفقه شيئا في عالم الكمبيوتر وأزقته، فكيف لأمه أن تصل إلى الإنترنت؟! أثارت الرسالة شجونه وأشعلت رغبة جامحة في توسد حجرها، أصابه ذهول جهنمي قذف به مجددًا لشارع التسكع، ذهول أخرسه عن الكلام، الأخرس هو من ترجل عن فرس لسانه فهو مع الضالين، تمنى أن تمسح بيدها دموعه الحارة، وأن تعيده إلى رحمها وتطلقه ملاكًا طاهرًا، أن تقذف به في اليم عسى يد فرعون مصر تلتقطه وتكون به أرحم من

من سكرة والده وقلمه، من جوع الأرصفة وقذارتها، من شذوذ جاك وشبح كاثرين.

بعثت له أمه بالبشارة المقتضبة المُطمئِنة في رسالتها الأولى، أخبرته أنها تعمل في دولة أرخبيلية صغيرة في الغرب الآسيوي منذ حوالي شهرين، وفي أحد منازلها المترفة، تغسل وتنظف، تكنس وتزرع كآلة متنوعة المهام والاستخدام، تعمل كما يشاء صاحبها ويرغب، تنام وتستيقظ بحسب ميوله وحاجاته، تمكنتْ من اقتحام عالم النت بمساعدة ابن العائلة ناصر ذي الأربعة عشر ربيعا الذي ارتبط بها في علاقة حنان مفقود، شكى لها همومه فأفضت له بآهاتها في علاقة أمومة ناقصة، استشعرها فأعانها على دخول "الفيس بوك" بحثًا عن وليدها، عن صغيرها المبعثر فوق الكرة الأرضية، توسمت فيه خيراً فكان لها ما أرادت، أليس لقلب الأم بوصلة فطرية تقودها إلى حيث فلذة كبدها؟ تبحث بكل السبل المتاحة وتستشعر الطرق عن قرب مرئي وبعد لا محسوس.

استمر الاتصال المتقطع بينهما، وبالرغم من بعدها إلا أنه أحسّ بها قريبة جدا منه، سندًا له حين الحاجة، تمسح دمعته متى توجع واشتد به الألم، فالأمومة حبل سري غير قابل للقطع.

بعد عدة رسائل مختصرة في كلماتها عميقة في معانيها وأهدافها، اقترحت الأم الثاكلة أن تبحث جاهدة عن عمل لوليدها في تلك الجزيرة، ليكون بين جفنيها، مستعينة برب عملها، تمكنتْ دون عناء كبير أن تصل لرب الأسرة وتعرض عليه موضوع ابنها، تساءلت إن كان له نصيب في القدوم

لذلك الوطن، ومن إيجاد عملٍ مناسب له، عرضت أن يكون بائعًا في أحد المجمعات التجارية المنتشرة على تراب تلك الجزيرة المحاصرة.

من جانبه، اندفع كيفن الذي يعرف أن من يرفض الحياة تطلقه، اندفع للاستعانة بوالد حبيبه جاك للحصول على الوثائق والأوراق الثبوتية على أن يتكفل بدفع جميع الرسوم لاستخراج جواز السفر والتأشيرة وحتى تذكرة السفر إرضاءً لجاك وحبًّا لكيفن أيضًا.

وبالرغم من قسوة القرار المفاجئ على جاك إلا أنه تعهد أن يلحق به يومًا ما وفي أقرب فرصة للعمل هناك والالتصاق به أكثر.

بعد شهر تقريبًا، أي في شهر فبراير، تقرر موعد رحيله الذي كان بلا حقائب سفر تذكر، حاملا ذاته وذكرياته المريرة، راغبا في مجهول أكثر إشراقا، وعبر مطار نينوي أكينو الدولي اجتثّ جذوره من أعماق تربة مانيلا وأرخبيل الفلبين، كان مما يشده للرحيل التشابه المعنوي بين البلدين، فكلاهما أرخبيل وإن كانت وجهة السفر تختزل الفلبين في قلبها، وكلاهما مرّ بمختلف ضروب الاستعمار، وشهد تحولات في التسميات من مستعمرة إلى جمهورية، ومن إمارة إلى دولة فمملكة، كان يتأهب لتنظيف نفسه لعلمه أنّ الحشرة التي لا تُنظف نفسها جيداً تقتلها الجراثيم.

أما كاظم الذي استهوته مطاردة ما جرى لكيفن من أحداث دراماتيكية متقلبة ومتعاقبة فقد كان التأثر عليه كبيراً، فهو من هرب من بغداد أيضاً ليطأ أرضاً لم تمر بخياله الخصب

أبداً، هرب بحثاً عن لقمة العيش وحقنا لدمه وألما لمقتل "حبيبته" إلا أن عشقه أصبح عبادة واجبة القضاء.

*****

ضاق الفضاء ذرعاً بكيفن وهو في الطائرة فقد شعر بسجن لعشر ساعات في صندوق مليءٍ بأطياف البشر المتنوعة، والرحلة ابتدأت بأميال وكان آملا ألا تنتهي بخطوة في المطار الصغير، فمنذ وطأت قدماه الأرض توهم أمه في انتظاره بقبلتها ودفء حضنها، إلا أن الانتظار طال أمدُه، كان عليه أن يتعلم كيف يتقيأُ عقله، فقد أقبل عليه سائق آسيوي ليقلّه من المطار، سأله عن اسمه وهويته وأشار له بيده ليحث خطاه سيراً خلفه حتى استقل سيارته الصغيرة بصمت الخاشعين وما نقصه إلا تسبيح الزاهدين. رجل لم يحدّثه أبدًا وعزّ عليه ولو بنظرة خاطفة، سأله ببراءة عن أمه فكان الاستنكار جوابه، وعن وجهتهما فأشار بنصف أصبعه يمينًا.

أخذه السائق الهندي إلى عمارة بيضاء تُضر الناظرين فوجد نفسه بين بشر يشبهونه في اللغة (تاغالو)، بدأوا يستقبلونه بحفاوة وكأنهم انتظروه أمداً بعيداً، فلازالت رائحة تراب الفلبين تلفه وعبقها يسبقه، هذا يضمه، وذاك يكاد يحمله وآخر يقدم له الماء والطعام، كلٌ كان يرقص على شاكلته .... كان يتفحصهم لعله يجد عيني أمه بينهم إلا أنها ضنّت عليه ثانية بلقاء أو كلمة.

أخذه أليكس إلى الغرفة التي أُعدت لمعيشته إبّان غربته، وجد نفسه بين أربعة رجال تتقاسمهم غرفة صغيرة وتوزع عليهم زواياها بالتساوي كخلايا النحل، وتحشرهم أسرّةٌ

صغيرة بيضاء نظيفة، أجلسه أليكس على أحدها موضحا وكأنما أهداه إياه صدقة جارية، أُخبرَ أن الأكل والشراب يكون مشتركًا في الخارج، فيما ترص الغرفة الثانية والثالثة بعشر فتيات مذكرة بسجن غوانتنامو التاريخي حيث الأسِرةٍ المزدوجة ذات الطوابق، وحيث يتكدس السجناء صفوفًا خلف دورات المياه، فهي التي تختار وقت اغتنامها، أما أنت فلابد أن تعصر نفسك لتلقي ما بداخلك في أوقات محددة، كانوا سجناء رأي سعيدين بحريتهم في عقولٍ الآخرين.

بعد ثلاثة أيام، سحبته يد الكفيل سحباً للعمل في أحد محال بيع المستلزمات النسائية في أحد المجمعات التجارية المنتشرة هناك بكثرة، فعجنه قطار الحياة بلاهوادة، وتذوق فيها طعم البشر وروائحهم، عرف أنهم يتشابهون دمًا ويتباعدون أنفًا، أنف يصل حدّ السماء غرورًا، وآخر يصل بك إلى أديم الأرض تواضعًا، عرف أن لنسائهم عالمًا آخر، نساءٌ تشتهي الغريب وتخالطه وكأنه من جلدتها، وتباعد القريب وتبخل عليه حتى بشعرة أو ابتسامة، فيهيج يبحث عن فريسة أينما رحل، فإن كان اللون الأحمر مثيرًا لثيران اسبانيا، فإن الأسود (الميت) يبث كل الرجولة الحيوانية في ذكورهم، والبشر يبصرون بعيونهم أما هناك فيسرقون ويغتصبون بها.

لبعض النساء فوق تلك البقاع طابع آخر، نساء يحملن أثقالهن على ظهورهنّ، قيمًا وأعرافًا يركلنها أنّى شئن، ويرفعنها كالمصاحف عند الحاجة، قد تتعرى أمام الغرباء وتتلحف خيمة أمام الأقرباء، وكأن رجالهم غير رجال باقي الدنيا وكأن حبرهم غير أحبار الآخرين؟!

مرّ أسبوعان ولم تنبس له أمّه بكلمة وإن كانت عابرة، فلا أحد يعرفها هناك ولم يجد حتى رائحتها التي تشبه رائحة الخشب المُشبّع بالمياه، لم تمرّ تلك الرائحة بجواره ولو خطأ، قّرر أن يستعير كمبيوتر أليكس وأن يبحث في سبل الاتصال بها، لعله يعرف مستقرها ومستودعها، وما لبث أن فتح صندوق الوارد حتى رأى رسالتها الإلكترونية معنونة برقم هاتفها، استبشر خيراً وطاب محياه، أصبح الوصول لأمه ميسراً، اتصل بها مُهاتفا في نفس الأمسية:

-هالو.. هالو..

ردت بصوت دامع.

-أنت كيفن..

نحيب الثكالى اختلط بروح الياسمين فأنجب أنينا نقله إليها، شمّها، وضمّها وتمنى أن يقبل ترابها... الأمومة دَينٌ ودِين.

-سأراك غدا في السابعة مساءً كيفن.. أحبك كثيرا.

-أحبك أكثر.

-إلى اللقاء.

-باي.

*****

كلما أصغى كاظم لحكايات كيفن إلا وأعادته الذاكرة الملتوية إلى الوراء، إنّ الحب والقلب متلازمان لا ينامان ولا يطمئنان إلا إذا مات أحدهما، وهما لا ينفكان يعودان بكاظم إلى السراديب التي سمع عنها كثيرا وإلى أبطالها من عساكر محليين إلى جنود قوات التحالف، إنها صور مكررة ولكن بشخصيات تختلف في شكلها الخارجي فقط وتتخذ

مسارحها في كل بقعة أرض، هو الإنسان بتعدداته وهو إبليس بذات العمل؛ هو الإنسان الذي يختلق الكوارث ليصيب بها نفسه، إنّ أغلب مشاكل الناس أنهم يفكرون فيما لا يريدون، وكلما كثرت معاصيهم كلما طُردت الرحمة من قلوبهم، صارت لإبليس عندهم أهمية قصوى، أصبحت له نفس أهمية الأنبياء، فهم يضعون الرسالات الفاضلة بين أيدي البشريةٍ وهو بخبرته يغربلهم، فهل كانت ستستكمل الرسالات حقاً بدون إبليس؟ ذلك الملاك الذي شطّ طواعية عن الحق!

إنّ الصنعة الواحدة تنم عن صانع واحد ... إنه ذات الشيطان وعينه؛ الإنسان يسير لقدره وحتفه دون النظر لملابسات حياته وحيثياتها، يلقي باللوم تذمراً من كل سوء ويحب أن لو غير ذات الشوكة أصابته ولكن مهما تغيرت المعطيات يبقى فعله سيد الأدلة ويبقى كذبه مفتاح الفرج!

عثر كاظم على ضالته المنشودة دون عناء كبير، كأنما هناك يدٌ مبسوطة ترشده وتنثر طريقه ياسميناً عمْداً، يدٌ تأخذ بناصيته وترسمه مع أحلامه على أرض الواقع، وجد في كيفن غايته التى لا تحتاج إلى عناءٍ كثير، غاية ليست بحاجة إلا لإعادة تركيب وصياغة، أدرك كاظم وبريسانا أن ما ينقص كيفن حدّ الظمأ هو الحنان والشعور بالطمأنينة أولا، وبعده المال الذي يغير صدأ الذات إلى ذهب لامع، وهناك مشاعر الرضا عن النفس التي تدفع بالإنسان لأن يصبح مبتهجاً لا تفارق الابتسامة محياه، مقبلاً على الحياة بكله ليعطي سخاءً دون النظر للمقابل ولو بعد سنين.

تركا له العنان ليسترسل في الحديث ثم أقحما اللجام في فمه فأصبحت ناصيته بيدهما، تواصل السرد التاريخي لكيفن حول محطاته ومغامراته وما زادهم الأمر غير إصغاء...

تواصل سرده فأخبرهم أنه بعد عدة أشهر من العيش على ظهر تلك الجزيرة الحارة، أصبح أكثر ألفة بأناسها، مياهها، شوارعها، مشاعرها .... عرضت عليه تلك الجزيرة التبني فانصاع لرغبتها، شعر أنه ينتمي إليها، فلوعة الغربة انمحت تدريجيًّا، وحلت مكانها الألفة حيث تأخذك نفسك إلى داخلها، وتبعدك عن شاطئ الذكريات التي لا تمر إلا حين المقارنة ولا تأسرك إلا تكبرًا.

أصبح هناك العملُ طابعه، والإنترنت مفردة لحياته يملأُ به وقته ويجد ذاته فيه، فمواقع التواصل الاجتماعي تتنافس لتنقلك إلى عوالم لا تراها لكنك تحيا فيها، شاطئ يقذفك بعيدًا ويلتقطك قبل أن تقع، سقطت روحه فجأةً على شاب خليجي أعادها له بوردة وقبلة، وجد نفسه مرغماً منه وإليه، يسأل فيجيب دونما كلل، يصمت فيهمس في أذنيه، يتحدث فيصغي، كلماته كرصاص مخملي تصيبك ولاتؤذيك، وابتسامته كماء الغدير يسقيك فلايرويك من فرط عذوبته، معرفته طاغية، لكل سؤال لديه جواب، ابتلعه بشخصه ومعرفته فتمنى أن يراه يومًا إلى جواره.

استمر التواصل بينهما حتى شربه وهضمه دون أن يلتقيا، التقت أسرارهما قبل أن تلتقي أعينهما، أليس القلب يعشق قبل العين أحيانًا؟

قرر ذلك الخليجي أن يزوره في تلك الجزيرة خلال شهر نوفمبر اللاحق مشترطاً البقاء معه في الفندق أسبوعًا كاملاً لا يكاد يخرج من قفصه حتى يعود مسرعًا، وكان على اتصال هاتفي دائم معه، صوته كحجر الصوان صلد ناعم، تلمسه دون أن تكسره، جذاب بنعومته قوي بجاذبيته.

تسرب صوته عبر الهاتف مخترقًا أذني كيفن متسربلا كماء بارد إلى قلبه، دعاه مباشرة لزيارته في أحد فنادق الخمس نجوم، وهي مسميات سمعها ولم يتمكن قط من دخولها أو حتى طرق أبوابها أو تبيّن ماهيتها.

تذكر حينها أنه لم يعرف اسمه حتى تلك اللحظة، فسيل جاذبيته وقوة شخصيته جذباه لشواطئه دون أن يعرف في أي اتجاه يبحر:

-ما اسمك؟ كيف لي أن أعرفك؟

-اسأل عن ناصر، دكتور ناصر الشيخان في جناح 44.

-أي ساعة؟

-أنا في انتظارك منذ الساعة، لكني سأكون أكثر سعادة بقدومك عند الثامنة مساءً.

-نعم، سأكون هناك عند الثامنة إذن.

-إلى اللقاء

-مع السلامة.

عند تمام السابعة، كان يقف أمام موظف الاستقبال متسائلاً عن الدكتور ناصر حتى فاجأه الموظف الهندي بأنه ينتظره في جناحه الخاص، وأخذه إلى المصعد الكهربائي بحركة خاطفة مرنة.

بطرقاته الخفيفة على الباب فتح ذراعيه ببراءة بلهاء فيما كان ناصر يجلس على أريكته الزرقاء الناعمة، ضمّه سريعا بقبلات رسمية خليجية إلى صدره ممسكًا بيده اليسرى كمن يمسك بكنز ثمين أضاعه من سنين.

-أهلا بك كيفن.

-مرحبا بك ناصر، دكتور ناصر، صديقي...؟

-نعم، أنا الدكتور ناصر الشيخان، معيد في إحدى الجامعات الخليجية.

-.....

-دكتوراه في علم الاجتماع، لكننا صديقان..لا عليك.

أحسّ كيفن بضآلته وهو إلى جوار صديقه، لباسٌ عربي أصيل، عطر خاله فرنسيا لم يعرفه منذ أمد طويل، رصانة وطلاقة في اللسان، حتى استشعر كيفن أنّه في الموقع الخطأ، وأن المكان ليس مجلسه.

أحسّ ناصر بما يختلج في صدر صاحبه فحركه الحسُ الفطري بضرورة كسر الحواجز وصهر الفوارق، فالعشق سعيره الحرمان ولا يتلاشى إلا بالوصال.

- تعرف كيفن؟ يعجبني الشعب الفلبيني من حيث نسيجه الاجتماعي.

- لماذا؟

- شعب تكون تاريخيًّا من حضارات مختلفة، سلالة بوذية من الصين، وأخرى إسلامية من اندونيسيا، وتقبل المسيحية من الأسبان، وتعامل بذكاء مع التجار العرب وعسكر الأميركان، شعب يتقبل الآخر، يستدرجه ويبقي على كيانه مستقلا، يلاعبك دون تقبل الهزيمة، يهزمك ويشعرك أنك المنتصر.

شعب تتعدد فيه الأعراق والثقافات والأديان، لا غالب ولا مغلوب، يستأسد إن أردت مهاجمته وانتقاصه.

- (متسائلا في داخله) أَلِكل سؤال جواب عند هذا الرجل؟

- (مسترسلاً) نعم، الدول كالإنسان، تبدأ طفلاً بريئًا، ثم مراهقًا قد يتحول حينها هجينًا، تنكحه الأنظمة فيغير ماؤها الأجيالَ القادمة، تغير ملامحه، هيئته وحتى رجولته، تزني الأنظمة الحاكمة بشعوبها فتمرض الدول سريعًا، تصبح مخنثة في كهولتها، تشيخ وتسقط قبل أوانها.

أدرك كيفن مجددًا أنّه في وادٍ عميق، وهو يمقتُ أن يكون صغيراً، فالتصاغر من الكبائر في حق الذات، وبدوره أدرك ناصر ضرورة أن يغير الحديث لعله ينتقل إلى جواره.

طلب دقائق ليستحم ويغير ملابسه فيما أمر بإحضار بعض الخمور والفواكه من "الريسبشن"، وعاد مرتديًا "روبًا" أحمر فاضحًا، تثقبه الأشعة الساقطة وتبرز منحدرات جسمه الضخم العريض.

استلقى ناصر على الأريكة الساحرة، وحولها إلى ما يشبه السرير بفتح ظهرها أفقيًّا، واضعًا رأسه بين كفيه المتشابكين بالأصابع، دعى كيفن لتناول كأسٍ أحمر معه فيما الفاكهة تُرمى بعد قضمة واحدة، تعالى صوته على صوت الموسيقى وبدأ بالهذيان، فتسبق كلماته أفكاره، لتخرج عذراء بلا تلقيح، عفوية بلا مراوغة:

- نعم، المجتمعات البشرية كلها عذراء حتى يغتصبها المستعمرون، فتتحول إلى عاهرة، فإن ترفّع عن اغتصابها المستعمر حولها حكامها إلى مومسٍ تقبلُ كلَ يومٍ بمن يركبها... ألم يقل المطرب العراقي:

أيا من ليسيرضيها خليلٌ ولاألفا خليلٍ كلّعامٍ
أراك متيّما منقوم عيسى فهم لا يصبرون على طعامٍ

- "شيرز"

- الاستعمار انتشر قديما كالسرطان في كل أنحاء الدنيا، فمنهم من اكتفى بالضرائب والأموال كالاستعمار البريطاني، ومنهم من شُغل باستعمار العقول وتغيير اللغات كالفرنسيين، ومنهم من أغرم بالسلطة والقوة كالطليان، وللاستعمار نوع جديد، بمرض جديد، استعمار الحكومات لشعوبها، تعيد كتابة تاريخ العصور الوسطى، تعيد تكريس الإقطاعيات بمفهوم جديد، واكتشفوا مفاهيم جديدة عبر محاولة إعادة صياغة الإنسان في قالب يبقيه متخلفًا، قانعًا بالفتات.

- "شيرز" مرة أخرى.

- ألم أقل لك أنكم شعب أفضل، فهو يقرر ما يريد، يبني هرمه من القاعدة، بينما يبني الآخرون أهراماتهم من القمة، تعملون ضمن نطاق الطبيعة ونعمل ضمنًا لتكسير القوانين، فنحُنُّ دومًا إلى عالم الغاب.... اقترب إليّ يا كيفن..

- أنا إلى جوارك

- اقترب أكثر فإني أحبك..

احتقر كيفن كلمة "أحبك" فقد كانت منافقة، الكلمات المنافقة لا تنجب أبداً؛ إن من يقول أنه يحبُ المطر فإنه يستخدم المظلة عندما تمطر، فماذا تفعل عندما يقول لك أحدُهم: أحبك؟

وضع يده على شعره عابثًا به، وجره إلى صدره ورائحة الخمر تفوح من كل أجزائه، وتجره إلى ماضٍ بعيد يشتاق

إليه، وضع يديه على بطنه فاسترسل في حركاتها، فهي عاقلة وتدرك أين المسير.

أثارت يداه ناصر كثيرا فقبلهما وبعثره إليه، فوجده منه وإليه وخال أنه وجد ضالته فيه فكانا كشباك صيد يتبادلان الأدوار، حتى أراد ناصر ما أراد إما صياداً ماهراً أو فريسة ثمينة، حاول الفوز بقبلة متسرعة حيث القبلة هي تنفس هواء الحبيب!

*****

بعد اعترافات كيفن المطولة، عاد معها إلى حاضره وواقعه المُعاش، إلى هذه اللحظة، إلى هذه الصدفة التي تعتبر بصقاً على ما فات، الصدفة التي ربطته بكاظم وبريسانا.

أخذ كاظم العمل على عاتقه في إعادة هيكلة وتدوير خليته، يربت على كتف كيفن حيناً ويمسح على رأسه كاليتامى حيناً آخر، البشر مجبولون على شكر الخير وإن كان ناقصاً.

أدرك كاظم بمعية بريسانا أن استهداف الطبقة الاجتماعية الأرقى يهب صيداً أثمن ويدرُ لبنا أنصع بياضاً، أصبح يستشرف ما وراء طلبة الجامعات من أُسر تكون على مستوىً معيشيٍّ أعلى يمكن استثماره وتطويعه بصورة أسهل.

بادر كيفن في إحدى الليالي الآفلة نجومها بالقرب من شاطئ مآرتي..

- كيفن .. لابدّ أنك تدرك خوفي عليك وحبي لك كثيراً.
- وأنا أحبكَ أكثر.
- وهل تثق بي؟
- كثيراً...

- أتمنى أن تعود للدراسة الجامعية فهي مفتاحك لحياة أكثر سعادة.

وقع المقترح كالصاعقة على كيفن فقد دُرستِ الفكرةُ من لب عقله وأكل الزمان عليها كثيراً وتحولت إلى أمرٍ محال ..
-لا يمكنني ذلك يا كاظم.. الأمر يحتاج إلى مالٍ كثير وجهدٍ يصل لدرجة الانقطاع عن العالم لكي استطيع تحقيق ما أصبو إليه.
-لا عليك.. سأوفر المال الضروري ولكن بشرط أن يكون دَينا ميسراً عليك أن تعيده بالتقسيط متى سنحت لك الفرصة المثلى.

أعاد الموقفُ كيفن لماضٍ جميل أصبح كالعنقاء في عنقه؛ البشر مجبولون على حب ماضيهم والتفاني فيه لدرجة القداسة ليس لعظم شأنه ولكن لاستحالة تكراره .. أصاب الذهول كيفن في مقتل فأخرسه حقاً، إن حياة الإنسان مرهونة بلسانه، طار به فكره بعيدا ناحية ذلك الماضي السحيق، غادره كاظم وهو يقظان نائم في انتظار ساعة الصفر، بين تلك الصور القديمة في مخيلته وبين صورة الخيال المتوقعة في ناصيته.

*****

تواصل البحث عن الطُعم في أرجاء الأحياء القريبة لعلّ شيئا يكون في المتناول إلا أنّ كيفن صار يقيناً هو الهدف الأكثر وضوحاً واستحقاقاً للمتابعة الدؤوبة، أصبح حقيقة وعقيدة لكاظم حيث يكون أغلب الناس عادة سجناء

لعقائدهم، ربما يكون هو الزهرة التي يبحث عنها كاظم؛ إن بعض أجمل الأزهار لا ينمو إلا في المستنقعات القذرة.

انتظر الجميع موعد التسجيل للفصل الدراسي الثاني وذهب كيفن بمعية كاظم وبريسانا لقسم التسجيل ودفع الرسوم الدراسية ظاهراً إلا أن ضرورة معرفة الأجواء هناك كانت ملحة من أجل التعاطي مع الممكن وتحقيق المرجو.

بعد انتهاء الإجراءات الرسمية وبعين غامزة من كاظم، تساءلت بريسانا:

- كيفن، أين يجتمع الطلاب والطالبات في أوقات الفراغ للترفيه؟

- في الكانتين عادة، وفي المكتبة العامة ..

- هل كاثرين التي حدثتنا عنها ورفاقها هناك الآن؟

- ربما.. هل تودون الذهاب هناك؟

- لنذهب ونشرب نخب هذه المناسبة.

توجهوا بخطى حثيثة دون اكتراثٍ وترقب لما يمكن وقوعه، فالإنسان يسعى في طريقه بدافع الإيمان عند تحقيق هدف محدد، لا يبالى بالخطر وإن وقع عليه.

وهنا، وقعت عينا كيفن مباشرة صوب كاثرين التي سرعان ما جابت الحضور مسحا ببصرها قبل أن تبطأ وتتوقف عند كاظم، انتصبت كرجل آلي دون حراك سلس، تُمعن فيه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

كانت كاثرين ترتدي "جينزا" أزرق وتتلألأُ في قميصها الأبيض، وضعت فوقه "جاكيتاً" بنياً ثقيلا بفروة داخلية، تبدو زاهية طويلة كعارضات الأزياء بسبب كعبها العالي وقوامها الممشوق.

تقدم كيفن باتجاهها:
- صباح الخير كاثرين.
- صباح الخير.
- أقدم لكِ أصدقائي، كاظم من العراق، بريسانا من تايلاند.
- أهلاً بكم..على أرض الفلبين!
سحبت يدَ صديقتها ببطئ:
- وهذه صديقتي ماري، السنة الأخيرة لنا في إدارة الأعمال.

دارت الابتسامات البروتوكولية بين الحضور ممزوجة بشيء من القلق، تسامر الجميع متصافحا ومبتسما يقدم نفسه بينما أخذت كاثرين تطيل النظر في ذلك الفتى الشرقي، شدّها فعلاً ذلك الأنف الحاد والعينان الواسعتان، الكتف العريض والصوتُ الأجش.

كان كاظم يرتدي بدلة رصاصية وقميصاً أسود أظهر سحنته أكثر إشراقا وبرز استبداد شخصيته وسطوته عندما تحدث، فالمستبد هو الذي يؤثر القوة على نفسه فقط.

جلسوا إلى إحدى الطاولات بالقرب من الساحة الخضراء، تحدث كاظم واعظاً من أجل كسر حاجز الصمت عن أهمية العلم ودور المتعلمين، ظلّت كاثرين تنصت خاشعة زاهدة في غيره وصار كيفن يوزع المشروبات مبتسماً على الحضور بإتقان مصطنع.

لم يكن من الصعب أن تلاحظ بريسانا ما وراء كاثرين فاستبشرت خيراً وبعض شر، خيراً لأن الطريق أصبح سالكاً مورداً وشراً لوازع يطرق قلب المرأة عندما يزاحمها أحد الغرباء على قلب من تهوى وتحب ... ومن لا تهوى أيضاً! آثرت الانسحاب التدريجي فالأعمى أيضاً يطفأ الإضاءة عند النوم!

للوهلة الأولى شعرت بريسانا أن كاظم قد يذهب مع الريح وأن للأقدار خاتمة ستجمعه حتماً بكاثرين فكلٌ يرقص على شاكلته. القدر ذلك الخيط الوهمي الذي يسيرنا لمتستقر لا نعرف له قرارا ولابدّ أن يرضى الإنسان بما يحدث له باعتباره الوجه الأكثر إشراقا للقدر، ولو قدر لنا أن نختار شيئاً آخر لسقطنا في الوحل؛ القدر فلسفة سماوية تجلب الرضا للقلب وبه نشعر بالسعادة، فكيف تعمل بريسانا على أن تكون خاتمة قدرها ارتباط بكاظم بلا انفكاك؟ وكيف تستطيع أن يكون قدر كاثرين مخروماً؟ صراع الإنسان مع القدر جزء من اللعبة الحياتية، ومن يتوهم أن لديه القدرة على تغييره لا ينام قرير عين، أما من يداعب قدره (واقعه) بابتسامة تتولد له القناعة فتلد له سعادة ... بالرضا تحلو الحياة.

كان أملُ بريسانا معقوداً على كاثرين نفسها وليس على حبيبها، ففي فقه الحب يقال أن المرأة التي تلقي بنفسها للحب لا تجني منه شيئا برغم جمالها ومالها، توسمت أن تكون كاثرين مغامرة عاطفية عابرة، ولكنها ظلّت حائرة في تساؤلاتها فأي النساء هنا أكثر ميلا للمغامرات العاطفية: الجميلة، العادية أم القبيحة؟

دارت رحى التساؤلات في عقلها، فإن غابت الفضيلة والعفة فإن المرأة، كما كانت تعرفها، قد تصادق رجلاً لوسامته وآخر لثرائه وآخر لفحولته ... حتى تسد نقص شريكها، فأيهم كانت كاثرين؟ أصابها الدوار حينها وهي تستذكر مقولة لصديقتها كونغ: " بعض النساء يحملن عطرا ذاتيا كما تحمل بعض الزهور أريجا". وضعت رأسها بين يديها تندب حظها العاثر فالعاشق سيُصفع حتماً ولو بعد حين.

*****

أعطى كاظم (كارت عمله) إلى الحاضرين في إشارة تشي بالكثير، توحي بأسلوب رجال الأعمال الناجحين في حياتهم حيث العلاقات الاجتماعية والمعرفية جزء من هذه اللعبة، ومن الأهداف أيضا إيقاعه لكاثرين وماري بوضعهما نصب عينيه حين العمل الباطني.

انسحب الرجلُ من الكانتين مصافحا الجميع وأبقى كاثرين حتى النهاية، هو عُرفٌ ثقافي كامن في خلجات الإنسان، يستأثر بالأعز لآخر التحية والوداع، استخرج (كارتا) آخر وكتب بيدٍ مرتجفة رقم هاتفه الشخصي خلفه، كانت تقتفي يده وهي تقول: "القلم الذي ترتجف يد صاحبه تكون مواقفه ثابتة راسخة"

مدّ يده فبسطت راحتها في بطن كفّه، تلامست خطوط داخل اليد ببعضها فاستشعرت تطابق تلك الأشكال الهندسية بينهما والتي تمثل لوغاريتما قدريّة، ثم استلت يدها لتبقي أصابعها بين قضبان أصابعه، أخذا ينظران إلى بعضهما وكأنما حطّ على رأسيهما الطير، إن صمت العاشقين مراهقة متكررة، كانت لهما قراءاتٌ مختلفة فهو وجد ضالته التي ستقوده للمجد وهي رأته فتى أحلامها، لم يكنٍ بمقدوره قراءة طالعها فالحب الذي نتوقع لونه لن يكون حباً.

لم يفق كاظم من سباته إلا ويد بريسانا تربت على كتفه الأيمن وتستدرجانه ليفك الحصار عن يد الفتاة التي أفاقت من أحلامها على همسات ماري: كاثرين، كاثرين.. بدأت المحاضرة التالية.

انطلقت وصديقتها نحو الحرم الجامعي وكان لجمالها أمرٌ لايُدرك، ظلّ يراقب خطواتها وكأنها حصان مدبرٌ، إن وراء كل فاتنة رجلٌ يراقب مؤخرتها، توالت خطاياه كثيراً وكأن ليس للعاشقين حدٌ لوقف خطاياهم، توهم أن جهنم ستكون مثواه لا محالة لكنه استدرك يخاطب نفسه: " لن تتسع جنة الخلد للعاشقين فهم أكثر من ظلموا أنفسهم".

*****

عاد كيفن للدراسة مجددا، رسم الخطوة الأولى في الجامعة مرة أخرى، هيئة الخطوة الأولى دائما ترسم جزءا من ملامح المستقبل وتبقي بقية اللوحة للاجتهادات الشخصية، أما الألوان فتضعها الظروف التي تحتضننا، الألوان الفاقعة تصور الثقة والثقل في الحياة أما الباهتة فتعكس ظروفاً ضحلة وملامح شخصية انهزامية، كانت الخطوة الأولى لكيفن مترددة ومتأرجحة بين الرغبة في الشهادة المزعومة وكأنها أحد صكوك العصور الوسطى الكنسية وبين الرغبة في التعلم الحق واجتثاث المعرفة، ذلك التعلم الحياتي الذي يمنحك معرفة تفك بها ألغاز الحياة وطلاسمها.

كانت الشهادة هدفه الأسمى، كأنها مفتاح كنسي يفتح الجنان على مصراعيها ولا تذروه الرياح إذا عصفت بمانيلا كل أعاصير الأرض، بل إنه يعتقد أن هذا الصك هو ورقة عبور للحياة الأسمى التي ستنمو كلما اهتزت به وربت.

يُقال أن الحياة الأولى هي الأجمل حقا بكل ما تحتويه، فالحب الأول هو الأصل وهو الأجدر بالبقاء وإن طمست معالمه فإن ما يُرفع بعده يُشيد على قواعده، وهكذا حكمت التجربةالدراسية الأولى لكيفن على قدره المزعوم، كان همه

تحصيليا لا معرفيا ولذلك كان شراعه يبحر به في بحر لجي يتراءى له الغرق كل حين ويرنو للمرسى الأقرب داعيا ربه لعل الساعة قريب.

أصبح كيفن عين كاظم في الجامعة، يبحث له متقصياً عمن تتوافر فيهم الشروط حدّ الكفاية، شروط تذكرك بمن يطلب يد فتاة بمواصفات خاصة حتى تدخل ذلك القفص الذهبي المتوهم؛ استطاع كيفن القيام بالمهام المناطة إليه على أكمل وجه، تمكن من نقل الصورة الحقيقية عن كل شخصية بكل ملابساتها الأسرية والسلوكية والذاتية، حتى أعان ربّ عمله على الانتقاء وإيقاع المتميزين والمتميزات في شركه بدون أدنى ريب. دخل إلى شركه العشرات يتقدمهم لواء كاثرين وماري، أضحى يغتنم لقاءهن كسبّاك عشق متمرس، إنّ السبّاك الشاطر هو الذي يسد المواسير حتى تحتاجه ثانية..

للغواية بنود نمسك بتلابيبها فرحين تلفنا الطمأنينة حتى نقعٍ في المحظور، هكذا كانت كاثرين مع كاظم، تعشمت فيه خيراً ورأت فيه الرجولة التي بدأت في الانقراض عبر مقياس ريختر العنفواني!

بعد اللقاء التعارفي في الكانتين، لم تتصل كاثرين بكاظم إلا بعد ثلاثة أيام في لغة تأخيرية فيها الكثير من المناورة التي لا يفهم معانيها إلا النساء والقابعات تحت مظلة العشق قالوا آمنّا بما جئن به، فالعشق لصٌ مفضوح ولا يحتاج لفرقة تحقيق جنائية.

كان اتصالها الأول تكتيكيا في قاموس الغرام، اتصلت في وقت يكاد أغلب الناس يتناولون فيه وجبة الغداء التي تتكون من الرز أساساً، اختارت هذا الوقت ليكون احتمال أن يجيب الطرف الآخر محدودا خاصة إذا كان اتصالا برنّة موجزة لا يكاد يُسمع صداه، توقعت أن يعاود كاظم الاتصال سريعاً في برهان غرام وانجذاب مزدوج، لغة نسائية ترضي فيهن الكثير من الغرور وحب الذات، ولكنه خيّب أملها في الاتصال سريعا، انتظرت كثيراً، وبما أن العاشق لا يتراجع عن حماقاته، عاودت الاتصال مساءً برنين مضاعف وانتظرت مكالمته التي لن تجيبها!

خربشات النساء على نافذة الحياة ليست معقدة بل جلية وواضحة ولا يقع فيها إلا من استبدل دماء رأسه بمياه خصيتيه ... لم تنطو هذه الحيل على خبير في عالم المرأة مثل كاظم، فآية ملكه مفرداتٌ وقلب؛ تريث كاظم ليلة وضحاها فأعادت كاثرين الكرّة مع سبق الإصرار والترصّد، وفي اليوم الثالث جاءه اتصال رابع أوجس منه خيفة فقابله بحنكة ودهاء؛ طلب من بريسانا أن تجيب المتصل لتكمل هي المهمة على أكمل وجه:

- نعم.

- مساء الخير.

- مساء الخير.

- هل يمكنني الحديث مع كاظم؟

- أعتذر عزيزتي فهو في اجتماع مغلق، يمكنك الاتصال به بعد ساعة أو ترك رقم هاتفك.

تركت رقم هاتفها هناك وخيبة أمل تعارك قلبها، أقسمت ألا تعاود الاتصال وأن تقبر حبها الوليد للتوّ، الذلّ والهوان لا يناسبها أبداً، ولكن كلمات العاشق المعاند كالزبد لا يُعتدّ بها أبداً، أثارها صوت بريسانا فكانت الغيرة .. أدركت شيئاً من الشّماتة وكأنّما أشعلت شرارة غيرتها، قيل اتّقوا الغيرة في أولها فهي لا تبقي ولا تذر، إنّ الحب جريمة بلا تحريض فكيف وقد بدأتها بريسانا.

أدرك كاظم أن الحب مرضٌ يستشري بجسدها فكان لزاماً عليه أن يكبح جماحه، اتصل بها بعد الغروب وهو لا يتوقع لون ردّة فعلها، ولكنه يعرف أنّ للألم غبطة ولليأس لذة، لم يكد ينه ترحيبه الأول إلا وجاء الرد قلقا راغباً:

- نعم...أنا كاثرين.
- مساء الخير .. كيف حالك؟
- اتصلت بك ولم تجب؟
- ظروف العمل .. هل يمكننا أن نلتقي مساء في أحد مطاعم مجمع أوميغا؟
- أية ساعة تريد؟
- العاشرة.
- بالطبع، سأكون هناك قبل العاشرة.
- إلى لقاء.

*****

إذا كانت كلماتنا هي البيوت التي نبنيها في عقول الآخرين فإن أفعالنا تبني قلاعا محصنة تخلدنا في قلوب البشر، أدرك كاظم أن الفتاة قد وقعت في مجاله المغناطيسي وما عليه إلا أن يختار الجهات الأصلية ليوجه

بوصلتها إلى حيث يريد، إنها المرأة العاشقة التي تغمض عينيها طواعية وتهب قلبها حيث تشاء.

أعدت كاثرين نفسها للقاء الأول مستغرقة في تفاصيلها أمام المرآة أكثر من ساعتين، تعمل على إبراز مفاتنها حيث جرأة المرأة في تضاريسها، ترتدي ثم تخلع، تضع حللها ثم تستبدلها، كأنها تختبر بدقة كل ملابسها، أجهدها هذيان الملابس حتى رست على ميناء "الجينز"، تنورة داكنة الزرقة تضغط برفق على محيط حوضها لتظهر تلتين مكتملتي الاستدارة ينحدر بينهما نهير دقيق يفصل بين فخذين يشعان بياضاً وسحراً، تتدلى التنورة إلى أعلى الركبتين ويتجلى بعدها ساقان متوازيان، لبست قميصا أبيض بأكمام تصل إلى مرفقيها وتضغط أزرته على خصر ناعم نحيف يخفي فوقه ثمرتي كمثرى ناضجتين وقابلتين للقطف، أعطت الساقان المتوازيتان بهاء على القوام الممشوق، أما الشعر فكان أسود انسيابيا يميل من المفرق الأيمن باتجاه الكتف الأيسر ليبرز لونا ذهبيا لأذنها اشتق لونه من القرط الحلقي الصغير.

خرجت كعارضة أزياء بأريجها وهي تتبع دليل قلبها وركبت سيارتها السوداء منطلقة إلى "أوميغا" فيما العيون تحاول سرقتها والقلوب تسطو عليها من كل صوب.

اتخذت جلستها كأميرة في طرف المقهي لتطل من علٍ على كل القادمين والمغادرين في انتظار ذلك الفتى الشرقي الساحر، أخذت تطيل النظر بإمعان في ساعة يدها الذهبية وساعة هاتفها لعل الوقت يبعث من في القلوب.

أشاحت بوجهها فجأة لمّا لمحت طيفه قادما لتشعره بعدم المبالاة، كان هو الآخر يرتدي جينزا طويلا و"جاكيت" أسود

يشرق من تحته قميص أبيض، كانت الشعيرات المبعثرة التي تملأ وجهه تعطي انطباعاً عن ازدحام جدول أعماله وأنه كان في عجلة من أمره، وقفت له مرحبة فصافحها ثم قبل مابين خديها على طرفي زاويتي شفتيها دون أن يحتضنها كما تشاء.

جلسا متواجهين بدفء فيه الكثير من التحفظ، كل منهما يترقب ما سينبثق عن الآخر..وضعت يدها على سطح الطاولة فأمعن النظر في أصابعها المتشابكة، أخرج بهدوء علبة صغيرة واستخرج منها خاتما مضلعاً أزرق وألبسه خنصرها الأيمن في لحظات ليس للكلمات حضور وللمشاعر فيض غزير ثلثاه عتاب، تناست كل وعودها وكلماتها، الحب أفقدها المناعة الطبيعية تجاه المحبوب..تساءلت:

- لماذا تأخرت؟
- العمل يا عزيزتي.
- أهو أكثر أهمية مني؟
- ستكونين الأهم في هذه الدنيا.
- كيف؟
- صداقتنا بلا حدود..نعم بلا حدود .. كيف هي الجامعة؟
- سأنهي دراستي بنهاية الفصل الثاني.
- وهل من خطط مستقبلية للعمل؟
- سأدير إحدى شركات والدي حسب رغبته.

صمت كاظم لكنه تدارك نفسه وكأن الأمر لا يعنيه، استشعر أن بجانب أهدافه غير المعلنة سيكون له عمل آخر يدر عليه أموالا طائلة...

- ستكون لنا لقاءات كثيرة.
- أتمنى ذلك.

شربا نخب اللقاء الأول وانطلقا بسرعة الريح في سيارتها الفارهة تجوب شوارع مانيلا كل منهما يطير فرحا بنخب الوصول إلى مبتغاه، حلقت روحاهما في أجواء مانيلا فلم تسعهما .. رحلا من حيث لا يشعران إلى خارج العاصمة باتجاه ساحل ماتابنغكى (matanbungkay Beach) ، الروح دائماً تتمرد على الحصار ولا تقبل به.

استأجر كاظم كوخا سياحيا على الساحل ليقضيا فيه يومهما الفردوسي واقتنيا ملابس البحر للسباحة والنوم .. بعد دخولهما للكوخ وقفا مباشرةٍ متقابلين يحملق كلاهما في الآخر، تساءل إن كان مريضاً ولن يُشفيه غير رضابها ولكنه لن يكتفي بذلك فلا يُطفئ العشق إلا نار الوصال، اقترب منها دون أن يبدي ملامح تعطي أيّ انطباعٍ سلبي أو إيجابي، كان حيادي المشاعر، يحاول ألّا تحركه الغريزة الشهوانية بل كان يتحكم جاهداً بانفعالاته العاطفية والجنسية من منطلق الخبرة الحياتية المتراكمة لديه.

دنت منه حتى بدأت تستشعر أنفاسه وهو يطيل شعاع النظر إليها بصورة مستقيمة، وضعت يديها على كتفيه كمن تتسلق فاهتدى إلى أن يحتضنها بذراعيه من خصرها النحيف وكأنه مقبض المرأة.

أحسّ بحرارة جسدها تسري إلى بشرته وكأنها تروي ظمأ ذلك الجسد المتكسر عطشاً، أخذت تحرك أنفها وشفتيها حول رقبته وصولا إلى سدرة منتهى العاشقين حيث يلعق

اللسانان رحيقهما ... ثم غابا عن الوجود قبل أن تنطلق الكلمات لتوثق تلك المشاعر:
- كاظم، أحبك جدا.
صمت برهة فالحديث في المسلمات جرم نافد، لكنه أردف:
- أتمنى أن أكون جديراً بحبك...
- كأنك الحلم الذي كنت أبحث عنه منذ طفولتي، أعتذر كثيراً فقد فضحتني غيرتي مع بريسانا..
- لا عليك فالسماء أنت والأوزون غيرتك، فثقب الأوزون السماوي لن يغار من ثقب أرضي بركاني!
- حقاً أنا سماؤك يا حبيبي؟
- نعم أنت.
- أعتذر إذاً.
- لا تعتذري كثيراً، فكثرة الاعتذار سيضعف جهازك المناعيّ.
- ووو، وأي مناعة سأحتفظ بها معك؟
- هل تعتقدين أن والدك يوافق على صداقتنا وعلاقتنا هذه؟
وضعت أطراف أصابعها على شفتيه لعله لا يسأل غيرها فسؤال غير الحبيب مذلة ...
- يكفي أن نعيش هذه اللحظات بسعادة غامرة فأنا لا أطالبك بشيء أبدا.....

إنّ للعاشق قرينا لا يُدرك قد يحوله إلى صفحاتٍ بيضاء يسهل على الطرف الآخر استغلالها كسلاح وقت الحاجة وعندما تنقلب الموازين، فالمرأة الغبية حقاً هي التي لا تُخفي شيئاً عن حبيبها وتفتح كل أوراقها، وإن أمسك بزمام أمرها رجل ذكي فإنه لابد سيشعرها أنه على سفر وفراق دائم معها، هي معادلة رياضية من الدرجة الأولى سهلة التنظير صعبة

التطبيق، ولذلك فإن نظريات الحب ديناميكية متغيرة لا تعترف بالقياسات المترية أبداً.

لم تكن كاثرين لغزاً محيراً بل كان مفاعل عشقها النووي لا يعمل برغاب كاظم المُخصّب.

*****

أدرك كيفن أن كاثرين غرقت في أمواج رجولة كاظم المتدفقة وهي التي مافتئت تحلم بنصفها الثاني الذي يكمل ذاتها ويملئ رغباتها، كان مدركاً أن المرأة المتفجرة جمالاً لا تقبل بأنصاف الحلول، لا تقبل إلا بفحلٍ يكون نداً لها يملي عليها سطوته، عالم المرأة هنا غريب حقاً، المرأة العادية تقبل من الغرام بنصف الغنائم لتمتلكها، والحسناء لا تقبل إلا بكل الغنائم لترضي غرورها وكيانها ولن يضيرها أن تهب كل الغنائم صدقة جارية، جبّارة في تملكها وإن أمسكت بزمام الأمور فإنها تتخلى عنها طواعية .. للجمال الخلّاب علم اللّا منطق.

كان كيفن يدرك أن ثورة غرام كاثرين لن تهدأ ما لم يرفع كاظم رايته البيضاء ويجر مترنحاً أذيال الهزيمة، ولرايات العاشقين بياض ملوث ودم مكهرب، وكان يدرك أيضاً أنّ كاظم لغزٌ محيرٌ جدير بالمتابعة الدقيقة للإطلاع على كيفية تعاطيه معها في مسلسل غرامي يستحق المشاهدة حتى آخر حلقة.

أما حبه لبريسانا، فكان كيفن يعرف أنّ كاظم لا يحبها من أجل ذاتها بل يحبها من أجل عشقها وهيامها به، هو نوع من النرجسية الذكورية، إحساس طاووسيٌ يشعر الناقص بالزهو والفخر.

أصبح الميل العاطفي لبريسانا حلاً مجزياً لكيفن، هي نموذج حياتي يتمنى كيفن الوصول إليه ولكن عليه أن يقتحم واحتها أولا ويراقب ارتداداتها العاطفية لعل إحدى الموجات المفاجئة تجبره على الغوص في أعماقها، لم يستطع أن يكون (رجلاً) مع أنثى كاملة فلماذا لا يجرب أنصاف الحلول؟ .. نوع من الاجتهاد فلربّما يعود بنصف الأجر لا كله.

من جانبها، كانت بريسانا بين نارين جهنميتين، بين سقر وهاوية، سقر الغيرة التي تجثم على قلبها والتي قد تحول كاظم إلى فارس ذهب مع الريح، وبين الوقوع في هاوية الفشل لأنها لم تحقق أهدافها في هذه الجزر النائية، وجدت ضالتها في كيفن الذي ربما يسد ثلمة في عواطفها، لم يكن بذلك المثالي القادر على تعويض غياب (الحبيب) ولكنها مرغمة على معايشة حياة الكساد والرضا بالفتات، فلا يجب أبداً أن يكون حبيبك طبيبك.

عرضت بريسانا على كيفن أن يأخذها في جولة تعريفية بمعالم مانيلا، جولة للإحاطة بهذه المدينة المترامية الأطراف ولملامسة كيفن قلباً وقالباً، اختبار استنفاري نسائي ظاهره عبارات وباطنه مداراة.

أمطر العرض على كيفن شلالاً بارداً لا زخّات مطر حارّة كما كان يتوقع ويتمنى، قَبِل العرض باندفاع طفوليّ لا محسوب، والطفل الذي يقبع بداخلنا يأخذنا لعبث نسعد بممارسته وغالبا ما نندم بعد ممارسته!

حشرا نفسيهما في المقاعد الخلفية لسيارة الأجرة الـ "جيبني" التي انتهى عمرها الافتراضي منذ عقدين أو يزيد من

الزمن، ولكن الأيدي البشرية تمنعه من التقاعد بنوعيه: المبكر والمتأخر، وكأن الدهر لا يعترف بشيخوخته ولا خرفه.

انطلقا وبدون تخطيط مسبق نحو قلب المدينة حيث يسرد السكان حكاياتهم اليومية وتبقيها المباني والأزقة منحوتة عليها، تخلدها في سرها المكنون وفي قلبها الذي لا يقبل التغيير وإن حُسِّن بعمليات التجميل، مثّل كيفن دور المرشد السياحي كما تطلّبه الموقف:

- أنظري، كل الشوارع هنا تأخذنا لمركز المدينة.
- وماذا يوجد هناك؟
- تاريخ مانيلا، تاريخ يخلد من عبروا ومن مروا بها وعليها.
- حقاً؟

إحدى سيارات الجيبني المنتشرة بكثرة في مانيلا

- تجدين حتى رموز الديانات المختلفة متجاورة متحابة.
- كيف؟
- هناك مثلاً المساجد الإسلامية، المعابد البوذية والهندوسية واليهودية بالإضافة إلى الكنائس العتيقة.
- أريد أن أعاين إحدى الكنائس العتيقة إن أمكن.
- سنذهب إلى الحي الصينيّ حيث توجد واحدة من أقدم الكنائس في الفلبين.
- جميل جدا، هيا بنا.

قبل أن ينزلا من الـ "جيبني" حذرها من خطورة المتسولين واللصوص في تلك المنطقة في عُرف تشهده المدن المكتظة بالسكان تعبيرا عن استعدادها لتقيئ قاطنيها ورفض القراصنة الجدد.

أخذا يعاينان من الخارج البناء التاريخي لواحدة من أقدم الكنائس الكاثوليكية والتي بناها الأسبان عام 1619 ميلادية وذلك بعد اجتياحهم أرخبيل الفلبين، أُطلق على المنطقة التي تحتضن تلك الكنيسة اسم المدينة الصينية حيث يتكاثر المهاجرون الصينيون هناك كخلايا مرض السرطان.

تقف كنيسة سانتا كروز شامخة صامدة أمام أحداث التاريخ ونوازله المتقلبة وفي وجه التغييرات الجغرافية القاسية، تقع المنارة العالية على يسار الباب الرئيسي والذي بدوره يتوسط بابين فرعيين تعلوهم جميعاً أقواس تشبه في هندستها أقواس المساجد الإسلامية، وكأن الأصل واحد، ترتفع قامة الكنيسة إلى طابقين عملاقين تزينهما نوافذ مقوسة تسمح للضوء بالوصول إلى قلبها، أما لونها الخارجي فحوله (الكربون) إلى أحد أقارب اللون الأبيض ومشتقاته.

ما إن وطأت رجلا بريسانا الكنيسة حتى بدا عليها اضطراب وقلق ظهر جليا على نبرة صوتها وكثرة التفاتاتها، أخذت تطيل النظر في كل الزوايا والجدران؛ استوقفها احتشاد جموع المصلين في صفوف مستقيمة تكاد تملأ كل أرجاء الكنيسة، لم تكن تدرك من تلك (الترانيم) أي معنى، ولكن كان لإيقاعها بالغ الأثر في نفسها، مرّ بها طيف دخولها لمعبد بوذا في بانكوك، هناك حيث سخر منها الرّاهب الأصلع وحطّ من قدرها فسقطت من علٍ، كانت كلماته سهاما أسالت دماء إنسانيتها وغيرت مجرى مستقبلها، انتقلت على إثره لعالم الجنس والتجارة.

كانت تلك المرة الأولى التي يأخذها القدر إلى إحدى الكنائس، رأت هناك قدّاساً لم تفهم منه الكثير ولكنها أحست وأدركت أن الخشوع يلامس المصلين، إن انسيابية وعذوبة الألحان لها وقع موازٍ للكلمات، المفردات يستقبلها الجسد عبر الأذنٍ، والروح تطربها الألحان ومتى ما التقيا أصبح العمل خالداً.

دار بخلدها كثير من الأسئلة المشوشة التي تحتاج إلى إجابات دامغة، سألت كيفن لعلّه يشفي غليلها، فاقترح أن ينتظرا نهاية القداس حيث توجه كيفن لمجموعة من القساوسة و الرهبان فاستقبله أحدهم، ثم أشار إلى بريسانا أن تتقدم باتجاههم، رحّب بها بوجه يملأه الزهد وترسمه الابتسامة والرضا:

- مساء الخير.

- مساء الخير، أنا بريسانا من تايلاند.

- أهلا بك .. الأرض هبة الله لكل البشر اقتسموها بدمائهم ..

- لدي بعض الأسئلة التي ....
- تفضلي.
- .....

تريثت بريسانا باحثة مع ذاتها عن العتبة الأولى للحوار، ترتب أفكارها وتلتقط ثمار تجاربها، الناس مجبولون على الدِين بفطرتهم إلّا الشطط، حتى الشيوعيون الذين يتبرؤون منه جهارا فإن "اللّادين" هو دينهم، فالدين دَينٌ في رقاب البشر، فمن لا دين له لا عقل له، نحن عادة نقع في الزلل حين نقارن بين الأديان من خلال التطبيقات ومن خلال الشخوص، وقد ذُكر على لسان الرئيس الأميركي السابق روزفلت ما معناه: أن من يحاور في الشخصيات فهو سطحي ومن يحاور الأفكار فهو فيلسوف وبينهما يقع عوام الناس وغالبيتهم حين يحاكون ويحكمون على الأديان من خلال سلوكيات البشر وكأن الناس ملتزمون بطبعهم بما جاءت به الأديان سماوية وأرضية!

كانت بريسانا من ذلك النوع الذي يطلق أحكامه على الدِين بسلوك معتنقيه، كانت لها تجارب حياتية مختلفة، بداية فإن من اغتصبها وهي برعم لم يزهر بعد كان بوذياً، ومن طردها من المعبد وألقى بها في براثن شارع التجارة الجنسية كان راهب معبد بوذي أيضاً، ومن أشعل فيها فتيل المرض المتوهم كان مسيحياً، أما قدرها الذي ارتبطت به فإنه مسلمٌ وها هي تحط بين يدي راهب مسيحي !... خليط قد يصل لدرجة الذوبان ألقى بذيوله عليها وكوّن من حيث لا تحتسب جزءاً مهما من تكوينها السيكولوجي انبثق عنه شخصية بريسانا الآنية.

بادرته بابتسامة غير متكلف فيها فاقتربت من نفسه:
- مساء الخير مجدداً.
- مساء الخير.
- أنا بريسانا من تايلاند.
- عرفت ذلك، أهلا بك، كيف يمكنني مساعدتك؟
بدا أنه في عجلة من أمره، بادرته بسؤال مباشر، وأشارت بيمينها إلى صورة عملاقة معلقة في كبد الكنيسة.
- لمن تلك الصورة الجميلة؟
- صورة للإله عيسى المسيح ابن السيدة مريم العذراء.
- وأين صورها؟
بدا على محيا الرّاهب شيء من التذمّر وكأنّ أمراً مُرّاً قد تسلل إلى جسده، أومأ برأسه ثلاثاً ثم تنفس عميقا وقال:
- الديانة المسيحيّة يا أعزائي في أصلها واحد، تعاليمها إلهيّة وضعتها السماء بدقة متناهية لتنظيم العلاقات الإنسانية وللسموّ بالبشريّة لأعلى الرّتب، إنّ الانقسامات والاختلافات المتلاحقة هي نتاج خلافات دنيويّة سياسيّة وفكريّة تُصبغ بصبغة دينيّة .. المشكلة دائما تبدأ من الإنسان نفسه، فهو عندما يقرأ الدين يظنّ متوهماً أنّ فهمه مطلق ويكون غيره في المقابل على خطأ، إننا في الواقع نؤمن بالاختلاف نظريّاً فقط لا سلوكا ولا ندرك أننا لا نملك كل الحقيقة، نحن نملك جزءا من العلم وليس العلم كلّه، نختلف لأنّا أوتينا شيئا من العلم فقط ثمّ كان الحقد والحسد والبغي بين النّاس.
بدا الرّاهب كمن ينفض الغبار عن كاهله وكمن يحمل أسفارا ترهق ظهره وتكاد تكسره من شدّة ثقل ذنوبها وسوءاتها، سحب كيفن للجلوس على الجانب الأيمن من

الكراسي الطوليّة البنيّة وتبعتهما بريسانا، جلس الرّاهب بينهما واسترسل متحدثا:

"إنّ الكنيسة في الأصل واحدة فقط بثالوثها الذي يمثّل المسيح والسيّدة العذراء والرّوح القدس، لقد انقسمت الكنيسة على نفسها إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة هي كاثوليك أرثوذكس وبروتستانت وهناك مذاهب ومذاهبٌ شتّى، جاءت هذه الانقسامات لأهداف سياسيّة تاريخيّة بحتة، كان المسيح أمّة واحدة ولما استأثر كلّ قوم بمصالحهم أضحت أسهل طريقة لإعطاء صبغة شرعية وحقوقيّة على مطالبهم وحروبهم هو وضعها تحت عباءة الدّين، لقد قال الشيوعيّون أنّ الدّين أفيون الشّعوب وأقول هنا أن الدّين عباءة الطامعين في الدنيا، أولئك الطامعون الذين أعطوا صكوك الغفران الإلهيّة ووهبوا الناس قسائم سكنيّة في الجنّة، ألا يكفي أن يكون 1% من سكان العالم يمتلكون 96% من الثّروة البشريّة؟"

أخذت بريسانا تجوب الكنيسة بعينيها ثم تسقطهما في عيني ذلك الرّاهب، كانت تدرك أن إسقاطاته لا تمسّ المسيحية وحدها بل تندرج على ما سواها من الأديان.

أراد الراهب أن يعيد الدفّة إلى الساحل الضحل فيعطي ما طلبه الزائران دون سؤال آخر:

"القيم والمثل في الأديان متشابهة كثيراً وكلها تسعى لتقريب الإنسان من الكمال والابتعاد به عن مستنقعات الرّذيلة، وفي خطوطها العريضة، نجد المتشابهات وكأن الأديان حقًّا إرث سماويّ لكل البشريّة ... الاختلافات في التشريعات والعقائد وليست في المبادئ العامة، وبقدر ما

يبحر الإنسان في وحل الرّذائل هناك إيمان شبه عام على أنّ الأرض يرثها العباد الصّالحون وهناك من سيأتي في آخر الزّمان ليبسط الفضيلة بسطاً."

اكتمل الحوار مشياً على الأقدام وهم يكتشفون ويتفحّصون أسرار الكنيسة العتيقة التي بناها الغزاة أنفسهم لأهداف "سياسية واستعمارية" !!

كنيسة سانتا كروز في قلب مانيلا

*****

قضى كاظم وكاثرين ليلتهما في ذلك الكوخ الخشبي المُحاط بالخضرة والجداول الصافية وقد داعب إبليس روح كاثرين فحيته كثيراً وتمنت أن يطيل المكوث بين جوانحها لعلها تضم الدنيا بين ثناياها، تمنّته أن يعبث بها وبصديقها إلّا أن كاظم تمنّع عليها في اللحظات الأخيرة فارتدّ خائباً حزيناً.

صارت الفتاة تتريث متمنّعةً في بداية أمرها لعل الصدّ يكون مفتاح الولوج إلى قلب كاظم، تقترب منه فتثيره ولكنها تنسحب للخلف مباشرة، وكلّما ابتعدت تفطّن كاظم للعبتها فلم يكترث، فالغلبة أخيراً لا تكون إلا للمستضعفين في السّرير، سئمت في نهاية المطاف ففكرت بكيد نساء وفي أسلوب أكثر نجاعة؛ أدارت ألبوم الموسيقار اليوناني الشهير ياني كريسماليس واختارت بدقة معزوفة رقص الرمال (sand dance) ثم سحبت الرجل من يديه لتراقصه، في اعتراف صريح بحبها والاعتراف بالعشق فضيلة، وضعت يديها فوق كتفيه وأرخت رأسها على جانبه الأيمن تقبل رقبته بشفتيها وتلعقه بلسانها فيما انسدل شعرها الطويل كستارة حريرية على ذراعه في مشهد تُشلّ فيه كلّ الحواس الخمس الإنسانية وتُستبدل بحواس حيوانية، تراقصا وتماوجا كثيرا ثم ابتعدت عنه بخطوتين وهي تمسك بيده، دارت وارتدت إليه بظهرها فاستقبلها برحابة صدره وسعة منكبيه، طمعت في أن تريح نفسها من عناء الدنيا على صدره المفتول فألقت برأسها عليه مغمضة العينين ثم غاصت فيه بكلّها وكأنّما روحها تحلق فوق السحاب، معانقة المرأة بصدرها يترجم كل

شوقها وحبها وإن عانقت ببطنها فهي تتمنى السرير، أما عناقها من ظهرها فهو تعبير عن الحاجة للأمان. لأعضاء جسد المرأة معان متعددة ولكلّ عضو استخدامات محدّدة، "الفارس" الذي ينظر بعينيه لن يبصر ما تريده المرأة.

تهاوت كاثرين ثملة من الحب والشوق باتّجاه عرشها، نحو السّرير الناصع البياض حيث تكون الأنثى هناك ملكة رابحة، في حالة استثنائية للوجود يكون فيه الانتصار سيّان عند الفوز والخسارة! قيل أن الصامت يُكثر من الهيبة وهنا فإن البكم هم سادة الموقف، والعشق ربٌ لا يكره الصامتين فهم حينها في أبلغ دعاء.

استلقى كاظم على ظهره وهو مغمض العينين، استلقت بجانبه ووضعت ذراعها الأيسر على بطنه وتوسدت راحة يدها اليمنى مشكلةً مثلثاً حاد الزوايا، أخذت تداعب شعيرات صدره بأظافرها، وكلما دنت من المنطقة المحايدة بين البطن والصّدر إلا واقشعر بدنه وقرب أجله وكأنما الوصال جنحة ليس عليها تعزير، .. سقط في شبه غيبوبة وترنحت أحشاؤه في سكون! تراءى له فجأة إبليس مبتسماً:

- عليك اللعنة أيها الشيطان.

- ..... (ابتسم ولم ينطق ببنت شفة).

- كفّ يدك عني أيها اللعين.

- .....(دندن برأسه محتسباً).

- أرجوك، أبعدها عني، لن تجني شيئا من وراء هذا.

قطّب الشيطان حاجبيه على حين غرّة وكأنه يتساءل ويراجع نفسه:

- غوايتي لك الآن هي حالة فردية، وما ترمي إليه أنت هو مصائب جماعية، اللّعنة الكبرى ستحل بك أنت أيها الإنسان.
- نفس العاشق ليس عليها دية.
- وكيف تجد لحم النساء، غنيمة أو شرارة حرب؟
- المرأة نارٌ يسعد بها كل البشر.
- حسناً.

اختفي إبليس فجأة من الجدال العقيم على صوت طرْقٍ خفيف لباب الكوخ، أفاق كاظم من غيبوبته وهرب على وجهه من حصار ما بين النهدين، اتجه للباب سريعاً:

- من؟
- الإفطار جاهز.
- شكرا لك، تعال إلى الداخل وضعه على المنضدة.
- بكل سرور.
- شكرا جزيلاً.
- المغادرة في الثانية عشرة إلا إذا رغبتما في يومٍ آخر.
- سنغادر بعد ساعتين..لدينا الكثير من الأعمال.
- مع السلامة.

تنفس كاظم الصعداء ودعا كاثرين للإفطار وذكّرها بضرورة سرعة المغادرة ليتمكن من انجاز أعماله (الوهميّة) المعلّقة، نظرت إليه بعين محبطة من تحت اللحاف، ظنّت أنها المعنية بكلمات النادل، فالعاشق من يظن أن سهام الكلمات لا تتجه إلا إليه، وقفت لا يستر جسدها غير خيوط حمراء لاتُسمن ولا تغني من جوع، لم يبق لفتنة جسدها أي تأثير فأسقطت قيمته ولم تكترث لما كان يعرف بسُلطة الجمال الأخّاذ، أحسّت معه بتواضع جمالها وأنوثتها، المرأة

التي تفقد تأثير سلطة جسدها تزهد فيه وتتجاسر عليه، أصابها وابل من الإحباط العصبيّ النفسيّ الذي يتحول إلى نوع من (البرق) يضرب مفاصل المرأة وتشعر معه بآلام مبرحة لا تنفكّ عنها إلا إذا استطاعت اِلْتِهام فريستها و بأي الطرق؛ وقفت تطيل النظر إليه وهي ترثي نفسها:

- " أزف الوقتُ ولم أُغادر سماءك بعد، حسناً أيها العربيّ، سأقتص منك بمعرفتي ولن يفلت الطاووس بخيلائه من القطة الجريحة مهما بعدت المسافة وطال الأمد، أعلم أن الإسراف في الحب نقمة، ويجب أن تعلم أنت أن الحب جوهرة من يضيعها مرة فلن يجدها".

استشعر كاظم وهُما عائدان إلى المدينة أن الحديد أصبح ساخنا وقابلاً للطرق والسحب وأنها ستقبل على تنفيذ جميع مطالبه، من هنا يبدأ مشوار الألف ميل.

- كاثرين.

- نعم يا كاظم.

- نريد توظيف بعض الطالبات "الموديل" للعمل معنا في المؤسسة.

- المؤسسة؟

- نعم، نحتاج لفتيات قمة في الجمال للعمل بنظام جزئي.

- وما هي طبيعة العمل التي تشترط الجمال للقبول؟

- إعلانات تجارية سينمائية.

- أها، حدد لي جميع المواصفات المطلوبة وسأبحث لك عمن تريد.

- شكراً لك أيتها الـ ..... حبيبة.

*****

بعد الجولة السياحية المقتضبة لبريسانا في أرجاء مانيلا؛ تمكنت فيها من وضع معالم عامة لخطة عمل جديدة مبتكرة تصب في الأهداف البعيدة التي تتقاسمها وكاظم. كانت جولة ترفيهية في ظاهرها استطلاعية في باطنها وكان لرفقتها كيفن ذلك النهار بالغ الأثر وعظيم الشأن في نفسه، وضعت يدها على جروحه و افتكت منه خطوطاً عريضة تصل من خلالها لأهدافها ومرادها، ضحكت كثيراً لكذبتها بعد إنجاز المهمة، فالكذب ضحك مفضوح خاصة لدى العاشقين.

اقتنصته بإصغائها إليه ثم التحدث بلسانه وبصوت عقله ومفردات ذاته، إنه نوع من الذكاء الاجتماعي الفطري، ذكاءٌ يعطيك القدرة على ضم الآخرين تحت جناحيك ودفعهم للتسليم لمبادئك والإذعان لرغباتك حيث تزرع (أناك) العظمى فيهم وتقتلع منهم (أناتهم)، إن مهارة الإصغاء أكثر وقعاً من مهارة الكلام، فالإنسان الذي نُصغي إليه نهبه مساحة واسعة من الأمان لن يستطيع مداد كلماتنا أن يعطيها إياه أبداً، هكذا أتقنت بريسانا صنعتها غير المكلفة في الوصول لقرار كيفن؛ دعاها لوداع قرص الشمس البرتقالي هناك على ساحل ضاحية (مكارتي) في مشهدٍ يسرد ذاته هو بعينه، كان يعاين سقوط قرص الشمس في الأفق الرحب البعيد وقد اقترب من بريسانا وأمسك يدها في نوع من الهذيان الأخرس.

عادة ما يُؤثر البشر الاستغراق في المناظر الطبيعية التي تحاكي ذواتهم، من لا يريد الاختلاء مع ذاته ومراقبتها تراه

يعشق الأماكن المكتظة، ومن تتوق نفسه للأمل والسكينة يحب التأمل في الفضاءات الواسعة، أصبح كيفن يجد ذاته بعيداً عن العاصمة المكتظة بسكانها ويحلم بغدٍ أكثر إشراقاً .. ولعلّ بريسانا تكون المفتاح السحري لذلك الغد .. لذلك الأمل، أصبح لسان حاله يقول أن الدنيا على ثلاثة: أمس لن يعود ويوم لن يدوم وغد محتوم.

شعر بنوعٍ من الميل ناحيتها، تساءل حائراً إن كان الخير مربوطاً بناصيتها، إنه نوع من الحب المرتبك الذي تلعب دفة المصالح بمسيره دون التحري عن خاتمته، لم تكن بريسانا طامعة بتلاصق جسديهما والتقائهما فلم يكن كيفن ذلك الحلم أبداً ولم يكن لها ميلٌ جنسيٌ للإناث ولا لأشباهها، اقتربت منه في مشهد تخديري وقالت:

- يجب عليك يا كيفن أن تبحث عن حياة تجلب لك السعادة.

- ربما أجدها بعد الجامعة.

- هل يصبح الخريجون أكثر سعادة بشهاداتهم؟

- أبداً.

- إذا، هناك طرق أخرى.

- كيف؟

- كيفن، نريد أن تختار لنا بعض الطالبات الحسناوات للعمل معنا في مجال الإعلان والسياحة وستكون أنت ذراعنا هناك.

- وما الفائدة؟

- ستحصل على نسبة مادية عن كل فتاة نستطيع توظيفها ...هكذا يصبح لك دخل ثابتٌ ستتمكن من خلاله إكمال دراستك والبدء بأيّ مشروع مناسب لك.

أعطى إجابته المتسرعة وهو مغمض العينين وجاب بفكره بعيداً يبحث عن أول الضحايا فيما بدت ابتسامة الإنجاز والرضا واضحة مكتملة النمو والملامح على بريسانا.

*****

بفضل العمل المضني والمثابرة، انضم إلى لواء (كاظم – بريسانا) ثلاث حسناوات منهن ماري ليكونّ نواة لتجارة الجنس في عملية موازية للشبكة التي كان يديرها رجل الأعمال التايلندي، تعارفٌ بواسطة الشبكة العنكبوتية (الانترنت) وما أكثر مواقع التعارف الاجتماعي التي لا تعد ولا تحصى، يتبعه ابتزازٌ يوقع بالمجنيّ عليه، وفي أي جريمة تكون الضحية أول سبب لاصطياد ذاتها وإيذائها، أمسى هذا النوع من الجرائم شائعاً بحسب ثقافة العصر، فنوع الجرائم هو مرآة لنمط الحياة وسلوك أفراده.

تأبلس البشر بحِرَفيّة كبيرة فأصبح إبليس وشياطينه يتعلمون من خبراتهم، بدأ إبليس حياته المهنية بتفاحة وهاهو يتصاغر وتضعف حيله وتتراجع أمام آلة التكنولوجيا التي لم يتقنها بعد، كأنما اقترب أجله قبل القيامة وربما سنقرأ قريباً على روحه الفاتحة ترحماً وعطفاً بعدما أصبح الإنسان غولا شيطانياً يعمل على تغيير الطبيعة الكونية بينما كان هدف إبليس الأسمى "الغواية فقط".

من صور النجاح في العمل هو أن تبدأ بجهد كبير يقابله دخل مادي قليل ثم تتحول الصورة للنقيض حين يكون العمل بجهد زهيد ويدر عليك أموالاً طائلة، الشاذ عن القاعدة يعلم أنه لا يسير في الاتجاه القويم وكم يبحر عكس التيار،

وكما أن العمل يجرفك عن أمورك الخاصة فإنفتور الهمة والفراغ يدخلك في متاهات شخصية لن تجنيَ من ورائها غير صداع وأمراض شتى، يصبح الناجح كالزوجة الفاشلة تلك التي تفرح لفتور همة زوجها؛ لذلك كله، تحولت الأموال إلى حساب كاظم الشخصي وتغيرت معالم حياته وبانت ملامح التغيير والرفاهية عليه.. جهد قليل وأموالٌ طائلة قابله خمول ودوران في حلقة مغلقة يختفي معها الأمل والتطلع للمستقبل.

*****

إبّان ذلك، اشتعلت نار الانتخابات الرئاسية في النصف الأول من العقد الأول في الألفية الثالثة، فزاد عمل كاظم، طيور الظلام هي التي تستثمر كل طاقاتها عندما يغيب الرقيب كما أنها وسيلة مستهلكة عند السياسيين، إذا أردت النجاح السياسي فلابد أن تحول دفة شعبك إلى أمور أخرى تبدو أنها عدو مشترك وإن لم تستطع، فعليك العزف على أوتار مختلفة تلهي الناس جميعاً وأسهل تلك الطرق هو تجارة الجنس حيث سيحشد إبليس كل شياطينه معك لبسط نفوذك.

امتلأت شوارع الفلبين بضجيج الانتخابات الرئاسية؛ تم تسخير الإعلام المرئي والمسموع كلٌ لتحقيق أهدافه، غزت الملصقات جدران المدن فغيرت طلاءها، أقيمت الندوات والحملات الانتخابية فالكل يتبنى الفضيلة وهي براءٌ من كل السياسيين فلا يوجد رجل يجمع بين القداسة والسياسة إلا كان كاذبا منافقاً.

في عالم السياسة يكون المال صاحب السلطة الطولى فبدونه يصبح السياسي مشلولا غير قادر على العطاء، ولا يصل غالباً رئيسٌ لكرسي الملك إلا عن طريق ثلاث قوى: الشعب، المال، السلاح .. هكذا وجد والدُ كاثرين نفسه يقارع الساسة ويُقحَم فيها قسراً، المال سلاح فوق رقاب الشعب.

إنّ أراذل القوم ساستها فهم لا يفرضون مناقبهم ليراها العموم وذلك لشحتها، ولكنهم يحاربون الآخر ويظهرون سوءاته؛ عمل منافسو والد كاثرين على البحث عن سيئاته وما يمكن أن يلوث حملته الانتخابية، التنقيب في زلّات الآخرين هو أسهل وسيلة لمحاربتهم، هو سلاح الأجوف؛ تعقبوه حتى وجدوا ضالتهم في ابنته كاثرين، وكان من السهل تعقبها والوصول إلى من تعمل معهم ومنهم كاظم الذي ينتظر إبليس نفسه القصاص منه لأنه صار نداً له في عمله وقيمه فكيف ستكون خاتمة كاظم في مانيلا؟ أين تقذف به الأمواج العاتية؟ الأمواج المتلاطمة والمحرمة: السياسة والدين والجنس.

*****

كما كان هناك نزاع مستعر على قطف ثمرة كرسي الرئاسة، كانت هناك حربٌ غير معلنة على اختطاف قلب كاظم بين حبيبة الأمس بريسانا وبين صرعة الحاضر كاثرين، بين الجمال البركاني الطبيعي وبين الجمال المكتسب، وبينهما يقف الشاب العراقي يستشعر الحرب العاطفية بشيء من الزهو الطاووسي، تغالبه الحيرة أحياناً، لقد أخطأت كاثرين حين فاض كأس حبها فتدفق عليه، إن التفاني في

الحب يصبح ذنبا منفرا للمحبوب، ومن طبع الرجال أنهم لا يرون للمرأة جاذبية إلا بصدودها، فالصد مكر المحب، كان سيل حبها متدفقاً رغماً عنها وكان لزهده فيها استئثارٌ بالطبيعة البشرية.

أما بريسانا فقد كان حبها طارئاً، فحيث لا يجد الرجل وإن كان جباراً حضناً يحتويه فإنه يكون عرضة لأي نزلة حبٍ طارئة، غريب أمرك أيها الرجل، تُقبل فإن أقبلن أضعتهنّ وإن تمنعنّ أصابك المّسُ، أوحت بريسانا لمن حولها أن لكاظم هدفاً حينياً (بضرتها) وأنه سيعود إلى مستقره متى قضي القضاء، كان داخلُها يغلي فالمرأة لبؤة لا تقبل أن تُنازع في ملكها، ولا يمكن للمرأة أن تحتفظ بغضبها طي الكتمان، إذا كان الحسد غير محمود لأنه يأكل الحسنات فإن الغيرة أشد حلكة من ظلمة الليل على صاحبه، فغيرة المرأة مفتاحها للجحيم.

أما كاثرين فما كانت بريسانا لتقف سداً منيعاً في مسارها، لثروة الجمال ثورة وسطوة يُرخى لها كلُ سنام، لم تر أن هناك امرأة سواها لها القدرة في مجاراتها، إنها ليست في حرب مع أضدادها بقدر ما هي في معركة للإطاحة بقلب كاظم، يعتقد الرجال غالباً أنهم من يقررون صيد امرأة بينما الواقع أن المرأة هي التي تفرض ذاتها، هي من تخطط له وهو من ينفذ ثم يظن أنه المنتصر.

عرضت كاثرين على كاظم أن يقضيا بضع ليالٍ في جزيرة (بوراكاي) لعلّها تقبض عليه وتحقق مآربها وعندها يمكن أن تقرر التخلي عنه متى تشاء، من جهته، وافق لأنه يتوق لاكتشاف أرض لم تطأها رجلاه بعد وليأخذ قسطا من النقاهة

تنسيه عناء الحياة، إنّ للسكّر والملح لونا واحداً والتجربة خير برهان، ولابد للإنسان أن يتعلم كيف يعيش بطريقته لا كما يريد الآخرون، كان لزاماً عليه أن يُشعر بريسانا بهدفٍ معلن عبارة عن تجنيد خلية أخرى، أما هي فكانت ترى أن كاظم في طريقه لأن يشق عصا الطاعة ويغرد خارج سربها، المرأة التي تضع حبها أمانة في قلب رجل لها كل الحق في امتلاك مفتاحه، أعطته الأمان بلسانها أما قلبها فكان يلتهب غيظاً ولن يضيرها إن خسرته أن تفقد كاظم للأبد.

انتقل كاظم وكاثرين من المطار الداخلي في مانيلا إلى مدينة (سيبو) عبر رحلة جوية تستغرق ساعة كاملة ثم استقلا عبّارة بحريّة لثلاث ساعات قبل أن يحجزا أحد الشاليهات في منطقة (ستيشن 1) الساحلية، كأن الجزيرة من قطع الجنة فعلاً، قطنا في كوخ خشبي صغير تتوافر فيه كلُ الكمالياتِ الحديثة، كوخ يقع ضمن منتجع بحري في شبه غابة استوائية تتنقل بينها عبر ممرات ضيقة مرصوفة بالطوب الأحمر وتغطيها الأشجار بكثافة ودقة في توزيع هندسي بديع، تتساقط ذرات المطر بمقدار تجعل الهواء رطباً فيه نفحة باردة، تأخذك الممرات إلى ساحل الرمال البيضاء الناعمة لتلامس خليجاً أزرق بعيد الأفق، تبدو فيه الجزر الصغيرة المتناثرة والبعيدة وكأنها أحجار سوداء، القاطن هناك يكاد ينسى الدنيا وما عليها.

اعتقد كاظم أن من حق الحبيب أن يبحث في نظرات حبيبته وأفكارها؟ بادرها بحديث يقطع من خلاله السكون ويبني أواصر عاطفة زائفة تقوده نحو لحم الأسِرَّة، حيث تكون

المرأة هناك كالكتاب، ولاشك أن ألذ أنواع الكتب هي الممنوعة، المشاعر الكاذبة تشبه قسم الزّور في مؤازرتها للحقيقة ..

- كاثرين، أجدك أكثر جمالاً كلما أمعنت النظر فيك.

أخذت تنظر له بطرف عينيها .. لم يثرها كلامه أبداً، الصدق سرد واقع والكذب إبداع، والكذب يكون أحياناً أكثر جمالاً، فالمرأة يرهقها عدم التغني بجمالها ولكن للكلمة التي تعكس المشاعر ثقل الجبال على قلبها، تمنته ألّا يقرر حقيقة هي في عينها من المسلمات..

- لماذا أنتِ صامتة هكذا؟

- هل تحبني؟

- وهل خُلق رجلٌ لا يعشق الجمال؟

- الجمال قد تجده معي وقد تجده بعيداً عني.

- ولكن جمالك استثنائيٌ.

- الاستثناء لا يستقيم مع العوام.

أمعن في كلامها صامتاً وخفت كلامه، للكلمة وجهان كما العملة المعدنية نراها ملساء ونستشعر حروفها حين نلامسها ثم تلامسنا، أصبحت تستخدم سلاحه وتجاريه في بلاغته، أراد كاظم عبور نهر الحوار الساخن والانتقال نحو الضفة الأكثر أماناً لكنها اتخذت جلستها تسحب فيه من تلابيبه تمانع ذات العبور الذي استعصم عنه في المرة السابقة.

الأنثى لا تنسى نوازل دهر حبيبها وإن أسقطته بمكرها، فالمكر هنا أداة لتحقيق المآرب وهي لا يشبعها غير التسليم لها ورفع الراية البيضاء وبجانبها باقة حمراء، ولن يستطيع معها نصرا، هذه الحورية خليط إنسٍ وجانٍ تهبك اللّيان

فتقبل وتعطيك اللّهب فتدبر، ولذلك هناك قلوب لن تحبك وأخرى لن تكرهك فأحسن الاختيار، إن المرأة عصب الحياة وبدونها لا تستقيم، أما نارها وإن كبر وهجها فإنها تُطفئ بقليلٍ من الماء فلابد للرجل أن يعرف كيف وأين يصبُ (ماءه)، لم تكن مهارة كاظم بذلك القدر الذي يستطيع احتواء كاثرين وإن أخمد نارها.

*****

في عُرف سياسي عالمي خبيث، لم تستطع مانيلا أن تثور عليه وتنحرف عن مساره، فالسياسة هي هي، خبثٌ مركب وجريمة متراكمة يمارس دعارتها الساسة، والسياسي الناجح هو الذي يزني بشعبه مراراً ولكن برضاه وطيب خاطره، يعلنون الحرب على بعضهم باسم المصالح السامية للشعب ثم يتسابقون على فضّ بكارته كل حين، ولا يحذر السياسي النجس غير دموع ثلاثة: اليتيم والمظلوم والأم.

ولحروبهم البينية مطلق الحرية والعدالة للبحث في سقطات الآخرين وزلاتهم، السوي هو من يطهر ذاته ويتسامى بشرفها، والسياسي هو الوضيع الذي يدنس الآخر ليرفع هامته فوق نجاساته؛ لم تكن الانتخابات الرئاسية مقتصرة على المترشحين لكرسي الرئاسة ولكن على كل من ينتمي لأي حزب، ولم يشذ المستقلون عن القاعدة، أصبح الإعلام يشن حرباً ضروساً على المنتمين لتلك الأحزاب ولعلّهم يهتفون: نجاسة الندِ قداسة عندي. هكذا صار والد كاثرين كمن سواه مطمعاً للأحزاب المتنافسة، صار التدقيق والتقصي في أمواله وشركاته وحتى عَرضه فريسة يحاول الكل الوصول إليها.

وبمطاردة مستميتة، أدرك القناصة العمل الجديد لكاثرين وانضواءها تحت مظلة (المافيا) الجنسية، تُهَم وهمية قد تهد الجبال فكيف إنٍ أصبحت حقيقة، أضحى تعقب أعضاء الخلية سهلاً يسيراً عبر معرفه العنوان الالكتروني (IP)وسواه.

خلص المتحاربون إلى نتيجة لا تقبل الشك والتأويل وقابلة للعرض الإعلامي عندما يحين الموعد النهائي لختام الحملات الرئاسية: "كاثرين ابنة الذراع الأيمن للمرشحٍ الرئاسي تعمل ضمن (المافيا) الجنسية وهو ما يوضح جلياً الفساد المالي والأخلاقي للمرشح الرئاسي وحزبه".

لم يكن من العسير على فرقة الطوارئ العاملة أن تحدد عناصر الخلية كلها وأن يأتي الأمر من قمة الهرم للتخلص منها جميعاً درءاً للفتنة ووأداً للفضيحة القاصمة، الرؤساء يضعون أنفسهم في مقابل دولهم! فهل يستحق رأس أي رئيس تدمير دولة كاملة؟

أصبح كاظم ورفاقه على قائمة المطلوبة رقابهم بمن فيهم بريسانا، كاثرين، كيفن، ماري وغيرهم.

تلقت كاثرين صاعقة تلفونية مقتضبة من والدها أضافت لها حشرجة صوته الكثير من المعالم:

- كاثرين، أين أنت؟

- بوراكاي، استجمام ليومين مع الأصدقاء.

- وُجِدت لك بعضُ الصور الخليعة في بعض المواقع الاجتماعية والإباحية.

- ماذا تقول؟

- هل أنت على معرفة بذلك؟

- أبداً...أقسم لك بذلك.
- سنناقش الأمر لاحقاً ولكن عليك الاختفاء عن الأعين سريعا.
- حسناً يا أبي.
- ليكن اتصالك من أي تلفون عمومي.
- وداعا.
- إلى لقاء.

تزامن التحرك الذاتي لوالدها مع تحرك الحزب الذي ينضوي تحت لوائه، فأصبح تائها بين ضيق الوقت وفائضه، كان الرجل يريد اغتيال الخلية كلها وإنقاذ ابنته، وكان الحزب يريد تطبيق سياسة الأرض المحروقة دون اكتراث لأطياف البشر وأصولهم. أرسلوا واردهم للقصاص وأدلى بدلوه لكي يسبقهم ولعل القدر لا يخذله، لم تُشعر الأطراف المتصارعة بعضها، فالعاقل هو من يعمل بصمت والمغرور من يتحدث عما عمل أما الغبي فهو من يتحدث عما سيعمل.

بعد تلك المهاتفة المفجعة، جمعت كاثرين نفسها ولم تلملم بنات أفكارها، كانت تعي تماماً أنّ الحزن يحرم على أشخاص فشلوا في الاحتفاظ بك، أصابتها المكالمة المفاجئة في مقتل، وقع الأخبار ليس في ماهيتها وإنما في وقع الصدمة حيث يصاب الإنسان بشلل فكري يحتاج معه إلى توسل الوقت من أجل تهيئة نفسه وإعادة ترتيب بيته وأوراقه.

لم تكن الفتاة تأبه إلا بروحها والحفاظ عليها، جُبل الإنسان على حب الذات أما الإيثار فهو فضيلة تضاف حالياً لمستحيلات المثل العربي الشهير: الغول والعنقاء والخل

الوفي، جمعت أشلاءها وحاجاتها بينما كان كاظم يراقبها ويدرك أن زلزالاً قد حلّ بها وأنه ينتظر علامات الساعة التي ستخبر عن قيامتها.

عزف كاظم على أحد أهم الأوتار العاطفية للمرأة، وتر بناء الأسرة والإنجاب حيث لا يمكن لأي امرأة أن تصمد أمام حاجزه:

- كاثرين، ألا تفكرين في الزواج؟
- أيُّ أُسرة بعد اليوم؟
- أسرة يملأها الحب ويزينها الأطفال.
- الأطفال؟
- نعم، أليسوا تلك النعمة الإلهية الكبرى التي ...

قطعت عليه حبل ذلك الحوار العقيم ومنحته عقبها استهتاراً واستصغاراً، أدرك كنه قفاها فقرر مغادرة الشاطئ لعلّه يجد حتفه غرقا، نعم علينا تعلم فنون المد والجزر في الحب .. فمن لا يتقنه يغرق. فهو بلا شك على يقين أنه من الذل أن ترغب فيمن زهدك ومن الكبائر أن تزهد فيمن رغبك، وضع ملابسه على المنضدة الموازية للسرير لا تستره غير (فوطة) تمويهاً لخروج يترقب من يصده، أما كاثرين فأوصدت الباب قبله وانطلقت للشاطئ ترتدي عشوائياً ما يستر جسدها دون أن يكون للانتقاء والتأني أي دور، ملابسنا مرآة لأمزجتنا، للألوان مشاعرنا وللأناقة أهدافنا.

وصلت للشاطئ حافية القدمين تغرزهما في مياهه الضحلة، تقزّم نهداها وانحنى ظهرها ولم يبق من فتنتها غير الشعر المتطاير عبقا وإن لم تكترث بتصفيفه، وعلى النقيض

، اتخذ كاظم الاتجاه المضاد وكأنهما يخططان للجفاء الجغرافي الذي عادة يسبق ممهداً لأي انسلاخ عاطفي، ذهب يساراً ورجلاه تخطان الأرض حتى انزوى يستظل بين شجيرات الموز وجوز الهند المتجاورة، وضع يساره على رأسه وأخذ يخط بيمينه فوق التراب:

الدهر ينســـيك الحياة ومرّها والصبر عند النائبات عظـيــمُ
لا خير في نعمٍ السماء ومائها إن كان من يجن النـعيم لئيمُ
إن اللئيم يرى الصغـــار نوازلاً .....

مسح كلماته من على التراب ولم يكملها، كأنما أدرك أنّ الكلمات المكتوبة لا تعبر عن الحب لأنها لا تعكس المشاعر، استلقى على ظهره والحيرة تملأ جنباته، هل يُجري اتصالاً هاتفيا ببريسانا في العاصمة ويدعوها لعدم الحضور حيث يقطن مع كاثرين كما أخبرها مسبقا، أم يدعوها لحزم أمتعتها ثم مغادرة العاصمة للجنوب حيث (مندناو)، أو أنه يسبق كاثرين بذراعيه وقلبه قبل عودتها للكوخ فيضمد جراحها ويملأ قلبها سعادة وفرحا كما ملأه غيظاً وهمّا؟!

كان يُفكر جلياً في الاستقرار الأسري وهي سنة بشرية محمودة، ولكن الواقع يفرض ذاته عليه ويغرز فيه رماحه، لم يكن الاختيار هيّناً عليه أبداً، لا بد أن يفكر في العواقب، إن زواج الشهوة عرضة للانهيار السريع لأنها متقلبة الأطوارٍ، فالرغبات تتعاقب على الإنسان كلما أنس شريكاً جديداً، ولذلك، فإن زواج الشهوة حب متوهم لا يصمد أمام نوازل الدهر حيث تبقى الغلبة للمعايشة الحياتية؛ كان يقرأ المستقبل بعين حمئة ويتأمل ما سيكتبه في كتاب قادم أيامه.

أصبح هاجس تكوين الأسرة شاغله الأساسي، إن ارتباطه بكاثرين سيوفر له على الأرجح أطفالاً يحقق حب البشر في الخلود عبر أبنائهم، ولكن هذا الزواج ربما يكون محكوماً بالفشل، إنه يرى فيها أجمل أنواع الأسِرّة الذي يسعد الرجل أن يعبر به يوماً ما ولكن يكره أن يمر به غيره، هذه كاثرين وهذا جسدها الممتلئ بالرغبات، ولكن .. هناك أبوها الذي يقف خلفها والذي ربما يكون حجر عثرة أمام هذا الزواج.

ومع بريسانا يقف الخيار الثاني متردداً صعب المنال، هي شريك حياته الذي وقف معه في الملمات وسارت معه ردحاً من الزمن، وجد فيها التفاني في الحب والإخلاص، كانت تضمد جروح نفسه كلما تقيأ فيها الزمن وأجرى فيها مفاسده، ولكنه كان يعي بحتمية استحالة الإنجاب منها فهي امرأة متحولة لا تمتلك رحما قادراً على احتضان بويضة منقحة تنمو في غيابة رحمها.. "إنه زواج غير مكتمل"..

تساءل مراراً وبحث تكراراً عن الطرق الحديثة لحفظ النسل، طرق ليست سماوية في شرعيتها ولكن بوادر انشقاق على الطبيعة البشرية تلوح في الأفق وتتغنى به:" لماذا تسمح بعض الدول للمثلين بتكوين أسرة وهي تعرف استحالة الإنجاب؟ وهل سيكون العلم الحديث قادراً على فك طلاسم التناسل بعيداً عن الشرع السماوي الذي يبدو يقينا هو الأصل وأن هناك من يحاول التنصل به والانقلاب عليه؟ وهل ما عاد يُعرف بالاستنساخ قادر على أن يفك طلاسم الزواج التقليدي؟ أسئلة كثيرة ورّثت صداعاً في رأسه فتوسد التراب وأخذ يخترق السماء بعينيه لعله يجد إجابات شافية

مكتوبةً فوق السحاب أو على سطح القمر التائه حينها مع أشعة الشمس[7].

*****

حمل التاكسي بريسانا إلى العنوان الذي تضعه في وريقة بين يديها:

منتجع نامين 13، المحطة الثانية، بوراكاي، الفلبين.

وقفت مرهقة من عناء السفر أمام موظفة الاستقبال:

- مساء الخير.
- مساء الخير سيدتي، كيف يمكنني مساعدتك.
- أبحث عن الكوخ رقم 13.
- هل لديك أحدٌ هناك؟
- نعم، صديق.
- أريد هويتك إن أمكن ذلك.
- تفضلي.

سجلت موظفة الاستقبال بياناتها في أوراقها الرسمية ثم أشارت بيمينها شارحة الممرات الضيقة:

- هناك ستجدين مجموعة من رجال الشرطة.
- الشرطة؟
- هم هناك لخدمتك ومساعدتنا.
- شكراً جزيلاً.

---

[7]- أصبح باراك أوباما أول رئيس أميركي يعلن تأييده لزواج المثليين في 9 مايو 2012 ليتخذ هذا النوع من الزواج صفته الرسمية .. كما أضافت أستراليا خانة جديدة تمثل المثليين في جوازات السفر.
http://www.bbc.co.uk/arabic/worldnews/2012/05/120509_obama_same_sex.shtml

توجهت تحمل حقيبتيها وأثقالاً فوق كاهلها تتمنى أن تلقي بها على (رجُلها)، اقتربت من الكوخ فاستوقفها أحد رجال الشرطة:

- نعم يا سيدتي.

- أريد كاظم، إنه يسكن هنا حسب العنوان.

طلب منها الهوية والعنوان الذي بين يديها.. ثم قال:

- ما علاقتك بالقتيل الذي يوجد داخل الكوخ؟

عجزت رجلاها عن حملها وتبعثرت أعضاؤها فهوت إلى الأرض من هول الصدمة وكأنما غابت عن وعيها واسودت الدنيا في عينيها، رفع جسدها الذي لازال ينبض بالحياة اثنان من رجال الشرطة وأجلساها على أحد الكراسي الخشبية المصفوفة على قارعة الطريق، شربت كوب ماء لتسترد بعضا من أنفاسها وبدأت دموعها تنهمر في صمت حارق كالجمر.

لم يكن خيار الموت الحتمي والفراق مطروحاً بين جوانحها، فنحن لا نشعر بالموت لأنه قريب منا جداً، الموت هو أحد أركان حياتنا نتعايش معه ولا نشعر به على الرغم أنه يفتك بخلايا أجسادنا كل يوم، الموت لم يشق عصا الطاعة عن الطبيعة الأزلية فنحن لا نعرف ثمن الشيء إلا بعد فقدانه، ولا نشعر بقيمة الحياة حتى تنقصم أعمارنا.

إن أغلب البكاء على الموتى هو رثاء للذات، فالعويل لا يمس الجسد المسجى أمامنا، إنما نحن نبكي عواطفنا التي بُترت فجأة وتدمع أعيننا خوفاً أن تكون أجسادنا هي الهدف القادم لملك الموت! الجزع عند الموت لا يُصيب إلا من ظلم نفسه في حياته ولم يخش عاقبة الأمور.

استرجعت بريسانا توأمها واستذكرت محاسنه، المرأة التي تفقد رجلا تفقد معه ظلّه الوارف الذي يشعرها بالأمان بمجرد أن تدركه حولها، أصبحت بريسانا تتخيل مستقبلها بدون كاظم، نفق مظلم ليس له قرار، وكلما غاصت في ذلك النفق كلما ارتفع أنينها وتعملق هول الفجيعة، انقضى الحب وما عاد للكلمات مداد.

رفع رجال الأمن جسد الضحية من مسرح الجريمة بعد إجراءات المعاينات الجنائية، تبعته بريسانا تنتحب فأعادوها إلى حيث تجلس ودعوها للانتظار ريثما يعود الضابط المسئول لبدء التحقيق معها الذي جاءها بعد دقائق معدودة:

- سيدتي، أقدم لك تعازينا
- شكرا لكم.
- متى التقيت آخر مرة بالضحية؟
- قبل أسبوع تقريبا.
- أين؟
- في مانيلا.
- ما طبيعة العلاقة التي تربطك بالضحية؟
- صداقة، عمل وربما أكثر.

تواصل الضابط في تحقيقه الدقيق ثم طلب من بريسانا عنوانها الدائم والتوقيع على محضر أقوالها بعد قراءته، تناولت المحضر ووقعت عيناها على اسم الضحية: "كاثرين آدامز".

*****

كان كاظم يراقب مع جموع السائحين ذلك المشهد البوليسي من بعيد وكأن الأمر لا يعنيه، استقر رأيه إلى الانتظار والتريث بعيدا، يترقب الموقف حتى تنجلي الغبرة، كان القلق والخوف ملازمين له، أدرك أنه كان الهدف المنشود، وازداد رعبه عندما اقتحمت بريسانا مسرح الجريمة طواعية.

لمقتل كاثرين بمسدس كاتم الصوت معانٍ مريبة ومهيبة تعمّد على إثرها الانسحاب للخلف عبر جهة البحر ثم جرّ نفسه للشارع انتظاراً لبريسانا بعيداً عن الأعين، أمسى يراقب خطاها ويتبع أثرها كما يتبع الخيط سمّ الخياط، استقلت سيارة أجرة وكان لقلبها قرن استشعار يخبرها أنّ حبيبها يحث الخطى خلفها.

وضع يده على كتفها ما إن ترجلت من السيارة ودخلت أحد المطاعم المحلية، التفتت إليه وعانقته بحرارة لم يعهدها منذ زمن بعيد جداً، منذ أن أخبرها الطبيب بسلامة فحوصاتها في مستشفى بانكوك الدولي، اختلسا جلسة في أبعد زاوية في المطعم وتحدث لها:

- بريسانا.
- نعم.
- يبدو أنّ هناك من اكتشف أمرنا.
- ومن تتوقع أن يكون؟
- لابدّ أنه أحد الضحايا ويريد استرجاع ماله والانتقام أيضاً.
- ما العمل؟
- أن نراقب الوضع من بعيد وأن نجمد عملنا إلى حين.
- وبعد ذلك؟

- لا بد من مغادرة الفلبين ولكن ليس من قلبها..بعيداً عن مانيلا.

قررا التوجه جنوبا ناحية (منداناو) حيث تتمتع الولاية الإسلامية هناك بالحكم الذاتي وبشيء من الخصوصية ربما توفر شيئا من الطمأنينة لهما وتعبّد طريقاً يبعدهما عن تلك الأراضي القاسية، أخذا يتابعان بشغف كبير الأخبار المحلية المرئية منها والمسموعة لعلّ الفرج ليس ببعيد.

اختار كاظم أحد الأحياء النائية البعيدة عن الصخب واستأجر غرفة تحميه من أعين الناس ومطارداتهم، لم يكن للانفتاح على نفسيهما بدٌ بل كان أمراً حتمياً، أخذا يستذكران ماضيهما المشترك و يقرآن مستقبلهما المنظور:

- أريد أن أنجب أطفالا ليُخلّدَ اسمي على هذه الأرض.
- يمكنك أن تبحث لك عن زوجة فأنا لا أستطيع الحمل.
- يُقال أن هناك بعض البنوك الطبية التي يمكنها أن تحتفظ بخلايا الإنسان ثم يستنسخ منها بشرٌ يكون صورة طبق الأصل من صاحبها.
- فكرة جهنمية.
- سأضع بعض المال بجانب تلك الخلايا وأحدد تاريخ الاستنساخ، لعل الله يحدث أمراً.
- ولكننا غير متزوجين.
- لا عليك، فكثير من الدول أصبحت تطبق زواج المثليين رسمياً.

انتشرَ الصمتُ والقلق في أرجاء الغرفة الضيقة، وضع كاظم رأسه في حجرها لعلّ القطا يغفو وينام وهي تفترش الأرض وتستند على السرير الذي تواضع حياءً ناحية زاوية

الغرفة، طرق قلبها وفكرها مراجعة الذات وانتقادها فهي عادة بشرية تتولد حين يتبع الإنسان قلبه وهواه ثم يعود بعقله ليعيد ترتيب شئون بيته الحياتية، مسحت برفق على شعره وجبينه وهي تقول: " كاظم، مالي وأنت؟
السماء مليئة بالنجوم وليس لي إلا نجمك لأعشقه...فلماذا؟ أجدني سأقاتل عنك .. كأنّك عقيدتي".

أصبحت لا ترى ضيراً في تغيير مذهبها وديانتها من أجل حبيبها، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي منعت بعض الديانات السماوية زواج المرأة برجل من غير دينها، هو العشق حين يغلب ميزان الحبيب كفة الدنيا بما عليها! هو العشق الذي لا نجد تفسيراً منطقياً لأسبابه!

تساءلت إن كان لجنسها المتحول وجودٌ واستمرارٌ يحفظ لها البقاء النوعي للبشرية، الشذوذ عجز دائم عن تأطير القوانين، إنه كالشيطان سرطان ينتشر بقوة ولا رحمة ولكنه يعود خاسئاً خاسراً على عقبيه.

غطّ كاظم مبتسما في نوم عميق، إن حبيبك كعدوك يشعر بابتسامتك ..الأول يشعر بحبك والآخر يشعر بقوتك، أسندت رأسه على المخدة النّاصع بياضها وتوجهت لتدير التلفاز تزامناً مع نشرة الأخبار الرئيسية في التاسعة مساءً، فجاء الخبر الرئيسي كالتالي:
" مقتل فتاة فلبينية على يد إرهابي مسلم في مدينة بوراكاي السياحية ولازال البحث جارياً للقبض على القاتل الذي ينتمي للجناح العسكري لمنظمة إسلامية إرهابية...."

الفصل الرابع

العام

2082

بعدما تأكد بنكُ الاستنساخ من الحمض النووي (DNA) الذي يثبت شخصيته، تسلمّ (زد كاظم) بيدٍ باردة ذلك الصندوق الأخضر الذي حُفظ فيه تاريخُه من أصل وفصل؛ وقد حُشِرت في الصندوقِ قلاداتٌ ذهبية ومجوهراتٌ كثيرة إهداءً من والده، ومعهما أقراصٌ مضغوطة نقشت عليها عبارة: "حفلُ الزواج".. أخذ يعبث بين المقتنيات بيديه ويجولُ بفكرِه لما وراءها حتى رفع بيمينه مجموعة مذكرات ورقية كُتب عليها اسمُه ولكنه أدرك سريعاً أنّ رُبّ كلمةٍ لك لم تكتبها أناملك، وقد جاء على إحداها: "عقد زواج: كاظم/ بريسانا".. تبيّن له برجفة تدقيق بطيئة أنه عقد زواج رسمي مدني بين رجلين مثليين تم تزويجهما برباطٍ مقدسٍ في كنيسة وندسور بالعاصمة البريطانية لندن العامٍ 2005 ميلادية، وفي رسالة ورقية مرفقة بالعقد محفوظةً بعناية فائقة وجدَ خطاباً من والده جاء فيه:

بني زد كاظم ..
أعلمُ يقيناً أنك لن تقرأ هذه الكلمات وأنا على قيد الحياة، وأنّ هذا المداد يمثل إرثك وتاريخ أجدادك وسلالتك البشرية، وأصبحَ من الواجب عليّ أن أبوح لك بما خفيَ عنك وأن أُوثقَ مطمئناً كلَ محطاتِ حياتي لعلّك تهنأ بعيش سعيدٍ وتظل هادئ البال مبارك الخطى.
زد كاظم .. لقد وُلدَ أبوك في أرض الفراتين لوالدين عربيين في أرضٍ كانت (وربما لازالت) تُسمى العراق، ولمّا كانت الحياة بمرها لا تُطاق والدمُ لم يكن إلا ليراق خلال الحروب أو مشاهد القتال؛ دفعتني الأقدار إلى أن أغادر ترابها إلى غير رجعة، توجهتُ إلى أقاصي الأرض متنقلاً بين بلدان عدة مطارداً ومحاصراً، ولم يكن لي كلُ القرار في الارتباط من بريسانا، توجهنا بعدها لنوثق زواجنا في كنيسة وندسور في لندن.
بُنيّ .. ولمّا كان إنجابُ المثليين محالاً، لم يكن لي خيارٌ غير التوجه إلى أحد بنوك الاستنساخ الدولية وحفظ بعض الخلايا التي اُستخدمت في استنساخك عني لتتمكن من قراءة هذه السطور وما وراءها الآن، إنني لا أعرف على وجه الدقة متى تقرَّرَ بعثك للحياة ولكنني تمنيتُ الإنجابَ وهو حقٌ طبيعيٌ حفظته السماء للبشرية.
بنيّ .. ستجد مع المرفقات مبلغاً ماليا كبيراً بالإضافة إلى صور زواج والديك.
أتمنى لك حياةً سعيدة في أيّ زمان ومكان
والدك: كاظم
لندن

وفي عُرفٍ بشريٍّ غير موثّق كتابيا ولكنه مرسوم روحياً، أعاده كلُ ذلك المشهد الضبابي إلى التقصي عن ذاته الضائعة وقاده العزم إلى البحث فيما وراء "الإرث" المحفوظ في صندوق بنك الاستنساخ الدولي، فقد قيل له منذ أمدٍ ليس بقريب، إنّ تاريخه مدوّنٌ كوثيقة ثابتة في ذلك المستقر والمستودع المسمّى بصندوق الأمانات، ولكنه لم يشعر قط بالحنين لذلك التاريخ، ولم يدرك أهمية غيره في تكوين شخصه وتربيته، فقد كان بلا جذور ولا أصول، ولم يكن لماضيه أيُ تفانٍ وأثر حتى أدرك يقيناً أنّ الغدر قيمة الإخلاص.

قفز إلى ذهنه أن يجد خليلاً يواسيه في كربه ويشاركه همّه فيتبعثر الهمُّ الثقيلُ سريعاً بينهما ويصبح حمله هيّنا قبل أن يتلاشى مع الريح؛ فكّر جلياً في زميلته الجامعية إس جينفر، فقد كان يستشعر أنهما يحملان نفس السوداوية في حياتهما التي لم تولد إلا منقطعة من نسلها و... تاريخها، أدرك أنه سيجدها بين يديه في غرف الدراسة التي تجمعهما بصورة قسرية ليس له في الاختيار ناقةٌ ولا جمل، ولم يستعجل توقع المستقبل وما سيكونٍ عليه حالها عندما تعرف أبويها وتعي كيف قذفا بها بعيداً في هذه الحياة الزائفة، فهل يكون للفضائل والرذائل مكانٌ إذا تغيرت ظروف وملابسات تكوين الإنسان؟!

*****

لقد كان الإنسانُ منذ خليقته الأولى شغوفاً بالغيب يرجمه تارةً ويجافيه تارةً أخرى، لا يملُ ولا يكل، يحاول جاهداً

اكتشاف المجهول ليأنس به ويعيده سيرةً يسيرة مُسخّراً إياه لخدمته، يحاول ملامسة الأرواح وفك طلاسمها كما يمسك بالأجساد!

إنّ عذاب الإنسان حقاً هو بقاؤه معلقاً بين الحقيقة والوهم؛ فالحقيقة تؤذيه والوهم يسعده كثيراً، تجده يتعملق في مداركه وقدراته توهماً وواقعاً، فيحوِّر ما بين يديه من هبات طبيعية لمصالحه التي تصبُ كما زعموا في سبيل رفاهية عالمية للبشرية قاطبة؛ حتى أصبح العلمُ سلاحاً ذا حدين كذي الفقار، يسمو به متجاسراً مستأسداً وإن تطلب ذلك مسح البشرية وإبادتها عن بكرة أبيها من على كوكب الأرض خدمة ومنفعةً لمن يمتلك سلاح العلم هذا، ليؤكد أنّ لهوى كل نفسٍ سريرةٌ لا تُدرك.

وفي عودة للتاريخ السّحيق؛ نجدُ أنّ الإنسان قد خرج في قصةِ حضارته كما بينها ويل ديورانت[8] من الكهوف والأدغال، ودفع مرارة الخسائر كثيراً، ولكنه كان يدرك أنّ الخسارة الأكبر هي سرُ أعظم نجاحٍ مستقبلي، وأنّ الحظ يقرأ انطباعاتنا وأحلامنا مراراً قبل أن يقرّها، تحول بعدها للمدنيةِ صناعة وتجارة وزراعة ... ولكنّ أفق أحلامه وطموحاته ليس له قرار، انتقل في اكتشافاته متأرجحاً بين اليابسة والمياه، وها هو يصارع السماءَ ويبسط سطوته وسيطرته على القمر الذي يُعتبر أقرب الأجرام السماوية للأرض من حيث المسافة ومن حيث تكوين تربته وغلافه الجوي.

---

[8]- قصة الحضارة كتاب موسوعي من تأليف الفيلسوف الأميركي ويل ديورانت وزوجته أريل ديورانت تحدثا فيه عن قصة جميع الحضارات البشرية منذ بدايتها وحتى القرن التاسع عشر الميلادي.

أنشأ إنسانُ القمرِ البحيرةَ الصناعيةَ الكبرى العام 2063 ميلادية باعتمادِ أجهزةِ التكثيف الشمسي التي - وبمعادلة فيزيائية - تحوّلُ البخار الكوني المتناثر في الفضاء إلى مياهٍ طبيعية تضع بين أيدي التجمعات البشرية والمستعمرات قاطبة كلّ احتياجاتها، ومن هذه التجمعات تبرز المدينة الأم، مدينة آرمسترونغ، وهنا تقع البحيرة العملاقة على بعد ميلين شمالاً منها وتنحدر منها شلالاتٌ خلابة توفر طاقة كهربائية تحول المدينة إلى ما يشبه البيتَ الزجاجي الضخم حيث تنتظم فيه درجة الحرارة ويُحدُ من ارتفاعها وانخفاضها وليجعل منها ذلك نموذجا لمدن الجنة الخالدة، فالثمار هنا ليست موسمية بل دائمة، والخضار متوفرة متى تطلبها وكيفما تشاء، أما المياه فعذبة زلالٌ منقحة من الأملاح والغبار، والمجالُ الجويُ بلا دخانٍ وذلك بسبب الحظرِ المطلقِ لاستخدام النفط ومشتقاته، والخوف من الطاقة النووية ومضارها وتعويضهما بالطاقة الشمسية المتجددة، فالعام هنا يختصر الفصول في موسم واحد، ومما يميّزه أنّه ربيعيٌ معتدلٌ لا بردا قارصا ولا صيفا قائظا؛ إنها المثابرة التي تزرع الأحلامَ البعيدة لتوثّقها حقيقة ملموسة على أرض الواقع.

يحتلُ متحفُ نيل آرمسترونغ بغروره قلبَ المدينة تقريباً متحكماً بشراييننها وهو لا يزال بروح الانتصار يحافظ على حفريات أول رائد فضاء هبط على سطح القمر في 21 يوليو 1969 ميلادية وبجواره لازالت كلمات آرمسترونغ الأولى تغرد مفاخرةً بلا انقطاع، كلماته التي قالها مع باكورة خطواته الأولى

وهو يعبث ببكارة القمر: "إنها خطوة صغيرة لإنسانٍ ولكنها عملاقة للبشرية"، هناك لا يزالُ عَلمُ ما كان يُعرفُ بالولايات المتحدة الأميركية الذي ركّزهُ آرمسترونغ بكلتا يديه مرفرفا متألقاً، والذي بواسطته تحوّلت هذه المنطقة من المجموعة الشمسية إلى مستعمرة أُخرى استناداً إلى قانون وضع اليد السائد آنذاك، قانون غابٍ مارسه ولا زال يمارسه الإنسانُ حينما يطغى عليه حبُّ البقاء ويُمسي لديه أُحاديَ الجانب.

في نهاية شارع عطارد الزجاجي والمزدحم والمتفرع عن القلب يقع حيُّ الاستنساخ، وفيه تتخذ الأبنيةُ شكلَ فقاعاتٍ مائيةٍ ضخمة تتلاقى مع بعضها عبر شبكة من الأنابيب اللولبيّة تكون خلالها المواصلاتُ والاتصالاتُ سلسة دقيقة هيّنة، أما بنوك الاستنساخِ التجارية وبما تحتويه من كنوز عبارة عن خلايا حيوانية مجمدةً فإنها تقبع في الضفة اليمنى في مقابل الضفة التي تعجّ مكرهة بالجامعات ومساكن العاملين، وبين الضفتين توجد ضاحية الترفيه والغرق في الاستمتاع، ضاحية ٌ كبيرة تتناثر حولها الأنهارُ الخالدة والجداولُ الرائعةَ في تصميمها وكأنها أخاديد ورواسب جيولوجية في انحداراتها.

في ذلك الشارع الكبير تتعايشُ أغلبُ الكائناتِ الحيةِ المستنسخة في تجمعات تحاكي بيئاتها الطبيعية الأولى التي نشأت وترعرعت فيها سلالاتُها السابقة، جميعها تمثل حلّة زاهية مدهشة لتلك الكائنات التي دُرست وانقرضت منذ قرونٍ طويلة غابرة، تلك التي مُسحت من على كوكب الأرض مسحاً خلال العصور السحيقة؛ وجيء بها لتستيقظ من سباتٍ كان لا يحمل بين دفتيه غير: ربِّ ارجعون.

في تلك البقعة القمرية تجد الواقع متأنقا لأن من تكون الحياة أنثاه فإنه يكون دائم التجمل، تتعايش فوق ترابها كائناتٌ شتّى كالديناصورات والماموث والأُسُود وجميع الهوامّ، كلّها تعيش في سلام ووئام دون اتفاقيات معلنة وذلك بفضل استبعاد الجينات التي تعطي الحيوانَ صفاتٍ عدوانية افتراسية، فتحولت إلى شبه حدائقَ فردوسية غنّاء لهذه الحيوانات، قصة حياة البقاء للأصلح[9] تقضي وتقرّ بأنّ حبّ البقاء والحفاظ على النوع هو الوازع الأكبر الكامن بين جوانح المخلوقات، والذي يدفعه بصورة فطريةٍ عدائيةٍ لفرض ذاته وحضوره ،وكأنها محورٌ للكون في مقابل المخلوقات الأخرى ،وفي صورة سياسة إزاحية تهميشية للآخر؛ أما إذا ولج اليقين إليها بأن أجلها راسخٌ وفرعها معلومٌ، فهي بلا شك مسالمة طيّعة، فالقدر غير مخروم وهو ثابتٌ على ناصيتها.

بدورها، فإن للكائنات البشرية دائما حكاية أخرى أينما ثُقفت، لكونها تبحث عن السعادة ولن تصل إليها أبدا، البشرُ هم أعلى المخلوقاتِ مقاما وأكثرهم إيلاماً، لم يفلحِ العلمُ أبداً في إخفاء سوءاتهم فما ازدادوا إلا خبالاً، بحث العلماء جاهدين على تحديد المُوَرِّثات الجينية المسئولة عن الصفات البيولوجية والسيكولوجية، فتمّ تهجينها تارة ومسحها تارة أخرى لعل الإنسان يستوي عُلُواّ للكمال المطلق، ولعلّه يصبح أقرب لمصطلح "حياة الرهبان "[10]

---

[9]- يعتبر الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر (1820-1903) هو صاحب نظرية البقاء للأصلح(The survival for The Fittest) وقد ساهم في ترسيخ مفهوم الارتقاء والتطور الذي ينسب لداروين حيث قدّم له أبعاداً اجتماعية (سوسيولوجية) تجاه تعقيد اجتماعي متزايد وارتفاع درجة الفردية في موازاة لنظرية الانتخاب الطبيعي (البيولوجية).

[10]- الرهبنة لا تعني الزهد في الحياة بل إنها لفظ مشتق من اللاتينية ويعني العزوبية وتستخدم عند الطهرانيين بمعنى العيش مدى الحياة دون ممارسة الجنس.

ولكنّ الإنسانَ أبَى واستعصم بخبائث الأمور وأرذل صغائرها في هدنة أبدية مع الحياة تفقدها ملحَها؛ وكأنّ النازلاتِ طبعَتْ على جبهته كي لا يستوي الخلقُ من دونها، فَسَّرَ علماءُ القمرِ ذلك السّرّ بعد ضنكٍ وعناءٍ ببقاء المورِّثات غير المحسوسة والمُدرَكة على أنها نتاجٌ للشهوات المتراكمة في ذات الإنسانِ الآدمي وكنهه، فالشهواتُ في أصلِها حيادية كالنيترونات في النواة، فهي قوة دافعة للكمال متى استُخدِمت في قنواتها الصحيحة ولكنها تكون مدمرة لسعادته إذا تم التلاعبُ بها وتفكيكها وإبعادها عن مسارها الأوليّ والمرسومِ لها بدقة سلفاً؛ إنه سلوكٌ تجميعيٌ تراكميّ، يُعرف اصطلاحاً بسلوك القطيع حيث يركبُ الفردُ موجة الجماعة ويتبنى أفكارها دونما اقتناع ويجدُ في العقل الجمعي قوةً تضفي شرعية على سلوكه.

وهكذا أصبح بنو القمر منقحين، كان يُفترض ألا يصدرَ عنهم غيرُ العملِ الحسنِ والفضائل التي طبعت على جباههم، لعلّ حبّ العمل والإنتاجية يكون هو ديدنهم الوحيد، إلا أن الحالة الحيادية التي صاروا عليها ما لبثت أن تلوثت وتوشّحت سواداً وعليه صار لزاماً أن يبحث البشرُ هنا عمّن يحمل أوزارهم فهتفوا مجدداً: إنه إبليس ذلك الشيطان الرّجيم، وكأنه انتقل معهم طواعية من الأرض إلى القمر ليغيّر موطنه ويستوطن تربةً أخرى يجِدُّ فيها بالبحث عن وظيفة حديثة يضيفها لملف إنجازاته السابقة، ليفاخر بها في سيرته الذاتية!!

بالرغم من كل ذلك اللّغط، أصبح حبُّ العمل والإنتاجية هدفًا لبني القمر، وحُدِّد معه وقتٌ للمتعة تلهو فيه نفوسهم دون أن تترنح، تستمتع بعيدا عن صفةِ حب الذات المتأصّلة، بلا كرهٍ ولا ضغينة، تلعب من أجل السعادة دون إيقاع التعاسة في نفوس الآخرين، لا تشيخ وجوههم ولا يصابون بالهرم، فيحتفظ كلٌ منهم بطاقته ونظارته وشبابه إلى أن تحين ساعة وفاته المحددة والتي قد تصل بضع مئات من السنين، حينها يمَلُّ المرء من حياته ويتمنى الراحة والتغيير فيطلبَ الموتَ استئناسا لا فزعاً، لجوءً لا مفراً، لقد تحقق إذاً أحدُ المستحيلات الإنسانية وهو هاجسُ الحصول على إكسير الحياة، السرّ الذي أفنى الكثيرون منهم حياتهم بحثاً عنه فما وجدوه إلا هنا، هنا فقط .. فوق سطح القمر.

*****

في المبنى الثالث (الفقاعة) للحيّ العلميّ، توجد جامعة أبولو الكونيّة للتكنولوجيا، حيث تقامُ هنا سلسلة عملياتِ التخليق للخلايا المجمّدة سلفاً في بنوكها والتي تُعرف بالاستنساخ[11] (cloning)كما يُقبِل الصفوةُ من طُلاّب بني الأرضِ لاقتحام عالم الدّراسات التخصّصيّة العليا بناءً على شروط دقيقة جداً وليست مستحيلة تضعها الجامعة رغبةً منها في الحفاظ على النسلِ البشري شريطة ألا يضرّ ذلك بالتركيب الديموغرافيّ لسكان القمر، ومن هذه الشروط:

[11]- تعتبر النعجة دولي (5 يوليو 1996-14 فبراير 2003) هي أول حيوان ثديي لبون يتم استنساخه من خلية جسمية حية، وتم استنساخها في جامعة إدنبرة في اسكتلندا، وقد وَلدَت دولي نفسُها أربعَ نعاج قبل أن تمرض ويُقررُ إنهاءُ حياتها بالقتل الرحيم.

- أن يكون طالبُ العلم مستنسخاً من أبوين عقيمين أو مثليين لم تكن عملية الإنجاب عندهما بصورة ممكنة على الطريقة البشرية الطبيعية.
- أن يكون الزواج موثّقا في المحاكم المدنيّة وحَظِيَ بموافقةٍ ومباركة دينية، ولابدّ أن يكون القِرانُ قد أُقيم واعتُمد في كنيسة، مسجد، معبد ....[12]
- أن يكون أحدُ الأبوين الذي أُخذت منه الخلية المستنسخة استثنائيا و مميزا في مجالٍ ما يصبُّ في خدمة الحياة على الأرض والقمر.
- أن يكون للطالب المُورَّث رصيدٌ بنكيٌ يُعين الجامعة على إجراء التغييرات الفسيولوجية لتطوير جودة الأداء والتحسين وتحقيق النتائج المرجوّة.

فتحت جامعة أبولو أبوابها على مصراعيها لأفواج الدارسين والمُبتَعثين العام 2071 (حسب التقويم الميلادي الأرضي) على أن يُنهي الطالبُ مقرراته الدراسية في مدة زمنية لا تتجاوز ثلاث سنوات (أرضية)، ويُوصِدَ أبوابَ تلك المقررات التخصصية ببحث تخرج ميداني قابل للتطبيق على القمر أو أحد الكواكب الشمسية وتوابعها، وينطلق قطارُ الدراسة في غرة الشّهرِ الأوّل القمريّ على ألاّ تتوقف الدراسة إلا بعد قبول أُطروحةِ التخرّج .

---

[12]- كانت الكنيسة اللوثرية في السويد هي أول كنيسة رئيسية تجيز تزويج المثليين قانونياً وذلك بعد التصديق الرسمي على القرار من قبل البرلمان السويدي في العام 2009 وبذلك فتحت الباب على مصراعيه لبقية الكنائس المسيحية حول العالم.

وفي صورتها الكونية التي لا تُؤطرها الجغرافيةُ بحدودها، احتضنت جامعةُ أبولو بين جنباتها طلاباً من مآربَ شتى ومشاربَ عدّة، فالتقت بين أسوارها أجيالٌ تمثّلُ حقباً زمنية مختلفة، وعصوراً متباعدة من العالم الأرضي، ومن ذلك الكوكب الأزرق الذي بدأ يضجّ بقاطنيه فيقذف بهم بعيداً عن أحضانه طلبا للخلاص، وهناك، في قسم الدراسات الإنسانية، وضمن أُطروحة التخرج في الحقبة الأخيرة، التقى "زد كاظم" بـ "إس جينفر" و "إي جون" مكوّنين فريق دراسة وعمل ليؤكدوا أن البصيرة هي عين الحكمة في قلوب البشر، وخلال سنة قمريّة، تقرر أن يدرس كلٌ منهم المقررات الدراسية على حدة ثم توضع الجزئيات في قالب واحد تكويني تكتمل به الدراسة النهائية بأطروحة دراسة ميدانية.

جمعتِ الأهدافُ الدراسيةُ الباحثين الثلاثة لكنهم لم يجتمعوا في حيز واحد إلا نادراً، كان لقاؤهم تناوبياً شبه يومي ولكنه يتمُ من خلالِ الصفوفِ الوهميةِ الإلكترونية، يتعارفون ويمحصُ بعضُهم بعضاً دون الاقتراب الجسدي ودون ضغطٍ من الحيزِ المكاني.

أوكل لهم الأساتذةُ القيامَ بدراساتٍ عملية تستقصي وتوضحُ بجلاء بعض الظواهر البشرية على الكرة الأرضية وكيف تحوّرت وتحولت مع مرور العصور وتعاقب الأجيال إلى دراسة مقارنة مع إنسانِ سطح القمر.

اِلتقى الثلاثةُ للمرة الرابعة فقط خلال عامهم الدراسي في قاعة الزُهرة الفلكية في جامعة أبولو، تلك القاعة الهلامية المليئة بالدراسات الجمّة والموثقةِ إلكترونياً. هناك، لم يكن

لمشاعر الطلابِ وأحاسيسهم حضورٌ فاعلٌ، فكلٌ منهم حدّد سلفا أهدافه بتواريخَ دقيقةٍ وما كان يرجو ويأمل غير الوصول إلى الهدف المنشود وقطف زهوره .

اجتمع الثلاثة في لقاء تعارفي مقتضب قبل أن يتفقوا على الجزءِ الأخير من بحوث الدراساتِ الإنسانيةِ المتعلقة بكشف أسرارِ العلاقة بين حضارة سكانِ الأرض وسكان القمر والسبل إلى توطيد الروابط بينهم والاستفادة من تجارب مَنْ سبقوهم واستشراف مستقبل القمر، فأفعالنا الحاضرة غذاء لمستقبلنا، وما لبثوا أن توصلوا إلى توزيع البحوث ومشاربها تحت إشراف أساتذتهم الحاضرين عبر أجهزة الاتصال المباشر.

اختارت "إس جينفر" من غير سابق قصد ومن دون تروٍّ البحثَ في تأثير ما كان يُعرف بالبعبع الجنسي في تكوين الجانب النفسي من شخصية الإنسان الأرضي، وما يمكن أن ينبثق عنه من إرهاصات دافعة أو محبطة في مسيرته الحياتية، اختارت الجنسَ لتبحث في مدى مصداقية النظريات المصاحبة له والتي تصفه بحجر الزاوية الذي لا يمكن تجاوزه، وتفحص تلك العقبات التي كانت سدّاً منيعاً في إثبات أو تفنيد نظريتي الاصطفاءِ الطبيعي والتطور[13] كما اختارت بدقة متناهية شاباً إسبانياً يُدعى (سانتياغو) عينة

---

[13]- تنسب نظرية الارتقاء والتطور الأولي ونظرية الاصطفاء الطبيعي للعالم تشارلز داروين في كتابه "أصل الأنواع" حيث تقوم الطبيعة بغربلة السمات والسماح لبعضها بالمرور للأجيال اللاحقة، وقد قامت في موازاة ذلك نظرية الاصطفاء الصناعي بتدخل بشري كي تسود بعض السمات دون انتظار للطفرات الطبيعية.

ونموذجاً لمعرفة تأثير الدينِ المزعوم على السلالات الإنسانية فوق جُرمَي القمر والأرض.

أما "إي جون" فشطح بعيداً، معتبراً أن زنا الفكر والخيال ليس حراماً، ولا يُعرفُ حقاً حتى هذه اللحظة إن كان هو من اختارَ البحث فيما يعرف بالدين وبالتأثير الشيطاني (الإبليسي) على العقلية الآدمية أم أن الشيطانَ نفسَه هو من دفعه ليتعرقل به، فالشيطانُ كما في أغلب المعتقدات والموروثات يكون هو الدليلَ إلى رذائل الأعمال ودافع الناس للوقوع في براثنها، دليلٌ ومقولة لم يُنزل العلم بها من سلطان، فصار حريّاً بإي جون نثرَ تلك المقولات بين يديه و تمحيصها لعلّ العلمَ يكون كالحقّ أسلمَ للإتّباع، لم يكن إي جون قد وضع نصب عينيه كائناً بعينه أو شخصا محددا يشد من عزمه على الوصول إلى عين الشمس وكبد الحقيقة، ولكنّه وجد نفسه مسيّراً حين قبل باختيار الشاب الهندي (ديبا)، تساءل ونفسه كثيراً: "هل يمكن حقاً أن تكون الهند مثلاً بفائض مخلوقاتها البشرية مسرحاً لإبليس كي يعيث في أرضها فساداً، أم يكون هو ذاته قد وجد ضالته في محيط متلاطمٍ بالناس فلا يستطيعون ردّ قضائه؟!... "لا بدّ أن أصلَ إلى الحلقة المفقودة وقد قيلَ أنّ السّراب ضالّة العطاشى".

وفي مسارٍ موازٍ لتلك الخطى الحثيثة، وقع اختيارُ زد كاظم على السياسة، ذلك المرض السرطاني المستشري بين بني الأرض، وكأنه مرضٌ أنزلته السماءُ لعنةً مع الأمطار فتغلغل في مسام الأرض ولم يبرح مكانه؛ لا تجد منهم فرداً إلا ويدّعي بلوغه عنان السماء وقد أصبح فقيهاً سياسياً قلّ نظيره، لقد اختار البحث والجري وراء هذه الآفة النتنة، وما نتج عنها من

أمراضٍ معدية أدت إلى تخلّف الكثير من الشعوب والأمم، وصار لزاماً على بني البشر الفكاك أولاً من هذه الفتنة التي أصابتهم، ولم ينج منها غيرُ يسير.

*****

احتوت القاعة الدراسية بما رحبت على إس جينفر، إي جون و زد كاظم، كانوا تواقين للنّهلِ من المعرفة مواظبين في دراستهم، وكأن النّجاح نهاية المطافِ الذي يأخذهم للنعيم، كانت الأجواء فعلاً تزيحُ المشاعر جانباً بل وتقتلها حتى تكاد تسلب الحياة مذاقها، فالمشاعر الباردة تغتال الرغبة وتخنق الأحاسيس، لذلك كله أصبح الثلاثة لا يتحدثون إلا في أعمالهم الموكلة إليهم، إنه النتيجة الحتمية لعلم الانتقاء الصناعي الذي مارسه بنو القمر، تمكن هذا العلم من أن يجعل بعض الجينات تعمل بطاقة أعلى في مقابل تنحي واندثار جينات أخرى تحمل صفاتٍ غير مرغوب فيها، ولذلك، تم بيَدٍ قاصدة إعدام كثير من السمات التي أثّر انعدامها في السلوك العام لبني القمر، ومن هذه الصفات المتنحية: الرغبة الجنسية التي كانت سائدة وملتهبةً عند بني الأرض، حيث أصبحت أقلَ إثارة، وأمست تحت سيطرة صاحبها يطلقها حينما يشاء ويضعها رهنَ الإقامة الجبرية متى أراد ذلك، فقد تمت بنجاحٍ منقطع النظير عملية خفض نسبة الهرمون المحفّز للرغبة الجنسية عند المرأة والرجل على حدٍ

سواء[14] ،لتتحول الحياة هنا إلى نوعٍ من العيش البهيمي الجاف، لا تُكسرُ شوكة صاحبه إلا حين القضاء على المهام الموكلة إليه والمراد إنجازها، طبيعة اعتاد عليها بنو القمر حتى صارت حياتهم آلية رتيبة لا تقف إلا مع إنجاز ما عملوا لتحقيقه، مرارةُ الحياة وضنكها تُعلمُ المرء حلاوتها.

وُضعَ الثلاثة في مختبرٍ شفّافٍ زجاجي الجدران تملأه الأجهزة اللّمسية التي تعمل باستلام إشارات صوتية ومرئية، جلسوا على رأس مثلث متساوي الأضلاعٍ حاد الزوايا، يعملون كالنحل وقد هجرهم سلطانُ النوم متعمداً؛ فالنوم عدوُّ طالبي الدنيا، يعملون وهم متقابلين حتى أضحت كلُ النتائج متاحةً طائعةً قابلة للإطّلاع والنقاش عند جميع الأطراف المشاركة، وحين ينتهون من أعمالهم فقط تحين ساعة التقاطِ الأنفاس، وإذّاك يختلسون النظر إلى بعضهم لعلّهم يجدون صدىً لأنفسهم في عيون الآخرين. كان إي جون يرتدي بدلة داكنة ترصُّ جسده رصاّ تجعله يبدو كغواصٍ أرضيّ،يضع فوقها وشاحاً أحمر يتدلى من على رقبته كعنقود عنب ناضج، أمّا شعره البنيّ الفاتح فإنّه خصلاتٌ مبعثرة ناعمة تسقط على وجنته بلا تنسيق، وبالتحديق في عينيه، فإنهما غائرتان لامعتان لا يُميَّز فيهما أيُّ لون، ولكنّ التحديق فيهما يظهر الخبائث ما ظهر منها وما بطن! وهما تتوسطان وجهاً محمراً

---

[14]- يعتبر هرمون الـ"تيستوستيرون" محفزا للرغبة الجنسية عند الرجال، بينما تتمتع المرأة بدرجة تحفيز أقل نتيجة مزيج من هرمون الـ"تيستوستيرون" و "اويستروجين".

عريضاً يبسطان جناحيهما فوق أنف أفطس عريض يبدو الثغرُ من تحته بشفتين دقيقتين متشابهتين لا تكاد الأسنان تظهر من خلالهما إلا نادراً، ولا تكاد تميزُ فيه من صفات رجولة بني الأرض إلا فتاتاً، إنه بمقاييس بني الأرض أمْيَلُ إلى المسخ، كان يتخذُ من الجانب الأيمن للصالة مقراً دائما له لا تزوغ عيناه بعيداً عن منظر الشلالات الخلاب خارجِ المبنى، وإن غيّر اتجاه عينيه فإن شعاعهما يسقط مستقيماً لا شيةَ فيه على زد كاظم في الجهة المقابلة، والذي تبدو عليه من خلال منكبيه العريضين ولحيته الكثيفة صفاتُ الذكورة الأرضية المفرطة والرجولة التي لم تُغتصبُ بعد.

وعلى الرأس الثالث للمثلث، هناك إس جينفر، تشعر للوهلة الأولى أنها صعبةٌ حقاً فتشتهيها طواعية؛ فالمرأة الأصعب كالفرس الحرون تستمتع بامتطائها، كانت زاهية بامتياز، فتاة شقراء طويلة كحصان جامحٍ أصيل، نحيفة الخصر رشيقة الأرداف بارزة النهدين اللذين يتأهبان للاشتعال وربما الانفجار، شعرها الأصفر يتناثر على كتفيها مروراً برقبة رقيقة برّاقة، ترتدي فستانا ضيقا لا يخجل حين يبرز كل جسدها بدقة عدسة تصويرية عالية الجودة، ذلك الجسد الذي يشبه في استدارته حورية بحر مزعومة، أما معالم وجهها فبيضاوي الاستدارة كأحد مدارات زُحل، يحوي أسرارَ الخلق كلّه، عينان لوزيّتان عسليتان تقابلان شفتين دائريتين فيهما إشراقة صباح يلوح للتوِ من جديد.

أصبح من البديهيات أنّ الانقضاضَ على الانجاز أمرٌ حتميٌ يسرقُ كلَ شيء في إنسان بني القمر بفضل (الكبسولات المعالِجة) ولكن متى ما أنجزَ الإنسانُ ما يوكل إليه من عملٍ، تسري في جسده حالة الاسترخاء النفسي والجسدي وهنا تستشري فيه الصفاتُ الحيوانية مجددا وتنطلق من بياتها وسباتها، تطفو الصفاتُ المتنحية لتكون سائدة مجدداً، وفي حالةِ الاسترخاء المتوقعة، تتقابلُ عيون إس جينفر وإي جون قبل أن تصَوَبا باتجاه زد كاظم، يتسابقان للظفر بشيء من البأس والقوة المفتقدة والتي تكاد تضمحل وتزول في هذه المجتمعات المتناقضة تماماً مع البدائية، يستشعران فيه الجانب الذي يكملهما، إنها تميل فطرياً إلى رجل ليكتمل الرقمُ واحد لديها، نصف أنوثة ونصف رجولة تكوّنان إنسانا طبيعياً، أمَّا هو (إي جون) فيبحث عمَّا يسدُ ثغرةً فيه ويكمِّلَ نقصَه ليعوِّضه عن تلك الرُّجولة المُهَجَّنة والكامنة لديه، هي حالة ضامرة لكنها تشتعلُ عند الالتفاتِ إلى الجانبِ الحيواني فيه.

انطلق إي جون كالسَّهمِ دون تحفظ نحو هدفه المنشود، فالاشتهاءُ في صورته الحديثة أصبح عرفاً انتقائياً وجزءاً من الحرياتِ الشخصيَّة، أقبل غارزاً أصابعَ يده اليمنى في صدر زد كاظم الذي شعرَ بلسعة باردة تصيب كل بدنه وتستشري فيه، ارتبك لسانُه وعجزَ عن النُّطق إلا بعض كلماتٍ خرجت مرتبكة قلقة كأنها تُولدُ ببطئ من خلال عملية قيصريَّة:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

ابتسم ساخراً هازئاً من سؤالٍ تعتبر إجابته من المسلمات..
- إي جون زميلك في الدراسة، لا أظنكَ تجهلني.
- حقاً؟ أعرف اسمك ولكني أشكُّ في معرفتك، أراك غيرَ ذلك، كأنَّك تخفي بين جوانحك مخلوقاً آخر، مخلوقاً لا رغبة لي برؤيته!
أعاد ابتسامته الصفراء و أردفها بقهقهة تُظهر صوتَ اصطكاكِ أسنانه..
- مخلوقاً آخر؟ يترنح في صدري؟ أتراه ملاكاً أم شيطاناً؟
أراد أن يتريَّث لينتقي كلماته لعلَّها تمدُّ له يد العون فالكلمة عنوانك كلما جهلَك الآخرون .. ولكنه لم يتريث وغالبه السُّؤال:
- ربما أنت كلاهما.. ونحن لا نعرف عنهما شيئاً، ولكن الموروثَ يقول: إننا نحب الملائكة ونمقتُ الشياطين .. أجدك نصفَ شيطان، إنسانٌ في هيئتك، شيطانٌ فيما يتدفقُ داخلك!
ابتسم إي جون ابتسامةً ملعونةً، أخفاها عمداً فتدفقت من ثقبي أطلال أنفه .. ترنح متراجعاً إلى الخلف يخفي وراءه مكرَ ذئبٍ ورغبةٌ جامحةٌ تجتاح كلّ جوانحه، كان يتوق لمعانقة الرجل الذي أمامه إلا أنه آثر التريُّث حيث العناق تعبيرٌ فقط عن التقاء قطبين متجاذبين ..
- هل تراني غير ذلك حقاً؟
- نعم، أكادُ وباليقين أجزم.
- كما تشاءُ إذن، أنا إبليس، ذلك الكائن غير المعرّف عند بني الأرض، هم يرونه هناك شبحاً مخيفا لا لون لديه ولا طعم ولا

رائحة، ولكني تمثّلتُ إحدى صوره وانطلقت نحو القمر لعلي أسعدُ بحياة أجمل هنا، ولعلهم يأنسون بي وآنس بهم ..
- لا بدّ أنك تداعبني مازحاً بحديثك هذا..
- ليس المجال للخيالِ هنا، وسترى الآن بأم عينيك ما ستعجز عن تصديقه.. إنه أنا إبليس ذلك الخنّاس الونّاس.

هوى نجمُ زد كاظم مترنحا في مقعده وأصابته الغواية الملعونة، ابتعد عنه جسدُ ذلك "الشيطان" المدعو إي جون ولكنّ مسّه لازال يعبث بفكر زد كاظم ويباغت قلبه، فإن كان المسُّ يَذهب بالعقل فكيف يكون اللمس؟ نظر أحدُهما الآخر بإمعانٍ وتأنٍّ لعلّ الغمة تزاح عنهما ويجدُ كلاهما ما يصبو إليه، كان زد كاظم يريد معرفة كينونة هذا المخلوق المتلبس في عباءة وهيئة إنسان قمري بينما كان إي جون يتوقُ لجسدِ زد كاظم والإمساكَ بقلبه ولو بعد حين، يتمنى أن يتلبّس فيه بلا رجعة أسوةً بما لا يزالُ الجنُ والشياطين يمارسونه مع بني الأرض.

ظلّ زد كاظم يراقبُه ويتابعُ خطواتِه الثقيلة ملياّ، رآه وهو مدبرا مخلوقاً ضيّق المنكبين قصيرَ القامة، تبدو رقبته متراصة متقازمة مكتزنة وكأنها تحتوي فقراتٍ أقلَ عددا من المعتاد، ليس في شعره أيُ استواء بل يتناثر في فوضى عارمة، لا يستوي في خطواته أبداً، يمشي بخيلاء وزهو، فيه عرجٌ بادٍ عليه، لا يستوي منكباه مع وقع قدميه ولكنه يمشي علوّا وغروراً، اطمأنّ زد كاظم لذلك فالغرور يخفي فشلاً وخسراناً، أما تواضع المنتصر فهو قمة الغرور.

رمق إي جون صاحبَه بنظرة خلفية استلّها من طرف عينه ولم يحرك فيها غير وجهه إلى الخلف، فلمح زد كاظم احمرارَ عينيه الضيقتين وكأنما تلاشى البؤبؤ منهما، ارتعد زد كاظم وخارت قواه تدريجياً، أحسّ بشيء من الألم يسري في ركبتيه وشعر بثقل جسده فسقط في كرسيّه وما سقط، أخذ يخاطب نفسه:
"إنه إبليس حقاً في هيئة إنسان، تلك هي إشاراتُ الشيطان التي نسمع عنها، فلماذا تلعثم لساني عندما تحدثتُ معه؟ ولماذا لم أكن قادرا عن إزاحته عن طريقي وإبعاده عن جسدي؟ كان وزنُه كجبلٍ كبير لا يتناسب وحجم جسمه الصغير! أجزم أنّه إبليس أو بعضه..
قالوا إنّ إبليس اسمٌ جامعٌ لمعاني الشر كلّها، له بنية رمزية وهيئة شيطانية، يعمل على محاور ثلاثة: بعدٌ ديني يختلط فيه عند الإنس الحلالُ بالحرام، وبعدٌ معرفيّ يسلبه عقله، وبعدٌ أخلاقي تنمحي فيه القيمُ الخيّرة .. هو إبليسٌ إذن لا مُحال .. أرادني بسوء وسلبَ عقلي حينها واستحالت معه الأخلاق.."

لم يكدْ يستيقظُ من هولِ الصّدمة القاصمة حتى اعتراه معترَكٌ آخر، معترك أنثوي مكتملُ الهوية والمعالم، فخلال ذلك المشهد السينمائي الساخر، كانت إس جينفر تراقب عن كثبٍ وتترقب ما سينبثق عنه ذلك الحوار غير المألوف، إنّ خجلَ المرأة إكسيرها في الحياة، ولكنها أقبلت لتأخذ نصيبها من الدنيا بلا خجل وتجِدُّ حثيثة الخطى في البحث عن حظّها، لم يكن حينها الجنسُ يمثل الوجه الآخر للحب

والهيام، ولم يكن هدفاً منشودا لبني القمر، المتعة تكمن في الترفيه الآني عن النفس، وفي هدر الطاقةِ الكامنةِ والمكبوتةِ في الأجساد، لا مكان للعاطفة والمشاعر وكأنما أصبحَ الإنسانُ هنا حجراً أصمَ ووعاءً أجوف.. ألا يكفي أنّ نتوهم الحبَ أحياناً ليكون أكثر لذة من الحب بعينه؟

أقبلت بجسدها الممشوق، تضع قطعة قماشٍ صدفية اللون تلفّها ابتداءً من كتفيها حتى ركبتيها، لم تكن القطعةُ تستر أكثر مما تفضح، كانت ترتدي أسفلها فستاناً ضيقاً شفافاً ذا مهامٍّ تحافظ به على استقرار درجة حرارة جسمها وتلبي احتياجاته "الأيضية"، وقد صُنع الفستانُ ليُظهر المفاتن التي تصل حدّ الكمال الآدمي بعد سيلٍ عرمٍ من المعالجات الجينية التي تُخفي العيوب وتستر ما بان منها وما استتر في سبيلِ الوصول بالبشر إلى مستوى الكمال الكلي الذي يبقى نسبياً حسب اختلاف الأذواق والمشارب، أقبلت عليه لتطفئ شرارتها، تسمّر أمامها واقفاً، فهو للتو التقى بإبليس في هيئة إنسان آدمي ولا يعرف ما يمكن أن يصنعه إن عانده هذا الملاك المنبوذ منذ بدء الخليقة على كوكبٍ الأرض، عاجلته إس جينفر بقبلة ديناميكية كأنها تعطي هيئةً نموذجية للقبلات وهي تعي ـ كما يؤكد بنو الأرض ـ أنّ القبلة فضُ بكارة الروح، استسلم لها ورفع رايته البيضاء، وحتى تلك ذات الألوان الزاهية، بدأت بمص شفته العليا من اليمين وصولاً إلى أقصى اليسار وهي تتحسس تعرجاتِها وتشققاتها بلسانها وتمزج لعابها بلعابه لتشرب حساء العاشقين، ثم تتنفس زفيره وتلقي في فيه شهيقها، وما لبثت منطلقة للشفة

السفلى تمارس نفس الدور بتمرس أكبر وبتوهج أشد، وعندما لعقت لسانه شعرت بانطلاقتها إلى عالم سرمدي آخر سرت حممه البركانية في كل جسدها الذي استثير بدوره فرمت به رمياً على جسد ذلك الرجل الجبلي، استوى بجسده متوارياً إلى الخلف فحطت بسهل بطنها على وادي صدره واستوت عليه عند جنة منتهى العاشقين.

ما إن سالت المياهُ فوق الوديان حتى هدأت الزوبعة وعادت المخلوقات إلى سيرتها الأولى تترنح في انتصار خائب وغلبة غادرة، كانت حمى الجسدِ تصيبُ العقلَ بالشللِ والهذيان وما إن تتساقط قطراتُ الندى حتى تشرق الشمسُ مجدداً وتعم السكينة الأرجاء في انكسار ظالم ومتعمّد للقاعدة العشقية: المرأةُ كالنار يجب ألّاتستعر ولا تنطفئ.

وبعد تلك التجارب المتعاقبة، أصبح زد كاظم غريباً في ذاته، تائهاً بين المنطق العلمي كأسلوب تفكير نمطي وبين الموروثات الأرضية التي يعتقد أنها بدائية لا تعتمد إلا على الغيب عند مواجهة أي أمر معقد، وما إن أفاق من متعة إس جينفر حتى عاوده المَسُّ يراوده عن نفسه، فهو لا يعرف يقيناً أنّ إبليس تلبس حقاً عبر نظرية الحلول[15] في جسد إي جون وأنه لا مجال للمقاومة، ولكن الإيمانَ بهذه النتيجة هو مرض يكرسُ العجز بذاته؟

*****

[15]-الحلول لغة تعني النزول ودلالياً تعني وجود قوى إلهية أو روحية في حيوان أو إنسان، وفي عقيدة التناسخ تعني انتقال الروح من جسد ميت إلى آخر حي، وفي المسيحية تعني الاتحاد بين الإله والإنسان واختلفت حولها الفرق الإسلامية معنىً وإيماناً.. يمكن للقارئ الاستزادة من مؤلفات د. عبدالوهاب المسيري حول ذات الموضوع.

استفاق الثلاثة من سباتهم العميق بعد ساعتين أو يزيد، يظنُ كلٌ منهم أنّ اللقاءَ الأول أجهضه حضورُ شخصٍ ثالث، ومع اقتراب موعد لقائهم الفعلي مع مجموعة من أساتذتهم، اتخذ كلٌ منهم هيئته المحببة له في انتظار الاجتماع الموعود، فالعين الأذكى هي القادرة على توقع ما يعجب الآخرين، والناس بطبعهم مولعون بمظهرهم الخارجي واستراق كل الإعجاب من الشخص المقابل، يحاولون نفاقاً وبجد إرضاء جزءٍ عميق غائر في أعماقهم ظناً منهم بأنّ التميز في المظهر الجذاب يواري سوءة أنفسهم، وكلما ازدادت الحالة البهيمية في ذاتهم كلما ازدادوا ولعا وشغفاً بأجسادهم وهيئتها الخارجية، نوع من سرقة الانطباعات الأولية يعكس شيئاً من التضارب النفسي الدفين.

أقبل الأساتذة الأربعة في زيهم الرسمي متثاقلين وقد اطّلعوا بتمعنٍ مسبقٍ على سلوكيات طلابهم وعاينوا بدقةٍ ما قاموا به للتوّ فيما بينهم إلا أنهم لم يُشعِروا الدّارسين الثلاثة بذلك، فمن يوثق الذاكرة يكون أكثر تعاسة. ومع دخولهم، اطلعوا على استعدادات طلابهم وميولهم نحو العمل الجاد ثم استوت القاعة في حلتها الديناميكية من ثلاثية الزوايا إلى قاعة مستديرة واتخذ كلٌ منهم الجلسة المقررة لديه سلفا .. تحدثوا إلى الثلاثة بإيجاز مقصود فلا يثرثر الإنسان إلا حينما ينسى القيود، تناوبوا في حديثهم إلى الحاضرين بصورة مباشرة، فقال أحدهم:

- لقد حدّد فريقُ التنسيق والعمل الذي يتابع وسيشرف على بحوثكم الإنسانية في علم السوسيولوجي بخصوص بني

الأرض، حدّد بوضوح رغبته بالاستفادة من دراساتكم وبحوثكم المقترحة لعلها تصيبُ نجاحا يستفيد منه بنو القمر ويصبُ في رقيّ الحضارة الناشئة المرتقبة.
أومأ الثلاثة في شبه خشوع تمثيليٍ بانتظار سماعِ المهامِ الموكلةِ إليهم ..
- ستدورُ محاورُ الدراساتِ الإنسانية حول تأثير المحرّمات الثلاثة في أغلب المجتمعات الأرضية: الجنس والدين والسياسة، ثم مناقشة ما يتفرع عن هذه المؤثرات على حضارة بني الأرض، ونحدد متى وكيف تكون هذه العوامل والأسبابُ إيجابية أو سلبية في بناء حضارةٍ ما ومتى تكون عائقاً وعاملا محبطاً؟
تساءل إي جون في مداخلة غيرِ مرحّب بها، بل فيها وفرةٌ من الوضاعة؛ فقمة الكبرياء هي التحدث بلا كلمات:
- هل نقوم بدراساتنا ونحن على سطح القمر أم نتجه مجبرين مقيدين إلى سطح الأرض؟
- ستكون دراساتكم بالطبع هنا، ولكن بإمكانكم استضافة عيناتٍ بشريةٍ عبر القاعات الوهمية تكون نماذج عملية صادقة لدراساتكم.
- ما هي مدة الدراسة الميدانية المتوقّعة ومتى تُناقشُ الأُطروحات؟
- عشرة أيام قمرية[16].

---

[16]-اليوم الواحد على القمر يعادل 27.32 يوما أرضياً أي 655.72 ساعة حسب القياس الأرضي وخلال تلك المدة يكون القمر قد قطع 2.29 مليون كيلومترا.

- وهل سنكتفي بالعينات الأرضية لاستكمال الدراسات والبحوث الفرعية أيضاً؟
- كل طالبٍ سينتقي عينة أرضية واحدة على أقل تقدير ثم تتمّ مقارنتها مع أحد زملائكم في الدراسة هنا والاستئناس بوجودهم، وتكتمل الدراسة بوضع المقارنات طبعا، ننتظر اقتراحاتكم وتصوراتكم الأولية حول الدراسات قريباً جداً؛ سيقوم إي جون بدراسة تأثير الأديان، وتعالج إس جينفر مشكلة الجنس المزمنة، أما زد كاظم فسيحطّ الرحالَ حول تأثيرِ السياسةِ على الحضاراتِ الأرضية، ولكم مطلقُ الحريةِ في اختيارِ العيناتِ العشوائية.

ما إن فرغ الأستاذ من توصياته حتى أصابَ الذهولُ الثلاثة بدرجات متفاوتة، نزل الأمرُ صاعقةً على زد كاظم فتساءل طويلا: "كيف يمكنني حوارهما في أمور لم تعد حديثة معهما؟ لقد مورس الجنسُ معي اغتصاباً ولم أعرف له أيّ معنىً ولا طعم." قال ذلك في نفسه وهو يعيد شريط الذاكرة مسترجعا ما حدث حين استولت عليه إس جينفر كاللبؤة دون تريّث ولا تردّد، ... "وكيف أُناقش الدينَ بكل غيبياته وأعرفُ سطوته على الطبيعة البشرية وأنا أدرك أن إي جون ليس بشراً، لا ينتمي لإنس الأرض ولا إنسِ القمر؟ ... تبدو المهمة مستحيلة ومعقدة"، ظلّ زد كاظم مشوشَ الفكر مخطوف الفؤاد تائه النظرات؛ إنّ الحزن يترنح عادةً بين العين والحنجرة فإن توارى خلفهما أصاب القلب بغصة.

اعتدل في جلسته وغيّر من هيئته وصوّب نظره على إي جون الذي حدّق فيه وأومأ إليه برأسه وكأنه أجاب على

الأسئلة التي تدور في خلد زميله، أشار زد كاظم بسبابته المترددة في اتجاه زميله وهو يقول بكلمات خرساء:
- النّفور لا تلطّفه المعاشرة، ولكن .. أيها الشيطانُ اللّعين، كيف استويت في صورتك هذه؟ هل أنت من الجن الذين تأنسوا؟ أم تراك نتيجة طبيعية حتمية لما يسمى بالتقدم العلمي؟ هل استنسخوك كما فعلوا مع تلك الكائنات المنقرضة؟ أجدني قلقاً خائفاً كلما أمعنتُ النظر في تقاسيم وجهك القبيح، يستشري الحزنُ إلى قلبي، والحزن أيها اللعين مرضٌ معدٍ، كيف سأتمكن من العمل معك؟!

*****

بدأ العملُ الجاد والمضني منذ الوهلة الأولى، انطلقت إس جينفر في دراستها حول تأثير الجنس على العقل البشري لبني الأرض، وكيف استحكم ذلك بمفاتح الإنسان وكأنه العامل الأكثر شراسةً خلف أكثر الثورات وتقلباتها؛ اختارتْ لذلك فتىً إسبانياً يُدعى سانتياغو، كانت هواياته واستمتاعاته تطغى بشكل أخّاذٍ على دراساته والتزاماته، كان للّهوِ الذي ورثه عن مجتمعه دورٌ كبير في تكوين شخصيته بجزئياتها الدقيقة ومكوناتها، يمتلك أُذناً جميلة تنتقي ما يستمعُ إليه وترفعه لعالم ما فوق السحاب بخشوعه وملكوته، لا يكاد ينجز عملاً إلا وكانت فترة نقاهة تتباين مدتها بانتظاره، كان يعمل على أن يكون في الإنسان جانبان متوازنان، أحدهما للعمل والدراسة والآخر للمرحِ والنزهة، فإن لم يمرح ويرفه عن نفسه فإنه لا ينجز عملاً، وكأن المرح والبهجة طاقة تغذي روحه ونفسه، يسيران في خطين متوازيين.

لسانتياغو صفاتٌ عديدة لم تجدها إس جينفر في سواه من طلاب الأرض، كانٍ حريصا على السفر والترحال كلما أنجز عملاً، تكون نفسه عادةً تواقة لاكتشاف أراضٍ لم تطأها رجلاه ولم تكتحل بها عيناه، فتىً يجد نفسه بين أحضان الطبيعة سواء خضراءٍ أم صفراء، وحتى غياهب البحار لم تسلم منه فوطأها مراراً، تخيلتِ الفتاةُ أنه لم يدع أي رقعة على الأرض إلا و قد حاول الوصول إلى قرارها ولعلّه ينتظر رحلة إلى سطح القمر قريباً !

كان يحبُ أن يخالطَ شعوب الكرة الأرضية فينتعل أرضهم ويطارد عقولهم وما يعتريها من أفكار، ويزاحمهم بمنكبيه في مجالسهم، فتجده يقرأ في الدينِ والأدبِ والرياضةِ والسياسةِ وغيرها... ويقطف من كل بستان أجمل وردة، يقارن بين أجودها ويحلل ألوانها، حتى أصبحَ تفكيره ناقداً بنّاءً.

وبجانب شغفه بالعلم، عشق سانتياغو الأدبَ العالمي، تذوقٍ الشعرَ بكل مشاربه، استطاع أن يبني له لسانا أدبيا واعياً يتذوق به كلّ جميل فيجد فيه لذة غير مسبوقة، مرّ بالشعر؛غثه وسمينه، فأدرك منابعهما وهام عشقا بشعراء الفطرة، الذين تستنطقهم القافية ويكتبهم الشّعر، ردّ ذات مرة على من يقول بأنَ الشعرَ غواية الأثرياء وهواية المفلسين [17] وبأنّ الأدب مصارعة لُغوية والشعر ملاكمة !

---

[17]-ذكرت الكاتبة الجزائرية المعاصرة أحلام مستغانمي في روايتها "الأسود يليق بك" بأن الشعر هواية المفلسين .. ص 123

شدّ الفتاةَ نموذجُ سانتياغو كإنسان يعتبر نفسه زائرا سائحاً للدنيا، عابراً بها عبورَ الكرام، فهي دار ممرّ لا مقرّ، له دورٌ يراه واجباً، ولنفسه حقوق تسمو بها ويسمو معها.

كانت صور سانتياغو تنتقل إلى غرف التواصل الصوتية - المرئية بكل أبعادها، فتشعر إس جينفر به وكأنه موجود تماماً هناك وقد حطّ بجناحيه في أحيائها، تناولت في أحاديثها المتداولة شؤوناً عديدة فسألته مرةً عن إحدى بنات أفكاره وعما يدور في خلده:

- ما هو باعتقادك الدافعُ الأولُ ـ لديك و لدى بني الأرض ـ الذي يتحكم في أفعالكم ويسيطر على مشاعركم؟

- هناك عوامل عدة.. منها الجنس والسلطة والمال.

- تتضح معارفك الجمة من خلال كلماتك التي لا تستطيع إخفاء شخصك خلفها، فالكلمات فاضحة، فإذا تحدثنا عن الجنس تحديداً، فهل أحدث تغييراً حضارياً عند البشر؟

- بالطبع، بالعودة إلى كتب التاريخ البشري، نجد أن المرأةَ و(الجنس) مترادفان، وأنّ المرأة وقفت بطبيعة الحال وراء أشهرِ الحروب وأشرسها، فيذكر هوميروس في ملحمتي الإلياذة والأوديسة مثلاً أن حربَ طروادة[18] التي استمرت عشر سنواتٍ، كان سببها اختطاف الأمير باريس من طروادة للفاتنة هيلين الإغريقية (زوجة منيلاوس) ورغبته في الزواج منها.

---

[18]-تقع مدينة طروادة troy في آسيا الصغرى وكانت منيعة وقوية، تذكر الأساطير أن باريس تعرف على ثلاث نساء (ربات) قمنّ بتحكيمه حيث يعطي أجملهن تفاحة، وعدته الأولى بالسلطة والثانية بالمجد والحكمة أما الثالثة فوعدته بإعطائه أجمل بنات الدنيا فقبل عرض الأخيرة بلا تردد وأعطاها التفاحة.

- تلك أساطير قديمة أكل الدهر عليها وشرب.
- وفي القرن العشرين، ماذا نقول عن الزعيم النازي هتلر؟ لماذا قرّر الزواج من عشيقته إيفا براون قبل يوم واحد فقط من انتحارهما؟ أعتقد جازماً أن للجنس دوراً مهماً أيضاً هنا.. والحكايات لا تنتهي في دور المرأة عند الساسة ورجال الحرب أبدا، فالإنسان عموماً حيوانٌ سياسي.

كانت للأحاديثِ بينهما آفاقٌ واسعة تسقط القناعَ وتُعري الحقيقة حتى تبدو للعيان ناصعة كالشمس، لا جدال ولا لبس فيها ولكن يصعب النظر إليها، والوصول إلي كُنْهِهَا محال يضاف للمستحيلات الموروثة، أرادت إس جينفر في إحدى مداخلاتها أن تستثيره، وتحرك ماء شهوته الراكدة بكلمة طيبةً في ظاهرها، ذكرت بتأنٍّ أنّ للجنسِ مشاربَ شتى تختلف كالطّيفِ باختلاف تعاطي البيئات معه، فإنسان الصحراء يختلفُ عن مثيله في الغابات أو المناطق الباردة وحتى تلك المتجمدة .. أجابها:

- من المسلمّات العلميّة أن الإنسان تختلف عنده صور ومعاني الجنس بحسب المناطق التي يعيش فيها، وتتدرج صعوداً أو هبوطاً، وكما يلعبُ المناخُ دوراً فاعلاً ومؤثّراً في الإقبال على الجنس والتعاطي معه بشراهة، فإن نوعية الغذاء مثلا تقوم بدور موازٍ له في القوة والجبروت، بالإضافة إلى الثقافة الجنسية عينها التي تختلف باختلاف الأفراد، كما لا يمكن إغفال دور الموروثات الاجتماعية، هذه العناصر جميعها تُكوِنُ ما يُعرف بالسلوك الجنسي الذي يُعرف إجمالاً بالنشاط الجنسي بين الناس تعبيراً عن الودِ الحسي

والفطري، ولكن هذه الاختلافات جميعاً لا تستطيع أن تخفي الإطار العام للجنس عند بني الأرض قاطبة، فهي مشتركة ومتشابهة بالرغم من اختلافها وتباينها الظاهر.
- ولكن هناك فعلاً اختلافاتٌ سلوكية كبيرة بين البشر جنسياً ولا يمكن أن نقفز على هذه الحقيقة.
- بالطبع هي اختلافات في المشارب وطريقة التعاطي مع الجنس كما أسلفتُ، ولكنّ المنبع واحدٌ والمرفأ واحدٌ أيضاً، فتقبيل المرأة قد يكون سلوكاً اجتماعياً عاديّا في منطقة ما، بينما يعتبر جنسياً بحتاً في منطقة أخرى.
- كيف؟
- بالنظر إلى الرجل العربي مثلاً، فإن الطقوس الدينية والأعراف الموروثة ظلماً وعن غير قصد، هي التي تضيِّقُ الخناق على التلاقي بين الجنسين كما هو بارز عند البدو؛ فتكون نتيجتها إنسان له ولعٌ حادٌ بالجنس، تنفيساً عن الممنوع المرغوب؛ أي أنه كلما زاد الكبتُ والتحريم الجائر كلما ولّدَ ذلك انفجاراً طبيعياً عند التعاطي مع الجنس، بينما يكون الأمر عكسياً حين نتجه شمالاً نحو الأقطار الباردة فالمتجمدة...

خلال تلك المناوراتِ التي تخفي بوادرَ حربٍ جنسية مع سانتياغو، كان ينتقل وهمياً إليها بجسده حيث المختبرُ العلمي الافتراضي، فكانا يشاهدان بعضيهما (طيفاً) بكل التفاصيل وبكل الحيثيات، كانت تفيض به مشاعره كالسيل العرِم إلّا أنه تعمّد النأي بنفسه جانباً حتى أصابه السهمُ وأدماه عشقاً، فمن يتجاهل الحب يسقط في شركه، أمّا هي فلم تكن تعرف للعشق محلاً.

إنّ للمكان سطوة وللكلمة قوة تتدفق منهما المشاعرُ الطبيعية، فقد انبعث منه فيضٌ من الأحاسيس المتدفقة باتجاهها كلما رآها فاتنة خلابة تكاد تكون بلا أخطاء خَلقية، توشك أن تبلغ عنان السماء كمالاً، تساءل ونفسه إن كان هذا هو الكمالُ المطلقُ المزعوم أم هي من الحور العين اللاتي استوطنَّ القمر كخطوة أولى نحو الوصول إلى الجنة في نهاية المطاف، اشتهاها في نفسه ورغبها في سريره رغم استحالة ذلك، إن احتساء الحب عسرٌ حياة، هي حالة إنسانية طبيعية، فكلّما تعملق الإنسانُ علماً يظل العالم السفليُّ والحيواني فيه راسخاً.

وعلى النقيض من ذلك وفي مفارقة بلغت سنّ اليأس، لم تكن إس جينفر تشعر شيئاً باتجاهه أبداً، إنها شبه حجرٍ صلدٍ أصمّ، يُؤدي دوره المناط به على أكمل وجه دون أن يكون له يدٌ عابثة تُغير ما أُمرَ به، حجر جاحدٌ لا يضيف نكهة للعلاقات مع الآخر، حاولت إس جينفر أن تحدَ من اندفاعه أو تحط به من علٍ متى شاءت ولكنها تريثت، استمر الأمرُ طويلا حتى أوشكت الدراسة على نهايتها وتوصلت إس جينفر أخيراً إلى بلورة أبحاثها، وحينها كسرت غصنه إلى حيث لا رجعة، وضمن القانون التزاوجي، فإنّ المرأة زهرة والرجل غصنها فمتى انكسر هو سقطت هي .. سقطت وعادت بعدها تعايش واقعها، تضمر الانقضاض الفعلي على زد كاظم باسم الحب السالك للجحيم.

كانت الحلقة الأخيرةُ تعتمدُ على المقارنة بين بني الأرض وبني القمر قبل تقديم الأُطروحة ومناقشتها مع الأساتذة

المسئولين؛ وفي الخطوة الأخيرة وقع اختيار إس جينفر كما هو مزمع ومقترح سلفاً على زد كاظم، اختيارٌ له غاياتٌ ظاهرة وباطنة، تعلمت من سانتياغو أنّ طبّاخة الحب الماهرة لا يفلت الرجالُ من بين يديها، وأنها ستمارس الحب معه؛ فالحب إبرة تخدير للرجل كي تحقق المرأة غايتها .. سريراً ماسياً أو قفصاً ذهبياً.

وبعد موعدٍ علميٍّ عمليٍّ سيتم تباحثه في القاعة الدراسية بينهما، وتحت العدسات الصامتة، تلك العدسات اللامرئية التي تحتفظ باللقطات مؤرخة لكل الأحداث التي تدور فوق سطح القمر كي تسجل الخير والشر الصادر عن قاطنيه، أقبلت إس جينفر عليه وهي ترتدي لباساً أسود ضاغطاً على كل جسدها يشبه في هيئته جلد ثعبان أسود، مثيرٌ حدّ الشبق، لم يكن للباس دورٌ غير إضافة جلدٍ جديد وبشرةٍ مختلفة، أسبلت شعرها الذهبي مجدداً على كتفيها وما كان للضرورة أن تُبرز شيئاً من تضاريسها الظاهرة سلفاً للعيان قسراً وعناداً، وقفت أمامه تعرضُ جسدها ثم دعته برجاء أن يُمعن النظر فيه وقالت:

- زد كاظم، أيُ أعضاءِ المرأةِ أكثرُ اشتهاءً لديك، تلك الأعضاءُ التي تثير شهوتك الجنسية وتدفعك لممارسة الجنس دون تفكير وتأنٍ؟

أطال النظر في قوامها يتفحص انزلاقا ته وانحداراته ..

- لا أجد فيك غير جسد متكامل الخِلقة، أوشك أن يختفي منه الخطأُ والزلل، ولكني واقعاً لا أشتهي منه شيئاً ولا أرغب فيه.

تذكرت أنّ الإنسان ناقصٌ ولا يسعد إلا بالنّقص، كثيرٌ من الرجال لا يشتهي المرأة المتكاملة ولا القويّة، فالكمال لا يُعطي مساحة للإضافات، وما الجنس إلاّ إضافة ناقصٍ إلى آخر بحثاً عن التكامل الذي يُولَدُ باحتكاكه ما يُعرف بالجنس...
قالت بعد برهة صمت يتيمة:
- كيف وقد مارستَ الجنسَ معي سلفاً؟ ألا تذكر ذلك؟ هل أنت فاقد للذّاكرة أم مجنون؟
- ليتني مجنونٌ، فالمجانين هم الأكثر سعادة بما وُهبوا، أنا لم أُمارس الجنس معك أبدا .. الجنس عارضٌ لا يُعبَّر عنه بالكلمات .. بل انطلق مني ماء رجل دافئٍ، ماءٌ كامنٌ في جسدي، مارس الفيض الطبيعي دون تفويضٍ منّي، أُتيحت له الفرصة فاغتنمها.
- هل يمكنك ممارسة الجنس معي عندما تحبُّني إذن، أو تعشقني أو كما يُقال تُغرم بي؟
- لا أعرف من الحبّ غير اسمه وغير ما قرأتُه في كتب وثقافات أهل الأرض.

إذا كانت اللامبالاة تكسر عناد المرأة وحتى نشوزها، فإنّ إعراض زد كاظم عنها أضاف إلى ذلك حيرة ودهشة وشيئاً من الإحباط، أصاب كبرياءها في مقتل، وتساءلت مع نفسها: كيف يقع شابٌ في شرَك امرأةٍ وتبدو عليه معالم الغرام والشّوق بالرغم من بعد المسافة[19] الهائلة التي تفصل

---

[19]-تتراوح المسافة الفعلية بين القمر والأرض بين 356,400 كم و 406,700 كم بسبب بيضاوية المدار الذي يتخذه القمر خلال الدوران حول الأرض.

بينهما، فيما يقف رجلٌ آخرُ أمامها كجبل جليد لا يُحرِّك ساكناً وهي أمامه تبرزُ كلّ مفاتنها الجذَّابة؟

تساؤلات أرادت لها إس جينفر إجابات دامغة تعينها في بحوثها على فهم وإدراك جانب الغرام الإنسانيّ، ومن ناحية أخرى، فإنها أبدت روحَ مغامرةٍ طامحةً لاقتحام ذلك العالم والخوض فيه لعلّها تدرك متعةً تغَنّى بها الأولون والآخِرون على سطح الأرض.

تعهّدت ونفسها على أن تُدرك أسرار ومعاني الحب من خلال سانتياغو وأن تنتقم لأنوثتها من المدعو زد كاظم، فهي تعتقد أنّ التغيير الجيني لبني القمر لم يُصب مشاعرهم بالموت كلياً بل جعله متنحياً، تعاهدت ونفسها على الإيقاع بهذا الفتى ولكن على الطريقة القمرية .. "نعم سأُوقعه فيما يقال أنه الغرام قبل العرض الأخير للدراسات والبحوث أو في حينها ولكنه لن يفلت من بين يديّ إلا باختياري ولن يكون الحبُ هو السوط الذي نجلد به أنفسنا..".

*****

وفي مشهد لا يقلُ غموضاً وتشويقاً لبحوث إس جينفر واستنتاجاتها المطّردة، انطلق إي جون يقرأ التاريخ بتأنٍ شديد، فالقراءة المهرولة تشبه حينها شهادة زور، انطلق كرجل آثار منقباً في دراساته يبحث عن حصادٍ مثمرٍ وعن دورِ الدِّين في التقدُّم الحضاريّ وازدهاره لدى بني الأرض، ومقارنة ذلك مع الحضارة الناشئة حديثاً لبني القمر، يبحث مدققاً بين أهم الديانات هناك سواء كانت سماوية إلهية أو أرضية بشرية، وضعية أو مُنزلةً وحياً، وإدراك علاقة هذه الأديان جميعها بترسيخ فكرة ومفهوم الشيطان أو ما يعرف بإبليس

عند عامة سكان الأرض، وكذلك الدّور الذي تلعبه بأناملها فكرة (الشيطان) وتأثيرها على التقدم الحضاري للبشرية أو ما إذا كانت عاملاً مثبطاً للهِمم وقاتلاً للعزم.

اختار إي جون - والاختيار غالباً ما يقعُ علينا وليس بأيدينا كما نتوهم - اختار شاباً يافعاً من شبه القارة الهندية يُدعى (ديبا)، انتقاه عينةً باعتباره يُمثلُ أرضَ حضاراتٍ خصبة التقت فيها أديانٌ شتى ووُلدت فيها لغاتٌ عدّة، تتلاقح فيها ثقافاتٌ تاريخية توَلّد عنها فقرٌ مقذع أدّى إلى تخلّف قاتم قابله بصورة مضادة تقدمٌ علمي وابتكاراتٌ مهولةٌ في لوحة معبرة، تقول أنّه من التعاسة تُخلقُ السعادة، تنوعت فيها الثروات الطبيعية وكان على قمة هرمها "الرأسمال البشري" أو ما يعرف "بالثروة البشرية " التي تُعتبر الثروةَ الأكثر قيمة والأقل تقديراً.

عكفَ إي جون على مسامرة ديبا باستمرار عبر الغرف التعليمية المعتادة، يُجري عليه تجاربه ويطبق عليه نظرياته ثم يختبر مدى مصداقيتها، وقد أُصيب إي جون نتيجة لذلك بانتكاسة كادت تصيبُ عقله شللاً، فقد كان ديبا من أولئك الذين يعزون كلّ شاردة وواردة للدين وتأثيراته، فكلما تحدثا في أمر إلا وكان للدين بغيبياته دورٌ بارزٌ فيه، وإمّا أن تكون القوة الربانية المؤثرة والمحركة ظاهرة أو باطنة، كان شديد التدين حدّ العمى، وشديد الإيمان الراسخ حدّ التزمت والجمود، زُرع ذلك المبدأ في نخاعه، ولم يكن يفهم للإيمان معنىً غيرَ إعادةِ أمورِ الطبيعةِ وإحالة تفسيرها إلى أسبابٍ ميتافيزيقية، فما إن يقفُ عقله عاجزا عن استنتاج حل ما، إلا

وعزاه إلى أمر خارق حتى أوشك أن يقول لمحاوره أنّ الاشتراك نوعٍ من الشرك، كان بحسب عقيدته يرى أن للكون ثلاثة عشر رباً بينما ترى عقائد أخرى أعداداً مختلفة للآلهة، تتخذ الآلهة شكل بشر رجالاً ونساءً يتناسلون أحياناً...

استوقفه إي جون يسأله عن تناسلهم ..

- أيُ ربٍ منهم كانَ والداً للرب الثالث عشر؟

- الثاني عشر.

- ومن أنجب الربّ الخامس؟

- الرابع.

- ومن هو والد الربِ الأقدم، الرب الأول؟

- لا أحد حسب علمنا، وربما يكون الغيب هو من أنجبه!

تساءل إي جون عن سبب انقطاع السلسلة "الإلهية" ولماذا تنقطع السلالة عند ذلك الرب بالذات[20] ... ولكن التسليم بالغيب يقيك شرّ فكرك وما يعتريه من ترف، يكفيك أن توصف بالعجز عن الاستنتاج وبتر علم المنطق الطبيعي.

أعاد ديبا ذلك مجدداً للميتافيزيقيا التي قد يعجز علم المنطق عن إثباتها، وبالرغم من أن حديثه لم يجانبه العلمُ إلا أنه يظهر أن للدين سطوة اعتقالٍ وجلدٍ على العقل تثبطه وتحدُّ من عزيمته وقد تشله تماما.

---

[20]-يمكن للقارئ الاطلاع على مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا ومنها "الإشارات والتنبيهات" لمعرفة أهم النظريات الوجودية في الإسلام ومقارنتها مع الديانات الأخرى.

وفيما يُعنى بمجتمعه، تحدث ديبا عنه بزهو طاووس أطلق ريشه للسماء وقال:
- هو مجتمعٌ أراد له القدر قسراً أن يكونَ مشلولا، مجتمع فيه هبات طبيعة متعددة ولكنها لا تفيه احتياجاته، مجتمع عاث فيه الفقرُ فسادا ورمته الكرة الأرضية بحروبها وويلاتها وأمراضها، فأطلقت زلازلها وبراكينها وفيضاناتها على ترابه وساكنيه، أوشكت أن تمحيه من الأرض وتطمره في طينها، إلا أنه أبى واستعصم، وتمسك بشعاع الأمل بكل أنامله حتى غدا يناطح السحاب ويتقاسم المجد مع السماء. الهند بلد لم يمتلك من الثروات الطبيعية شيئا ذا بال، إلا أن قيمته الفعلية في الإنسان الهندي عينه، إنّ أغلب الثروات والمصادر الطبيعية تنضب بعد حين، إلا أن الإنسان مصدرٌ وكنزٌ لا ينضب، ومن يندب حظه العاثر على ثروة وجدت في أرضه صدفة، فإنه يفقد أكبر المصادر وهي عزيمة الإنسان، وهذا ما رسّخ مبدأه الإنسانُ الهندي.

استوقفه إي جون بمداخلة ربما تعيده للتفكر في الحضارات الأخرى وأنها جميعاً متداخلة تعمل من خلال نظام العولمة الذي حوّل العالم البشري إلى قرية صغيرة؛ إلا أن ديبا استرسل في التغني بقومه ومجتمعه في اعتزاز سلوكي ممقوت..
- الهند يا عزيزي، هي تلك الدولة التي كانت عبر حقب طويلة فقيرة وبائسة، هي التي بعثرت أبناءها في كل بلدان العالم منذ مائة عام أو يزيد، هاهي الآن أحد أقطاب الأرض بعقولها التي تقود الثورة التكنولوجية في أرجاء الكرة الأرضية، فلا يكاد

يوجد اختراع إلا ويكون وراءه عالم هندي، لقد ولد الهنود من رحم الحرمان وكان الإيمان بأن الإنسان ذاته هو أكبر ثروة منحها الربُّ للبشرية.

ظلّ ديبا يتفاخر بما حققته بلاده ويتطلع ـ كما أقرانه ـ لأن يكون السبق لديهم دائما، والمستقبل طوعا لهم على الأرض وعلى ما جاورها من كواكب أخرى، ويبقى للإيمان دور فاعل في تغيير حياة الأمم شرط توافر العمل الدؤوب.

خلص إي جون بعد طول عناء إلى أنّ الدينَ عمليا هو تلك المبادئ والقيم الحياتية الشاملة التي تسمو بالحياة في سبيل البلوغ إلى الكمال، وهو أيضاً نظام اجتماعي للعلاقات بين البشر يسمو بهم نحو علم وعالمٍ فيه الخير والجمال؛ ولقد كان منذ القدم للدينٍ دورٌ كبير في تغيير مجرى الحياة البشرية حيث يعتمد أساساً على صيرورة فهم الإنسان له واستيعابه لمبادئه ثم التعاطي معها، هكذا كان لبني الأرض مشارب شتى في استيعاب الأديان وربما يتفق البعض ويختلف آخرون حول نظرية وحدة الأديان.

لقد أدركت كثيرٌ من التجمعات البشرية الدين وكأنه عدوٌ لها ويقف حائلاً كبيراً في رخائها، فذهب بعض الناس إلى إلغاء وجود الإله الخالق بكل قوانينه السماوية واستبدلوها بقوانين وضعية، ومنهم من فصلوا الدين عن حياتهم واقتصروه على دُور العبادة فقط، وهناك من أقحموا الدين بشكل عبثي في كل شاردة وواردة ثم وقفوا أمامه ينتظرون فرج السماء!

*****

وكان لزد كاظم حكاية أخرى تبحث عن كلمات تكتبها، فقد أعلن المدادُ عن بلوغه سنّ اليأس، حكاية بألفِ ليلة وليلة أرضية؛ فحين عمَدَ يبحث عن زاده بين بني الأرض، أرهقه البحث والتّقصّي عمّن يريد فأرخى للقدر حباله وجعله يقبلُ كيفما تريده الحياة ويشاءُ الحظ، وذلك ليقينه أنّ الحظ يقف بجانب من يؤمن به، وضعته المفارقة والصدفة المحمودة أمام فتىً عراقيٍّ في مشرقِ العقد الثاني من عمره، كان متميزاً، شامخاً في بحوثه العلميّة، وقد سطع نجمه وعلا مكانه حتى أصبح ذلك واضحا، بل ساطعا كسطوع الشمس فأقرّ له بذلك أقرانُه وأساتذته، ولكنه في مقابل ذلك، لم يكن يرى نفسه سوى جرمٍ صغيرٍ في الكون الفسيح غير المحدودة أبوابه، والمتسعة آفاقه، لعلّه أدرك أن تجليات الكون كامنة فيه.

أدرك زد كاظم بفطنته ومتابعاته أن هذا الشاب العربيّ الذي يُسمى "علياً" يختزلٍ كثيراً من ثقافات بني جلدته بين دفتيه ويعكس طوراً كبيراً من تاريخها ومستقبلها حتى تخيله غيرَ إنسان، كان يتمايز عن سواه بدفء وحنان الأسرة التي نبت في أحضانها، تمتع واثقاً وتغنى كثيراً بوالديه وبالروابط الأسرية التي أنبتته نباتاً حسناً، كان يتنقل بين أحضان أبويه احتماءً بهما من نوازل الدهر وطلباً لمشورتهما ودعائهما، صار لا تنطلق خطاه قبل أن يهدياه مباركتهما، أصبح لبنة مباركة تكوِّن نسيجه الاجتماعي، كان إحساسه بوجودهما كفيلاً بأن يجعله ينام قرير العين يساندانه عند العثرات ويقومانه حين الاعوجاج.

استرسل عليٌ ذات مساءٍ يصفُ الحبّ الذي لا يحيا الإنسانُ سوياً إلاّ به، حبٌ فيه فيضُ مشاعرَ ليس للجنس نصيبٌ منه، حبٌ ملائكي لا يقوم على إشباع رغبات ولا يتوقعُ وليمة ولا فريسة، فالحب الأبويّ سياقاً هو النوعُ الوحيدُ الذي لا ينتظر فيه الأبوان ردّ دَينٍ ولا معروف، ومن يُتقن هذا الحبّ ممارسة وسلوكاً يرى حبيبته وأسرته ووطنه بنياناً متراصاً بل خالداً.

لم يكن لزد كاظم رغبة في إبطاء مسيرة علي البوحية فقد كان في قمة استمتاعه وهو يصغي لكلمات تصفُ قِيَماً إنسانية متعاليةً قلّ نظيرها وانقرض واهبوها، ولكن كان لزاماً عليه أن يُدرك ما أُنيط به من مهامٍ سابقة تمثل لبّ بحوثه وتُحرك دفةَ سفينته .. سأله مستنكراً:

- كيف لك أن تدّعي أنّ ما يُعرَفُ بالحب هو القادر على فك طلاسم الحروب والنزاعات وأنت في العراق حيث مسرح الصراعات الدموية لا يتوقف هدنةً إلا لينطلق في فصل مآسٍ جديدة؟

- الحبُ - يا عزيزي - قيمة إلهية شامخة سامية، ولكنها تتهاوى أمام سطوة السياسة، كما أنني أرى أنّ الحب كارثة طبيعية لا تستشير الأرض حين ثورتها.

- كيف لشعبٍ ينطلق من قيمٍ أسريّة واجتماعيّة صلبة أن ينحدر نحو الهاوية وهو يزرعُ الحب والسلام دوماً؟

- ليس العراق ببعيد عن بقية الشعوب ولا استثناءً عن بني البشر، فالسياسة هي القيادة والقدرة على تدبير شئون الناس الداخلية والخارجية، وهنا يكون حبُ الأنا العظمى عند

السياسي نفسه؛ فهو أولاً يُغرم بنفسه فيجر النار جراً نحو مطبخه، ومن ثم يحاول تدبير رقعته الجغرافية بحدودها وبما احتوت مع الآخرين لتكون وليمته الكبرى ... ولكنّ أعظم الساسة فاشلون، هو فشلٌ مركبٌ ناتجٌ عن حبّ تثبيت الذات، وترسيخ الإطارِ الجغرافيّ، قد يتحول إلى جنون عظمة يُسقط سقفَ الدولة على قاطنيها فيزداد الظلم، وللمظلوم قصاصٌ لا يضيع؛ وأعرف يقيناً أنّ قصاص الرحمن سقفٌ للعدالة.

- هل كان للساسة دور في تقدم أو تخلف حضاراتكم؟

- الساسة انتكاسة، وللغرور ثبورٌ وقبور، الساسة هم من يعبرون بالأوطان فوق أعتى المحيطات ظلمة وهيجاناً وعليهم ألّا يكون غرابُ الأنا دليلهم ...

استطاع زد كاظم بعد لقاءات منتظمة أن يعيَ هول الغول الذي يُسمى "سياسة" وأن يدرك أنها من مبطلات الصالحات ومفسِدات العزائم، فالسياسة لا تلتقي مع مبادئ الفضيلة في شخص واحدٍ أبداً وهو إذّاك يستذكر قصة " الإسكندر المقدوني[21]"؛ حتى أصبح زد كاظم ينتظر موعد تقديم بحثه النهائي، فقد فاضت به عدةُ وعتاد المعرفة وأصبحَ يردد: الساسة انتكاسة والسياسة نجاسة!

*****

[21]-دخل الإسكندر المقدوني إحدى المقابر ووجد قبراً كُتب عليه: هنا يرقد السياسي الصادق الأمين ...، فسأل مستنكراً إن كان في القبر أكثر من شخص واحد لأن السياسي لا يمكن له أن يكون صادقا وأميناً.

اقتربت الساعة ودنا الأجل الموعود، تقدم كلٌ منهم بخلاصةِ بحثه أمام لجنة من الأساتذة المتخصصين، يعرضون بشيء من الرضا عصارة ما توصلوا إليه لعلّ ذلك يضع بعض النقاط فوق الحروف ويعين بني القمر على الاستفادة من أخطاء من سبقوهم في بناء حضارتهم الناشئة.

بدأت إس جينفر تُدلي بدلوها وهي تضع زد كاظم نصب عينيها، تردد في سرها:" سأقطف من بستان حب بني الأرض وردة " وتخاطب الجمع شارحة:

- أيها السيدات والسادة، إنّ السلوك الجنسي عند بني الأرض يصل إلى حدّ الهوس ولأسباب متفرعة متأصلة لديهم، لقد كانت العينة المنتقاة تمثل شخصية شابٍ أسباني يُدعى "سانتياغو" وفيه اكتشفتُ إنساناً آخر، أحببته كثيرا وأعجبني نمط سلوكه الحياتيّ، فهو يجمع بين المتناقضات ليحيا سعيداً، كالنهار الذي لا يحيى دون ليل، والأجرام السماوية التي لا تكون ما لم تمت ولم تفنَ نجومٌ عملاقة، كان له أسلوب تسمو به روحه ويتعالى معها ليعيش فرحاً، لم يغفل غذاء جسده وما ترك لنفسه زاداً إلا وأخذ نصيبه منه.

فتحت عينيها وألقت بهما صوب زد كاظم تبحر حول شواطئه وكأن حال لسانها يؤكد أنّ العشق عرضٌ طارئ التقى قلباً فارغاً، ثم أردفت في إيجاز مفرداتي وإطنابٍ وإسهابٍ معنوي:

- إن الفرق والاختلاف - أيها السيدات والسادة - لجليٌ في السلوكِ الجنسي بين بني الأرض وبني القمر نذكر منها:

إن بني الأرض تحتضنهم وتؤويهم الأجزاء الجنسية منذ نشأتهم الأولى، فهم ينطلقون في صورة حيوان منوي من العضو الذكريّ للرجل، ثم يبقى في رحم المرأة تسعة أشهر، ثم يرضع الطفل من ثدي أمه لمدة سنتين تقريباً في طور آخر، وخلال ذلك كله فإنه يتخذ من حضن أمه مهداً، ولذلك يزداد تلقائياً تعلقه بالأعضاء الجنسية التي تتبلور فكرتها ويزداد وقعها كلما تقدم في العمر، وهنا فإنهم يختلفون عن بني القمر الذين وُلد أغلبهم ونشأ بعيداً عن تلك المناطق الجنسية؛ ولذلك تقلص معنى الجنس لديهم ولم يبق لديهم غيرُ الوازع البيولوجي الذي تتدفق منه البويضاتُ الأنثوية والحيوانات المنوية طبيعيا.

أعقبَ كلامَها أحدُ الأساتذة بمداخلة متوقعة: هل تعتقدين أنّ البيئة الحاضنة للنطفة منذ نشأتها وحتى انتهاء فترة الرضاعة الطبيعية هي ذات تأثيرٍ قويّ حتى يكون الإنسانُ ملتصقاً ومرتبطا مدى حياته بالرغبة الجنسية؟

اختطفت نظرة أخرى من عيني زد كاظم ثم أجابت مؤكدة ومتشبثة بما خلصت إليه مبينّة أنّ من لا يمرون بتلك الحقبة الطبيعية هم أقل تعلقاً وتأثراً بالجنس، ثم عرّجت على نقطتها الثانية:

- إن الشذوذَ الجنسيَ وهو الميل لذات الجنس يعد انحرافاً عن القاعدة الفطرية ويقال أنّ له أسباباً عدة منها ضعفُ الوازعِ الديني، إلا أنني لا أميلُ مطلقاً لهذا التفسير؛ فكثير من القساوسة والرهبان ورجالِ الدين يقفون عاجزين أمام ممارسة الشذوذ في اختراق متعمّد للطبيعة البشرية ... ومن أسبابه أيضاً الزيادة غير الطبيعية لأحد الهرمونين المسئولين

عن تحديد نوعية الجنس (تستوستيرون و أستروجين) وبالتالي يجد الإنسانُ صعوبة في ممارسة الجنس مع الطرف الآخر، ويُضاف إلى ذلك الاعتداء الجنسي خاصة في فترة الطفولة، وعامل المتاجرة بأجساد الشواذ وكذلك العزوف عن الزواج، والجهل بخطورة الشذوذ، ولا ننسى أن نضيف إلى ذلك قرينَ السوءِ والإسرافَ في مشاهدة الأفلام الخليعة ...وغيرِها من الأسباب كثيرٌ.

ولا بدّ أن ندرك جازمين أن الانحرافَ الجنسي ليس وليد عصر بعينه، فهو قديم قدم الإنسان نفسه، فمهما وضعنا له من مبرراتٍ كالتكنولوجيا والإمكانات الحديثة وغيرها، فهناك أيضاً أسبابٌ مساعدة؛ ولعلكم تعرفون ما ورد في القرآن الكريم - كتاب المسلمين المقدس - من قصة قوم لوط في العصور الغابرة وكيف أنهم كانوا أولَ قوم يأتون الرجال عوضاً عن النساء[22].

رفع أحدُهم يده في مداخلة أخرى: هل خَلُصتِ في بحوثك إلى أن المثلية هي أحدُ أسباب الشذوذ أم هو نتيجةً له...؟

- إنني أرى جازمةً أنّ المثلية هي الشذوذ بعينه، وهي نتيجة إسراف غير محمودٍ في الجنس.

ثم أردفت حديثها بما استنبطته وخلصُت إليه:

- وعليه نستطيع القول أن مشكلة الجنس عند بني الأرض أثرت على حضارتهم سلباً، فجَرّت بعضهم نحو الشذوذ،

---

[22]-قال تعالى في سورة الأعراف:" ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (80) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (81) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون(82)

وسحبت الكثير إلى ميدانها بحيث أصبح لا يرى أي هدف في حياته غير الجنس وهو عائق أمام الدخول في مجال العلم الذي يؤدي إلى نشوء الحضارات الكبيرة وارتقائها، كما كان الجنس وراء الكثير من الحروب التي أدت إلى تخلف وتأخر كثير من الشعوب عن مواكبة الزحف العلمي.

انتهى عرض إس جينفر لأطروحتها ولكن حكايتها لم تنته بعد، بل بدأت معها حكاية أخرى، هي حكاية الأنوثة المغتصبة، كانت دراستها تندرج تحت ما يعرف على الأرض بعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية (social anthropology)، وفي ذلك السياق الرائب فإن المرأة تبقى لبؤةً لا تقبل خدش أنوثتها وإن أرهقها ذلك ذلّاً ووبالاً، وبالرغم من اعترافها ومعرفتها بفارق التكوين النفسي بين بني الأرض وبني القمر، إلا أن لصيرورتها الأنثويةِ وابلا يصبُ جامّ غضبه على قلبها ويبعد الحكمة المتعالية عن عقلها، أقسمت مجددا أن تغزو قلب زد كاظم بسيف عشق ورمح غرام.

*****

اقتضى التسلسل في مناقشة الأطروحات أن يتقدم إي جون ليتحدث أمام اللجنة المختصة عن تأثير الدين وسطوته على نشوء الحضارات الأرضية وما إذا كانت عاملاً محفزاً أم محبطاً... اعتلى المنصّة ثم تحدث وكأنه يحمل نفسين في شخصٍ واحد، كان يستغرق في طرحه بين الفكرة وأختها، يتحدث ثم يراود نفسه ويستغرق معها، يصاب بشرود تكاد أنفاسه تتوقف ثم تتسارع باطرادٍ مخيف، تحدّث بصوت كالرّعد ثم يعقبه بهمس فيه كثير من الشّجن:

"أيها الحضور الكريم، لقد أناطت بي اللجنة البحث عن دور الأديان في ازدهار الحضارات على الأرض، ولكنّ عدد الأديان غير محدد فهو كبير جداً، سواء تلك السماوية أو الأرضية الوضعيّة ولكنها - أيها السيدات والسادة - تتشابه كثيراً في قيمها الأخلاقية إلى حدّ بعيد، وما يهمّنا هو دور الدين في ازدهار الحضارات الأرضية.

وفي هذا السياق فقد اخترتُ رجلاً هندياً يدعى "ديبا"، برهن على أنّ الدين والوطن لهما معانٍ أخرى جبّارة، أدركت من خلاله أن الإنسان عاجزٌ كلما تعملق، وتزداد حيرته كلما فتح آفاقاً جديدة، فمهما اتسعت معارفه تفتحت أمامه آفاقٌ أكبر، وكلما تقدم في العالم أدرك أن هناك من يقف خلف هذا الخلق كله، قد لا أكون ممن يفسّرون عجز الإنسان بتفسيرات تعودٍ إلى علم ما وراء الطبيعة، إلا أنني أعرف أن للطبيعة حدوداً، فمتى وُجد أولٌ فهناك حتماً آخر، قد لا نعرف كنه هذا الآخر ولكن العقل البشريّ ربما يكون قادرا على إدراك الأبعد بدلا من التسليم بالضعف وقلة الحيلة، أبهرني اعتزاز هذا الرجل بقومه وشعبه، فالإنسانٍ حسبما يُعتقد هو دين ووطن ... يكون ذلك أساسا ثابتاً والبقية متغيرات، فدون وطنك تصبح صفرا وبدينك تمسي حراً.

لم يكن الدينُ بذاته عائقاً يقف أمام تقدم الحضارات ذاتها، ولكن النّقص الفكريّ الذي يواكب العقلَ البشريَ هو الذي يتيح تفسيرَ كلِ شيء بناء على الفهم والإدراك، ومتى ما علمنا أن عقل الإنسان ناقصٌ فإن ذلك حتماً يقودنا إلى نتائج عكسيّة، ويدفعنا إلى البحث عن مخرج لكل نفق مغلق، أو

مأزق لم يكن عقل الإنسانِ قادراً على تحليله والخوض فيه؛ إن فكرة الغيبِ تعطي كثيراً من الحلولِ لكل ما يقف العقل أمامه عاجزاً، وإن فكرة الشيطان أو إبليس هي فكرة متأصلة لدى البشر هناك، تجعلهم في حِلٍ مما اقترفت أيديهم."

لملم أوراقه وهو يطيل ويبعثر نظراته بين إس جينفر وزد كاظم الذي ترنحت عيناه إلى الأرض باتجاه قدميه لا يعرف كنه هذا المخلوق بعد، حمل إي جون جثته إلى مقعده ممهّدا السبيل لزميله الثالث.

*****

في الطور الأخير من العرضِ الدراسيّ، جاء الدورُ على زد كاظم ليقدم عصارة بحوثه حول السياسة ودورها المائل للسوادِ في إحباط أي تقدم حضاري مزعوم، اعتلى المنصة مرتبكاً تبدو عليه الحَيرة ويغالبه القلق، اختار أن يتجاهل إي جون ويهرب من خافق إس جينفر، أبقى كلَّ تركيزه صوب اللجنة التي ستناقشه حول بعضِ نقاطه البحثية، تحدث بصوت منخفض:

" أُسعدتم مساءً أيها الكرام، لقد تناولتُ في بحوثي عن الكرةِ الأرضيةِ جانب السياسة بما لها وما عليها من تأثير على مسيرة حياةِ الشعوب هناك، وقد اخترتُ "علياً " من العراق لتقع عليه الدراسات بما رحبت، أيها الكرام، إنني أضع بين أيديكم عصارة ما توصلتُ إليه لعلني أصيب بعض الحقيقة وأضيف شيئاً جديداً يكون لنا عوناً في استيعاب تلك الحضارات ... فوجدتُ أنّ هناك أسباباً مختلفة نستطيع أن نوجزها فيما يلي:

إنّ أولها هو التأخر في البناء المؤسساتي داخل أي دولة، فهو أمرٌ يعتبر عاملاً محبطاً لنشأتها، وهنا أقتبس ما قاله المفكر فوكو ياما1: "إنّ عملية نقل المعارف والعلوم والمساعدة الفاعلة في عملية بناء الدولة تواجه عثرات في عملية الانتقال، كما أن عملية نقل الثقافة الاجتماعية التي يطلق عليها الرأسمال الاجتماعي تبدو أكثر صعوبة في هذا السياق، والحقيقة إن الرأسمال الاجتماعي السائد في أغلب الدول الفاشلة والضعيفة يشكل المعيار الأكثر وضوحاً في إعاقة البناء المؤسساتي والقانوني للدولة."

أما السبب الثاني فيكمن في البيروقراطية التي تعتبر مرضاً ينخر عظام أغلب الدول إضافة إلى كونه يؤدي إلى انتشار روح الإتكالية والاستئثار بالسلطة واستغلال المناصب، أيها السادة: إن محاولة تحجيم قدرة الدولة والسلطة السياسية على التفرد والطغيان هو عامل يعكس ارتباط النظام السياسي الديمقراطي بقوة الدولة واستقرارها، ولذلك نستطيع القول إن عملية البناء المؤسساتي تبقى تشكل الأساس في إنجاز قاعدة الإصلاح الذي يصفه كثير من المفكرين على أنه ظاهرة انثروبولوجية لا تتحدد بنطاق جغرافي أو ثقافي معين[23]، وفي هذا السياق أقيمت معاهدات متعددة تدعو إلى اعتبار أنّ السلام العالمي يتطلب تدخلا أكبر في قضايا الأمن وحقوق الإنسان مادامت عملية

---

[23]-يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية يعد من أهم مفكري المحافظين الجدد. من كتبه كتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) و(الانهيار أو التصدع العظيم).

إنّ أولها هو التأخر في البناء المؤسساتي داخل أي دولة، فهو أمرٌ يعتبر عاملاً محبطاً لنشأتها، وهنا أقتبس ما قاله المفكر فوكو ياما[23]: "إنّ عملية نقل المعارف والعلوم والمساعدة الفاعلة في عملية بناء الدولة تواجه عثرات في عملية الانتقال، كما أن عملية نقل الثقافة الاجتماعية التي يطلق عليها الرأسمال الاجتماعي تبدو أكثر صعوبة في هذا السياق، والحقيقة إن الرأسمال الاجتماعي السائد في أغلب الدول الفاشلة والضعيفة يشكل المعيار الأكثر وضوحاً في إعاقة البناء المؤسساتي والقانوني للدولة."

أما السبب الثاني فيكمن في البيروقراطية التي تعتبر مرضاً ينخر عظام أغلب الدول إضافة إلى كونه يؤدي إلى انتشار روح الإتكالية والاستئثار بالسلطة واستغلال المناصب، أيها السادة: إن محاولة تحجيم قدرة الدولة والسلطة السياسية على التفرد والطغيان هو عامل يعكس ارتباط النظام السياسي الديمقراطي بقوة الدولة واستقرارها، ولذلك نستطيع القول إن عملية البناء المؤسساتي تبقى تشكل الأساس في إنجاز قاعدة الإصلاح الذي يصفه كثير من المفكرين على أنه ظاهرة انثروبولوجية لا تتحدد بنطاق جغرافي أو ثقافي معين[24]، وفي هذا السياق أقيمت معاهدات متعددة تدعو إلى اعتبار أنّ السلام العالمي يتطلب تدخلا أكبر في قضايا الأمن وحقوق الإنسان مادامت عملية

[23]-يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية يعد من أهم مفكري المحافظين الجدد. من كتبه كتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) و(الانهيار أو التصدع العظيم).

[24]-يمكن للقارئ الاستفادة مما تناوله الكاتب الجزائري الشهير محمد أركون في بعض مؤلفاته ومنها تاريخية الفكر العربي الإسلامي، الفكر الإسلامي قراءة علمية.

بناء المؤسسات البيروقراطية للدول الضعيفة والفاشلة لم تمنح النتائج المرجوة منها في تحقيق البناء والإصلاح والتجديد[25].

وبالعودة إلى الألفية الثالثة، نلاحظ أن النموذج العراقي يمثل صورة واضحة لذلك، فقد تحولت الدولة العراقية بعد عام 2003 من دولة فاشلة إلى دولة ضعيفة، لأن السلطة السياسية وبقية المؤسسات لم تستطع فرض قوانينها في تلك الحقبة، بل نافسها في ذلك ميليشيات مسلحة ومراكز قوى متعددة أدّت إلى استنزاف الثروات الطبيعية وإحباط كثير من المحاولات التي سعت جاهدة من أجل صناعة الحضارة الإنسانية هناك، ولا ننسى أن نوضح الدور القمعي لارتباط السياسة بالدين وإنّ الأول متولدٌ من الثاني وأنهما متعاونان بروابط محبة تعمل على إذلال بني الأرض[26].

بانتهاء عرض الأطروحة التي تقدم بها زد كاظم ورفاقه، انطلق وابلٌ من المناقشات والحوارات الجماعية والثنائية أفضت إلى توصيات رُفعت إلى الجهات المختصة للاستفادة منها وتفادي مطبات وانتكاسات تاريخ بني الأرض.

انتهت فصولُ الدراسة وعادت الطيور المهاجرة منها إلى سيرتها الأولى وحياتها الطبيعية، تتجاذبهم صراعات مختلفة مع ذواتهم، وكلما تجاسر الصراع مع النفس إلا وطفق صاحبه

---

[25]-تعتبر معاهدة ويستفاليا ((Peace of Westphalia العام 1648 أول اتفاق دبلوماسي في العصور الحديثة وقد أرست مبدأ سيادة الدول وأصبحت كثير من قوانينه جزءً من دساتير دول كثيرة، يُذكر أن هذه المعاهدة أنهت حرب الأعوام الثلاثين في الإمبراطورية الرومانية، وحرب الأعوام الثمانين في اسبانيا.

[26]-يذكر عبد الرحمن الكواكبي في كتابه الشهير طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد أنّ الدين والسياسة أخوان أبوهما التغلب وأمهما الرياسة وأنّ أحدهما يتصرف في الأجساد والآخر في القلوب.

في عداء مستفحل مع الغير، أقزام الأنفس هم الأشد وطأة مع الآخرين والأكثر ضراوة مع الناس، تلك صورة تعبر عن عجزنا الداخليّ.

*****

بعد التجربة البائسة اليائسة التي مرّت رياحها العاتية بإس جينفر، أرادت الفتاةُ أن تجرب تلك الأنوثة التي يتغنى بها أولو الأرض وذلك الحب الذي مابرح إنسان الأرض يكتب فيه الشعر والقصص، يتغنى به في مواويله، في أفراحه وأتراحه، ذلك اللغز الذي يصيب الباحثين في كنهه بداء الحيرة، قيل أن الحب جنون، وأن داءه الوصال؛ هنا أرادت إس جينفر أن تكتشف ذلك السر الدفين وأن تزرع الحب زرعاً في صدر زد كاظم لعلّها تحظى بما حظي به الأسبقون الوالهون، ليتها تدرك كيف يكون للجنس متعةٌ إذا اقترن بالحب، وتساءلت مجدداً: ما هو الحبُ أصلاً؟ ومتى يصل البشر إلى درجة العشق؟

تسلحتْ بقصص العشق والغرام الأرضية لعلها تحرز أهدافها وتبلغ منتهاها، دعته إلى مطعم قزح الواقع على منحدرات جرف شلالات البحيرة العظمى، وسط رذاذ المياه المتطايرة وتحت قوسِ قزحِ الذي يضفي لمسة فردوسية على المشهد الرومانسي العام، تناولا عشاءهما وموسيقى خريرِ الماء تعبث بمسامعهما، أمسكت بيده فارتد ممتعضاً، اقتربت منه بأنفاسها فتردد متأفّفاً، حاولت تقبيله فدفعها بكلتا يديه ثم .. تركها خائبة تترنح؛ تساءلت عن إبليس الذي كان مصدر غواية البشر ولماذا لم يأت سريعاً ويحقق

أهدافها؟ حسدت أهل الأرض كثيراً على هبة السماء لهم، فاختلج بداخلها صوت يردد هامسا :" وهبتكم السماء إبليساً فكيف تلعنونه؟" ، قررت أن تحاول مرة أخرى ولكن بأساليب أكثر نجاعةً لعلها تدرك ما فاتها وما ظفر به بنو الأرض.

أمّا هو، فقد كان معتقداً أنّ إبليس هو من يقف خلف إس جينفر ويدفعها نحو باب ارتكاب الرذيلة معه دفعا: " إنه إي جون، لا بدّ أنّه لن يقبل بالهزيمة وسيخرج من خلف الستار قريباً لينصر حلفاءه، ليُفرح إس جينفر ويقتصّ مني".

استطلع ما وراء السحاب الهابط طواعية على سفح الجبل، انتفض حين رأى في الجوار مجموعة من بني القمر، وأدرك أن إي جون هو من يدير ظهره له، فإبليس - كما عُرف في الحكايات - لا يظهر إلا متخفيا، تحدث ونفسه: "إنه إبليس وفق نظرية الحلول وقد اتّخذ من صورة إي جون صورة له".

لم يفكر في الهروب إنما المواجهة هي السبيل الأسرع للانتصار، اقترب منه بخطىً بطيئة متثاقلة، كاد يربتُ على كتفه الأيسر بيمينه إلاّ أنّه أحسّ بوخزٍ في فؤاده فارتدّ منكسراً في ذات البرهة التي التفت خلالها الرجلُ إليه فالتقت عيناهما .. ولم يُوجس منه خيفة، همس لذاته : " إنه ليس إبليس" ... وتحدّث إلى الرجل بصوت يشوب وضوحه شيء من نبرة الاعتذار : "إنك لست إي جون، الرجل الذي أبحثُ عنه.."

واصل طريقه يبحث بين المجموعات البشرية المتناثرة هنا وهناك عن ضالته المنشودة، يُدير عنقه كالحمامة في حركة دائرية شبه مكتملة حتى أصابه اليأس وكادت تخيب

ظنونه، قرّر أن يعود بخفي حنين حتى شعر بغتةً بمن يضع راحة يده على كتفه ويكاد يغرس أصابعه فيه، هي ذاتُ اللمسة؛ أدار وجهه سريعا فإذا به يبتلع أنفاسه وتتسع عيناه ويستدير فمه ..

- أنت؟ إبليس؟ إي جون؟

- ألا تزال تراني شيطانك الذي يجثم على صدرك ويتحرك معك أينما رحلت وكأني فوق كتفك الأيسر؟

- وهل للشياطين دورٌ غير ذلك؟ يتلبسون وجوهاً عدة ويبقون بجوهر واحد.

- أنا إي جون ولست إبليساً، أنت من تتوهمني شيطانك المناط بك؛ إن شيطانك القوي هو نفسك أنت، أما إبليس فهو شيطانك الضعيف[27]، وإبليس نفسُه كان له شيطان نفسِه الذي زيّن له معصية ربه كما تذكر الكتب السماوية.

- لا أظنّك إلا ذلك الكائن الناري الذي يُزين للمخلوقات سيئات أعمالهم.

- وهل زيّنتُ لك شيئاً من أعمالك؟

- نعم، لقد دفعت إس جينفر لممارسة الجنس معي... كما كنت تسعوتُحقّقُ ذلك على الأرض من قبلُ.

- ولكني لست إلا رجلاً مثلك من بني القمر.

---

[27]-قال تعالى في سورة ق الآية 16: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ"

بدت القناعة على وجه زد كاظم واستبشر خيراً، تبسّم إي جون في مقابل ذلك هازئاً وهو يعلن انسحابه التكتيكي من أرض المعركة، ضحك بين جنبيه ساخراً وهو يقول: " هي طبيعة الإنسان بذاته، فسواء كان قمرياً أو أرضياً فإنه لا يجد غير الوساوس تملأ رأسه وتعيث فيه فساداً، لم يكن يعلم من دوافع إس جينفر إلا رغبتها الظاهرة في الجنس، ولم يجد مبرراً لزللها غير إسناد الأمر للقوى الخفية التي تدفع للخبائث، كيف لرجل لم تكن للخرافات والموروثات يدٌ في تكوين شخصيته أن يمسه البله إلى حد الإفلاس الفكري؟"

اتضح لإي جون بجلاء أن النقصَ يسيرُ في صورة موازية مع الكمال ولا يمكن لأحدهما أن يكون مطلقاً، لقد كان إبليس ذاته في الجنة[28] وأصاب بغوايته آدمَ الذي طُرد منها إلى الأرض، فهبط بمعيته إليها متعهداً بغواية كل البشر، وها هو ينتقل معهم إلى القمر، تحدث بصوتٍ مدوٍّ عاد صداه مع الشلالات العاتية ليعانق جبل الناموس وكأنّه أفضل من يصغي إليه ويستوعبه: " لماذا لا توقف غواياتك أيها الوقح، بدأتها بتفاحة، ثم بوسواس ليقتل قابيلُ هابيل، أثرتَ الحروب كلها، أغويت كل رجال الساسة، أثرت كل مكروه وزيّنت كل قبيح، فاستحسن بنو الأرض كلّ الرّذائل ووضعوها خطأً في سرداب مظلم داخلي يحمل كلّ

---

[28]-قال تعالى:" فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ" الأعراف 22

وقال تعالى:" قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" الأعراف 24

كلخطاياهم... ورموك بعد ذلك بسوءاتهم كي لا يُساءلوا عن زللهم وخطأهم، إنها الغواية الكبرى .... عليك اللعنة من خالقك .. وعليك الرحمة ممن اتّبعك".

*****

في تلك الحقبة المتراصة بالمتناقضات والحافلة بالأحداث المتعاقبة، أصاب زد كاظم هوسٌ متلاطمٌ كاد أن يغرق معه في بحر الشك والارتياب ولكنه ظلّ مبتسماً، إنّ ابتسامة الشتاء البارد تهبك حبّ الحياة، كان لباكورة حديثه مع علي بالغ الأثر فيه وكان لِما خَلُص إليه إبّان دراسته سيلٌ جارفٌ من الأسئلة الحائرة أضاف إليها إي جون هوسَ الشياطين وخنسهم، تحول تدريجياً إلى كائنٍ إنسيٍ بلا لونٍ ولا هوية، أعادته تلك الأحداث والمشاهدُ إلى فراغٍ تاه فيه وأضاع خلاله الهدف من الوجود والحكمة من وراء الخَلق.

*****

غادر زد كاظم البنكَ محبطا بائسا وهو يعرف أنّ أباه لم يقل كلّ شيءفمن يشي بنفسه يخسر كلَ معركة، ودونما تخطيط مسبق أخذته العربة الهوائية مرة أخرى إلى سكن إس جينفر .. زميلته في الدراسة، بدا عليه الشحوبُ والهذيان فاستبشرت خيراً وطربت سعادةً وقالت:

- أفرحني وجودك هنا، لا بدّ أنك شعرت بحبي وعميق اشتياقي لك، إنني أعرف أن الحب أشقى علاج.

- بالطبع، ألا ترين سعادتي مرسومة على وجهي؟

أطالت النظر إلى وجهه فرأت دموعه حبيسة مقلتيه والحزن يلف وجهه الشاحب .. اقتربت منه ومسحت على رأسه براحة يدها، تذكرت ما قرأته عن أدب الحب والغرام

على الأرض وقالت:
- الدموعُ مطرُ العينِ التي تسقي بستان الروح، فهل فعل الغرامُ بك كل هذا؟
استذكر كلمات والده واسترجع الغرام الذي دفعه لزواج المثليين..
- نعم، الغرام هو من فعل بي كل هذا.. وهي الحالة التي لا يمكن لأي رجل أن يفسر منطقيا سبب حبه فيها.
أقبلت عليه بكلها لعلها تدرك ما فاتها، وما مضى منهما غيرُ بعيد فمشوار الألف ميل يبدأ بالعشق الأول، همّت به ولكنه همّ أن يأخذها لبنك الاستنساخ بعدما أعيته المحاولة الأولى .. فقالت:
- المكان هنا مناسبٌ جداً ولا رغبة لي في الإسراف مجددا في الوقت.
أعرض عنها أيضاً، وقد تعلّمت أن نصف الإعراض دلال.
- بل هناك سيكون للقاء حلاوةٌ أخرى.
أخذها طواعية إلى بنكِ الاستنساخِ فقد عرف أنّ لها قصة موازية، دفعها إلى طلب صندوقِ أماناتها من البنك فاشترطت أن تقضي وطرها مسبقاً، وكأن لسان حالها يقول: اغتنموا الفرص فإنها تمر مرّ السحاب، وعدها أن يكون ذلك بعد الزيارة، وبعد الإجراءات الروتينية، توصلت إلى كنزها المحفوظ هناك..
كانت المفاجأة أنه لم يكن لها أبٌ أبدا بل وُلدت من والدتَين أنثيين، عقدتا زواجهما في نيويورك وبقانون رسمي من الولاية الأميركية، وما أصابها بالدهشة وضرب رأسها

بالمشيب أنها لا تشبه أحدهما بل أخذت صفات مختلفة من كلتيهما، فقد تم مزج بويضتيهما لاستخلاص خلية مشتركة تضمن "للزوجتين" معا انتقال الصبغيّات الوراثية لابنتهما.

أطال زد كاظم النظر صامتاً في عيني إس جينفر ليرى ما يعترك في صدرها ويدور في رأسها، فما زادتها عيناهُ إلا شرودا وهروبا، أصابها الصندوق بسهام من غموض وحيرة، حتى تهاوت دموعها فالبكاء متنفس القلوب الحائرة، حتى توارت ثورتها الجنسية، وتجلى الحديث بينهما بمرارة الخاسرين:

- زد كاظم، إني أنتظر حديثك لأسمع صوتي.

- لا تقلقي وابتسمي دائما، فالابتسامة في وجه الظالم عقابٌ له.

- ولكنهما نائمتان تحت الثرى.

- إن كان العاشق لا يغفو ولا ينام، فإن الظالم ينام باسطا ذراعيه.

- إني في حِلٍّ مما اقترفت أيديهما.

- نعم، أنت بُراءٌ منهما، وبراءة المظلوم خير عذاب للظالم..

- لقد عشقوا الخلود وحاربوا الفناء.

- عشق الحياة سعادةٌ متوهمة.

- هو كذلك، فشقاء الدنيا في حبها.

- وعشقها لا يحتاج إلى توثيق...

كانت الكلمات في حوارهما ذلك تكتبهما وصار لكل مفردة إزاحةٌ لغوية في نوع من الرقص الترادفي، فالجسد حين ينفث الهواء تخرج من فيه كلماتٌ، أما الروح حين تعبث بالمداد فإنها تنفثُ حكمة متجلية.

أزفَ البوح بتجلياته فعاد زد كاظم بشراً سوياً وارتدت إس جينفر إلى سيرتها الأولى:
- إني حاقدةٌ وأكرههما.
- لماذا؟
- شذوذهما مدمرٌ لمن جاء بعدهما، تمنيت أني لم أولد، أقصد لم أخلق، لم أستنسخ.
- أليس لهما الحق في سلالة تخلد ذكراهما، تحفظ اسميهما؟
- أليس لي الحقُ في رعايتهما لي؟
- بلى، ولكن؟
- شذوذهما، وانحراف الكنيسة وسواها حينها مهّدا لولادة جيل أُلقي في خضمّ الحياة غريبا.
- وأمراضُ السياسة أيضاً أضافت إسفينا آخر، ألا يعجبك وجودك هنا على سطح القمر؟
- لا أحب حياة الغرباء فكأنني لقيطة، لا أجد إلا نفسي حين أشتاق أن آنس لبشر بجواري، فللجسد قبرٌ وللروحِ أنتَ.

غادرا عائدين وقد فترت نيرانُها المتوهمةَ، تمنت أن تكتبَ سيرة عشقٍ جديدةٍ معه وألّا تصطدم به أبداً فتصادمُ المتشابهَين يزلزل أرضيهما...

*****

قرّر زد كاظم الفرارَ من الواقع والاختلاء بنفسه لعله يجد تفسيرا لواقعه، راغبا في التوفيق بين حياته الخاصة الآنية وحياةِ البشر، باحثا عن سبيل يرشده للعودة إلى الإنسانية، فمما لاشك فيه أن الإنسان كائن اجتماعي يُقتلُ إن وضع خلف قضبان السجون، فكيف له العيش إن تحولت ضلوعه

إلى قفص يخنق قلبه؟ لم يجد غير الحب فالحب هو الأسر دون سجن.

حمل جسده وأحلامه وتوجه إلى قمة جبل الناموس الأسود على ارتفاع 600 متر تقريبا، وهو جبل بركاني نشط لا يكاد يتوقف عن الحيض، يمكنك من خلال قمته مشاهدة أهم المدن القمرية القريبة، وتستطيع معه النظر في الأفق إلى الأرض، ذلك الكوكب الأزرق، توجه هناك آملا بالاختلاء بنفسه هاربا من إنسان القمر وشياطينه.

لم يكن يريد استعادة الذاكرة والخوض في تفاصيل الترف الفكري والفضول المعرفي باعتبارهما وسائلَ نصبٍ اجتماعية، ولكنّ هوسَ واقعِه ومرارة أيامِه تلازمانه أينما حلّ وارتحل، وضع يديه متشابكتي الأصابع خلف رأسه لعلّ النعاس يغالبه بل ويضاجعه، أغمض عينيه واستشرى إليه النعاس سريعاً دون مقدمات فرأى والده مناماً وهو في هيئته تماما، كمن يتحدثُ إلى المرآة فما سمعَ غير كلمة: أحبكَ.

فعاتبه بلطفٍ ولين: إنّ شذوذك الجنسي وشهوتك الحيوانية لا تبيحان لك حرية التناسل، فبناء الأسرة ليس إنجاباً بل هو دفء وعطاء، التناسل البشري وسيلة لحفظ النسل وإعمار الأرض أما الاستنساخ فما وُجد إلا لما استعصى على التكاثر الطبيعي.

أقبلت عليه إس جينيفر من بعيد على جناحٍ من الشوق وكان يرافقها إي جون وفي عينيه شعاع جهنمي أحمر .. ما إن اقتربا من زد كاظم حتى وقع ذلك الشعاعُ عليه وبدأ سلطانُ النوم يتنحى كالشيطان تدريجياً؛ استقبلها بابتسامة

فاستبشرت بعضَ خير، واستدبر إي جون بظهره فرحل بمارجه.

تساءلت مجدداً..

- لماذا تحمل ضغينةً بين جنبيك لإي جون؟

أراد أن يخفي حقيقة ما يشعر به تجاهه فقال:

- صوت الشقي عقابٌ للسماءِ ونحن جزءٌ من السماء هنا، ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا وفي هذه الساعة؟ تريثي وتمهلي فالجزر في الحب يقيك متاعب شيخوخته.

- والإفراط في الحب شفاءٌ منه.

استلقت بجواره وهي تنظر إلى السّماء المعتمة إلاّ من مصابيح نجومها فاستدار على جانبه الأيمن متكئاً على راحة يده، أخذ يفكر ملياً فيما آل إليه:

إنّ الشيطان هو كائنٌ نزرعه نحن بداخلنا ثم نعطيه شهادة ميلاد وكلما كبر فينا ألقينا عليه خطايانا، لذلك لا أجدُ إي جون إلا بشراً مثلنا، سأفنّد كلّ تلك المعتقدات الفاشلة وأطرد الأوهام بعيداً، لا بدّ أن تكون الحياة كما شرّعتها السماءُ وإن اختلفت التربة التي نعيش عليها لتكون مهداً لحضارات كونية عملاقة.

أخذ يفكّر صامتاً ملياً في الزواج من إس جينفر فهي فتاة وهبت قلبها له طواعية، أمعنَ النظر إليها حتى أصابه الهلعُ فجأة حين رأى بصيص شعاعٍ أحمر في مقلتيها، فارتدّ قائلاً:

إس جينفر، إس جينفر !!.

فأجابت: بقربكَ أكونُ إلهًا...

انتهت

25/5/2013

صدر للمؤلف:

1. رواية دلمونيا، دار نينوى للطباعة والنشر، دمشق. الطبعة الأولى 2015. الطبعة الثانية 2020
2. ترجمة رواية دلمونيا للإنجليزية، دار أولمبيا، لندن، 2021
3. رواية الحجر الأسود، دار الدراويش، ألمانيا، 2021
4. رواية روح الملك، دار أبجد، بابل، 2021
5. البوكر في ميزان النقد، دار سؤال، بيروت، 2021
6. رواية (م)، دار أبجد، بابل، 2022
7. ترجمة رواية روح الملك للإنجليزية، دار أولمبيا، لندن (قيد الطبع)
8. مسيح الشرق، نص مسرحي، دار أركان الإلكترونية، مصر، 2020
9. إلَّاكِ أحب، خمس عشرة قصيدة مترجمة في الحب والسلام، نسخة إلكترونية عن دار أركان المصرية 2020، وأخرى ورقية عن دار أبجد العراقية 2022
10. الهويات، دراسات نقدية، هيئة الثقافة والآثار، البحرين، 2022
11. رواية الشاهنامة، هيئة الثقافة والآثار، البحرين، 2022
12. رواية الضحية 69، قيد الطبع

سرديات
عربية

خطيئة السرداب ... رواية مختلفة بما تطرح ، تسافر بالقراء نحو عوالم محتدمة وتكشف مقدار ما يسكننا من شر وقبح يختار المواجهة أو المراوغة ضمن اجواء غامضة لكن تفضي بنا إلى عقد صفقة مع إبليس حينما نطلب منه نحن أبناء الواقع الراهن ، بأن يتقاعد هو عن عمله الأزلي القديم كيما يرتاح ونبدأ نحن إطلاق شرورنا ونزواتنا المدمرة !

مع الكاتب البحريني المبدع رسول درويش ، ستجتاز حقولا من الألغام والكثير من الحفر الجهنمية التي ستواجهك في الطريق أثناء إحتدام الأحداث التي تسافر ما بين عواصم العالم ، فقط أحجز تذكرتك مع .. خطيئة السرداب ، تذوق ما هو ماثل أمامك مما تبقى من إنسانية تقاوم الذوبان ولكن لا تحشر نفسك في أتون الجحيم القادم ! راهن بما لديك من أوراق وأنت تقرأ ولا تتعجل فوز الشخصية التي تؤيدها قبل بلوغ الصفحة الأخيرة ، حتمًا ستروق لك التجربة ، قراءة ماتعة للجميع.

((أحمَد المُؤذّن))

منشورات سرديات عربية

نسخة إلكترونية من
منشورات سرديات عربية /
الطبعة الثانية 2022م

almuathen73@gmail.com
0093-39251412